روح المعاني

في

تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

لخاتمة المحققين وعمدة المدققين مرجع أهل العراق
ومفتي بغداد العلامة أبي الفضل
شهاب الدين السيد محمود الالوسي البغدادي
المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ سقى الله ثراه
صبيب الرحمة وأفاض عليه سجال
الاحسان والنعمة آمين

الجزء الخامس والعشرون

عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية باذن من ورثة المؤلف بخط وإمضاء علامة العراق
﴿ المرحوم السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ﴾

إدارة الطباعة المنيرية
دار
احياء التراث العربي
بيروت - لبنان

مصر : درب الاتراك رقم ١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى اذا سئل عنها قيل الله تعالى يعلم أو لا يعلمها الا الله عز وجل فالمقصود من هذا الكلام ارشاد المؤمنين فى التفصى عن هذا السؤال وكلا الجوابين يلزمه اختصاص علمها به تعالى، أما الثانى فظاهر، وأما الأول فلأنك إذا سئلت عن مسئلة وقلت، فلان يعلمه كان فيه نفى عنك كناية وتنبيه على أن فلانا أهل ان يسئل عنه دونك ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ﴾ أى من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة من كمه اذا ستره وقد يضم وكم القميص بالضم وقرأ الحسن فى رواية والاعمش. وطلحة. وغير واحد من السبعة (من ثمرة) على ارادة الجنس والجمع لاختلاف الانواع. وقرئ (من ثمرات) من أكمامهن، بجميع الضمير أيضا وما نافية ومن الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنص عليه ومن الثانية ابتدائية وكذا (ما) فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ ﴾ أى حملها، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ فى موضع الحال والباء للملابسة أو المصاحبة والاستثناء من أعم الاحوال أى ما يحدث شىء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابسا أو مصاحبا بشىء من الاشياء الا مصاحبا أو ملابسا بعلمه المحيط سبحانه واقعا حسب تعلقه به، وجوز فى الأولى أن تكون موصولة معطوفة على الساعة أى اليه يرد علم الساعة وعلم ما تخرج ومن الاولى بيانية والجار والمجرور فى موضع الحال ومن الثانية على حالها، وتأنيث (تخرج) باعتبار المعنى لأن ما بمعنى ثمرة قيل: ولا يجوز فى ما الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرغ وأجازه بعضهم، ويكفى لصحة التفريغ النفى فى قوله تعالى: (ولا تضع) وجملة لا تضع إما حال أو معطوفة على جملة (اليه يرد) الخ، ولا يخفى عليك ان المتبادر فى الموضعين النفى ثم ان الاستثناء متعلق بالكل وتبيين القدر المشترك بين الافعال الثلاثة وجعله الاصل فى تعلق المفرغ كما سمعت لاظهار المعنى والايماء الى أنه لا يحتاج فى مثله الى حذف من الأولين أعنى ما تخرج وما تحمل وهو قريب من أسلوب ، وقد حيل بين العير والنزوان ، لأن خرج زيد معناه حدث خروجه كما أن معنى ذلك فعل الحيلولة وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقب لجمل والخلاف فى متعلقه فى شىء لأن ذلك فى غير المفرغ فقد ذكر النحويون فى باب التنازع وان كان منفيا بالا فالحذف ليس الا ولو كان منه لم يكن من المختلف فيه لاتحاد الجمل فى المقصود وظهور قرينة الرجوع الى الكل، والكلام على ما فى شرح التأويلات متصل بامر الساعة والبعث فانه لا يعلم هذا كله الا الله تعالى فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة وإن الكل ايجاد بعد العدم بقدرته عز وجل فيكون كالبرهان على الحشر، وجوز أن يكون متصلا بقوله تعالى: (ومن آياته الليل والنهار) الخ وبقوله سبحانه: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) الخ، فالمعنى من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن تخرج الثمرات وتحمل الحوامل وتضع حسب علمه جل وعلا، والاول أقرب.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أى بزعمكم كما نص عليه بقوله سبحانه: (أين شركائى الذين كنتم تزعمون)

وفيه تهكم بهم وتفريع لهم، و(يوم) منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك ايذانا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: (يوم يجمع الله الرسل) وضمير (يناديهم) عام في كل من عبد غير الله تعالى فيندرج فيه عبدة الاوثان ﴿ قَالُوا ﴾ أي أولئك المنادون ﴿ ءَاذَنَّاكَ ﴾ أي أعلمناك والمراد بالاعلام هنا الاخبار لأنه تعالى عالم فلا يصح اعلامه بما هو سبحانه عالم به بخلاف الاخبار فانه يكون للعالم فكأنه قيل أخبرناك ﴿ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ٤٧ ﴾ أي ما ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة فالجملة في محل نصب مفعول (آذناك) وقد علق عنها وفي تعليق باب أعلم وأنبأ خلاف والصحيح انه مسموع في الفصيح، و (شهيد) فعيل من الشهادة ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم لأن الكفرة يوم القيامة أنكروا عبادة غيره تعالى مرة وأقروا بها وتبرؤا عنها مرة أخرى وفسره السمرقندي بالانكار لعبادتهم غير الله تعالى وشركهم كذبا منهم وافتراء كقوله تعالى حكاية عنهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) وظاهر (آذناك) يقتضي سبق الايذان في جواب أين شركائي وإنما سئلوا ثانيا حتى أجابوا بأنه قد سبق الجواب لأنه توبيخ وفي اعادة التوبيخ من تأكيد أمر الجناية وتقبيح حال من يرتكبها ما لا يخفى، واستظهر أبو حيان ان المراد احداث ايذان لا اخبار عن ايذان سابق على نحو طلقت وأمثاله ، وجوز أن يقال: انه اخبار باعلام سابق وذلك الاعلام السابق ما علمه تعالى من بواطنهم يوم القيامة انهم لم يبقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة وكأنه اعلام منهم بلسان الحال وهذا لا يقتضي سبق سؤال ولا جواب وفيه حسن أدب كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون في الجواب *

قال في الكشف : وهذا الوجه هو المختار لاشتماله على النكتة المذكورة وما في الآخرين من سوء الادب، ويحتمل أن يكون المعنى آذناك بأنه ليس منا أحد يشاهدهم فشهيد من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة ونفي مشاهدتهم الظاهر أنه على الحقيقة وذلك في موقف وجعل بعض العبدة مقرين بمعبوداتهم في آخر فلا تنافي بينهما ، وقيل: هو كناية عن نفي أن يكون له تعالى شريك نحو قولك: لا نرى لك مثلا تريد لا مثل لك انراه، والكلام في (آذناك) على ما آذناك ، وقيل : ضمير (قالوا) للشركاء أي قال الشركاء: ليس منا أحد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين فشهيد من الشهادة لا غير، والمراد التبرؤ منهم وفيه تفكيك الضمائر، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ على ما قيل: إن شركاءهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم غابوا عنهم على أن الضلال على معناه الحقيقي وهو الذي يقابل الوجدان أو أن شركاءهم لم ينفعوهم بشيء على أن الضلال مجاز عن عدم النفع و (ما) اسم موصول عبارة عن الشركاء، ويحسن جمع من يعقل ومن لا يعقل في التعبير بما في مثل هذا المقام ، وجوز أن تكون ما عبارة عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من انهم آلهة وشركاء لله سبحانه وتعالى ، والمعنى نسوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الالوهية اليهم ، ولك أن تجعلها مصدرية والجملة يحتمل أن تكون حالا وإن تكون اعتراضا ، وذكر بعض الاجلة أنه يتعين الاخير على القول بأن ضمير (قالوا) للشركاء و كون الضلال مجازا عن عدم النفع فتدبر ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي ايقنوا كما قال السدي وغيره لأنه لا احتمال لغيره هنا والظن يكون بمعنى العلم كثيرا ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٤٨ ﴾ أي مهرب ، والظاهر أن الجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي ظن وهي معلقة عنها بحرف النفي ، وقيل : تم الكلام عند قوله تعالى : (وظنوا) والظن

على ظاهره أي وترجح عندهم أن قولهم: (مامنا من شهيد) منجاة لهم او أمر يموهون به ، والجملة بعد مستأنفة أي لا يكون لهم منجى أو موضع روغان ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ الْاِنسَانُ ﴾ لا يمل ولا يفتر ﴿ من دُعَاء الْخَيْرِ ﴾ من طلب السعة في النعمة واسباب المعيشة، (ودعاء) مصدر مضاف للمفعول وفاعله محذوف أي من دعاء الخير هو

وقرأ عبدالله (من دعاء بالخير) بباء داخلة على الخير ﴿ وَاِن مَّسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الضيقة والعسر ﴿ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ ٤٩ ﴾ أي فهو يؤس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته ، وهذا صفة الكافر ، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل: في عتبة بن ربيعة وقد بولغ في يأسه من جهة الصيغة لأن فعولا من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوي فان القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، ولما كان أثره الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكره ثانيا بطريق أبلغ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أي لئن فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق أو غير ذلك ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ أي حقي استحقه لما لي من الفضل والعمل لا تفضل من الله عز وجل فاللام للاستحقاق أو هو لي دائما لا يزول فاللام للملك وهو يشعر بالدوام ولعل الأول أقرب.

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ على تقدير قيامها ﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة ، والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مجزيا بالحسنى لجزمه باستحقاقه للكرامة لاعتقاده ان ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وان نعم الآخرة كذلك فلا تنافي بين ان التي الأصل فيها أن تستعمل لغير المتيقن وبين التأكيد بالقسم وان واللام وتقديم الظرفين وصيغة التفضيل ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا فيها فيظهر لهم أنهم مستحقون للاهانة لا الكرامة كما توهموا ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ ﴾ لا يمكنهم التفصي عنه لشدته فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْاِنسَانِ أَعْرَضَ ﴾ عن الشكر ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ تكبر واختال على أن الجانب بمعنى الناحية والمكان ثم نزل مكان الشيء وجهته كناية منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه) وقول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وقول الكتاب حضرة فلان ومجلسه العالي وكتبت الى جهته والى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قيل: نأى بنفسه ثم كنى بذهب بنفسه عن التكبر والخيلاء، وجوز أن يراد (بجانبه) عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه والاول مشتمل على كنايتين، وضع الجانب موضع النفس والتعبير عن التكبر البالغ بنحو ذهب بنفسه وهذا على واحدة على ما في الكشف ، وجعل بعضهم الجانب والجنب حقيقة كالعطف في الجارحة وأحد شقي البدن مجازاً في الجهة فلا تغفل، وعن أبي عبيدة نأى بجانبه أي نهض به وهو عبارة عن التكبر كشمخ بأنفه، والباء للتعدية ثم ان التعبير عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلس كثيرا ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن التصريح بالاسم وهو يتركون التصريح به عند

ارادة تعظيمه قال زهير :

فعرض اذا ما جئت بالبان والحمى وإياك أن تنسى فتذكر زينبا
سيكفيك من ذاك المسمى اشارة فدعه مصونا بالجلال محجبا

ومن هنا قال الطيبي: إن ماهنا وارد على التهكم . وقرىء (وناء) بامالة الالف وكسر النون للاتباع (وناه) على القلب كما قالوا راه فى رأى ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ٥١ ﴾ أى كثير مستمر مستعار مما له عرض متسع وأصله مما يوصف به الاجسام وهو أقصر الامتدادين وأطولها هو الطول، ويفهم فى العرف من العريض الاتساع وصيغة المبالغة وتنوين التكثير يقويان ذلك ، ووصف الدعاء بما ذكر يستلزم عظم الطول أيضا لأنه لابد أن يكون أزيد من العرض والا لم يكن طولا، والاستعارة فى كل من الدعاء والعريض جائزة ولا يخفى كيفية اجرائها ه

وذكر بعض الأجلة أن الآيات قد تضمنت ضربين من طغيان جنس الانسان فالأول فى بيان شدة حرصه على الجمع وشدة جزعه على الفقد والتعريض بتظاليم ربه سبحانه فى قوله (هذا لى) مدمجا فيه سوء اعتقاده فى المعاد المستجلب لتلك المساوى كلها ، والثانى فى بيان طيشه المتولد عنه اعجابه واستكباره عند وجود النعمة واستكانته عند فقدها وقد ضمن فى ذلك ذمه بشغله بالنعمة عن المنعم فى الحالتين، أما فى الأول فظاهر، وأما فى الثانى فلأن التضرع جزعا على الفقد ليس رجوعا الى المنعم بل تأسف على الفقد المشغل عن المنعم كل الاشغال، وذكر أن فى ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النهية أى العقل ضعيف المنة أى القوة فان اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض وأنه عند ذلك كالغريق المتمسك بكل شئ انتهى، ومنه يعلم جواب ما قيل : كونه يدعو دعاء عريضا متكررا ينافى وصفه بأنه يؤس قنوط لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء وقد اعتبر فى القنوط ظهور أثر اليأس فظهور ما يدل على الرجاء يأباه، وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال: الحال الثانى شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط أو شان الكل فى بعض الاوقات، واستدل بعضهم بقوله تعالى: (فذو دعاء عريض) على أن الايجاز غير الاختصار وفسره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد المعنى والايجاز بحذف طوله وهو الاطناب وهو استدلال بما لا يدل إذ ليس فيها حذف ذلك العرض فضلا عن تسميته ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ الخ رجوع لالزام الطاعنين والملحدين وختم للسورة بما يلتفت لفت بدئها وهو من الكلام المنصف وفيه حث على التامل واستدراج للاقرار مع مافيه من سحر البيان وحديث الساعة وقع فى البين تتميما للوعيد وتنبيها على ماهم فيه من الضلال البعيد كذا قيل، وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط الكلام فى ذلك ، ومعنى (أرأيتم) أخبرونى ﴿ إِنْ كَانَ ﴾ أى القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الايمان به ، و(ثم) كما قال النيسابورى للتراخى الرتبى ﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ ﴾ أى خلاف ﴿ بَعِيدٍ ٥٢ ﴾ غاية البعد عن الحق ، والمراد بمن هو فى شقاق المخاطبون، ووضع الظاهر موضع ضميرهم شرحا لحالهم بالصلة وتعليلا لمزيد ضلالهم ، وجملة (من أضل) على ماقال ابن الشيخ سادة مسد مفعولى (رأيتم) وفى البحر المفعول الاول محذوف تقديره أرأيتم أنفسكم والثانى هو جملة الاستفهام، وأياما كان فجواب الشرط محذوف، قال النيسابورى: تقديره مثلا فمن أضل منكم، وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فاخبرونى من أضل منكم، ولعله الاظهر.

وقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ ﴾ الخ مرتبط على ما اختاره صاحب الكشاف بقوله تعالى: (قل أرأيتم) الخ على وجه التتميم والارشاد الى ما ضمن من الحث على النظر ليؤدى إلى المقصود فيهدوا الى اعجازه ويؤمنوا بما جاء به ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كل الفوز، وفسر الآيات بما أجرى الله تعالى على يدى نبيه ﷺ وعلى أيدى خلفائه وأصحابهم رضى الله تعالى عنهم من الفتوحات الدالة على قوة الاسلام وأهله ووهن الباطل وحزبه، والآفاق النواحي الواحد أفق بضمتين وأفق بفتحتين أى سنريهم آياتنا في النواحي عموما من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أن هذه الاراءة كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة ﴿ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ في بلاد العرب خصوصا وهو من عطف جبريل على ملائكته، وفى العدول عنها الى المنزل ما لا يخفى من تمكين ذلك النصر وتحقيق دلالته على حقية المطلوب اثباته وإظهار أن كونه آية بالنسبة الى الانفس وإن كان كونه فتحا بالنسبة الى الأرض والبلدة ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ﴾ يظهر ﴿ لَهُمْ أَنَّهُ ﴾ أى القرآن هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو الحق كله من عند الله تعالى المطلع على كل غيب وشهادة فلهذا نصر حاملوه وكانوا محقين، وفى التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدرا، وفيما ذكر اشارة الى أنه تعالى لا يزال ينشىء فتحا بعد فتح وآية غب آية الى أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون فانظر الى هذه الآية الجامعة كيف دلت على حقية القرآن على وجه تضمن حقية أهله ونصرتهم على المخالفين وأعظم بذلك تسليا عما أشعرت به الآية السابقة من انهما كهم فى الباطل الى حد يقرب من اليأس، وقيل: الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام أو الدين أو التوحيد ولعل الأول أولى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على انكارهم تحقق الاراءة *

والهمزة للانكار والواو على أحد الرأيين للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة يقتضيه المقام والباء مزيدة للتأكيد و(ربك) فاعل كفى وزيادة الباء فى فاعلها هو القول المشهور المرضى للنحاة وتزاد فى فاعل فعل التعجب أيضا نحو أحسن بزيد فان أحسن فعل ماض جيء به على صيغة الأمر والباء زائدة وزيد فاعل عند جماعة من النحويين ولا تكاد تزاد فى غيرهما، وقوله:

ألم يأتيك والانباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد

شاذ قبيح على ما قال الشهاب، وقوله تعالى: ﴿ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣ ﴾ بدل من الفاعل بدل اشتمال، وقيل: هو بتقدير حرف الجر أى أو لم يكفهم ربك بانه الخ، وما للنحويين فى مثل هذا التركيب من الكلام شهير، أى انكروا اراءة ذلك الدالة على حقية القرآن ولم يكفهم دليلا أنه عز وجل مطلع على كل شيء عالم به ومن ذلك حالهم وحالك الموجبان حكمة نصرك عليهم وخذلانهم، وكأن ذلك لظهوره نزل منزلة المعلوم لهم *

وفى الكشف أى أولم يكفهم ان ربك سبحانه مطلع على كل شيء يستوى عنده غيب الاشياء وشهادتها على معنى أو لم يكفهم هذه الاراءة دليلا قاطعا ولما كان ما وعده غيبا عنهم كيف وقد نزل وهم فى حال ضعف وقلة يقاسون ما يقاسون من مشركى مكة قيل: أولم يكفهم اطلاع من هذا الكتاب الحق من عنده على كل غيب وشهادة دليلا على كينونة الاراءة واحضار ذلك الغيب عندهم اذ لا غيب بالنسبة اليه تعالى، وفى العدول الى هذه العبارة فائدتان: احداهما تحقيق انجاز ذلك الموعود كأنه مشاهد بذكر الدليل القاطع على الوقوع. والثانية الدلالة

على أن هذه الاراءة الآن وهم فى ضعف وقلة قد تمت بالنسبة الى اثبات حقية القرآن لأن من علم أنه تعالى على كل شيء شهيد وعلم ان القرآن معجز من عنده علم أن جميع ما فيه حق وصدق فعلم ان تلك النصرة كائنة ه والحاصل انه كما يستدل من تلك الآيات على حقية القرآن وحقية أهله تارة يستدل من اعجاز القرآن على حقية تلك الآيات وقوعا وحقية أهل الاسلام أخرى فأدى المعنيان فى عبارة جامعة تؤدى الغرضين على وجه لا يمكن أتم منه انتهى . ولا يخفى أن فى الآية عليه نوعا من الالغاز ، وقيل : أى ألم يغنهم عن اراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك انه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بانه من عنده عز وجل، وهو كما ترى، وقيل: المعنى ولم يكفك انه تعالى على كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة. وتعقب بأنه مع ايهامه مالا يليق بجلالة منصبه صلى الله تعالى عليه وسلم من التردد فيما ذكر من تحقق الموعود لا يلائم قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أى فى شك عظيم من ذلك بالبعث لاستبعادهم اعادة الموتى بعد تبدد اجزائهم وتفرق اعضائهم فلا يلتفتون الى أدلة ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقية القرآن لأنه صريح فى أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة اليهم *

وقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ٥٤﴾ لبيان ما يترتب على تلك المرية بناء على أن المعنى انه تعالى عالم بجميع الاشياء على أكمل وجه فلا يخفى عليه جل وعلا خافية منهم فيجازيهم جل جلاله على كفرهم ومريتهم لامحالة *

وقيل : دفع لمريتهم وشكهم فى البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم امكان تمييزه أى أنه تعالى عالم بجمل الاشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها فهو سبحانه يعلم الأجزاء ويقدر على البعث ه هذا وما ذكر فى تفسير (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) فى معنى ماروى عن الحسن. ومجاهد . والسدى. وأبى المنهال. وجماعة قالوا : ان قوله سبحانه :(سنريهم) الخ وعيد للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من الاقطار حول مكة وفى غير ذلك من الأرض كخيبر وأراد بقوله تعالى: (فى أنفسهم) فتح مكة ، وقال الضحاك . وقتادة: فى الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة فى اقطار الأرض قديما وفى أنفسهم ما كان يوم بدر فان فى ذلك دلالة على نصرة من جاء بالحق و كذب من الأنبياء عليهم السلام فيدل على حقية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما جاء به من القرآن. وأورد عليه ان (سنريهم) يأبى كون ما فى الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة لكونه مرئيا لهم قبل ، وقال عطاء . وابن زيد: ان معنى (سنريهم آياتنا فى الآفاق) أى أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة ، وضعف ذلك الامام بنحو ما سمعت آنفا. وأجيب بان القوم وان كانوا قد رأوا تلك الآيات الا ان العجائب التى أودعها الله تعالى فيها مما لا نهاية لها فهو سبحانه يطلعهم عليها زمانا قريبا حالا فحالا فان كل أحد يشاهد بنية الانسان الا أن العجائب المودعة فى تركيبها لا تحصى وأكثر الناس غافلون عنها فمن حمل على التفكر فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الالهية كلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا فصح معنى الاستقبال ه

واختار ذلك صاحب الكشف تبعا لغيره وبين وجه مناسبة الآيات لما قبلها عليه ، وجعل ضمير (أنه الحق) لله

عزوجل فقال: إن فى قوله تعالى: (قل أرأيتم إن كان من عند الله) اشعارا بأن كونه من عنده سبحانه ينافى الكفر به وانهم مسلمون ذلك لكن يطعنون فى كونه من عنده عز وجل ولذا جعل نحو (أساطير الاولين) فى جواب قولهم (ماذا أنزل ربكم) أنه اعراض عن كونه منزلا وجواب بأنه أساطير لامنزل فاريدان يبين اثبات كونه حقا من عنده تعالى على سبيل الكناية ليكون أوصل إلى الغرض ويناسب مابنى عليه الكلام من سلوك طريق الانصاف فقيل: (سنريهم) أى سيرى الله تعالى، والالتفات للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيق ثبوت الارادة ثم قيل: (حتى يتبين لهم أنه الحق) أى أن الله جل جلاله هو الحق من كل وجه ذاتا وصفة وقولا وفعلا وماسواه باطل من كل وجه لاحق الاهو سبحانه وإذا تبين لهم حقيته عز شأنه من كل وجه يلزم ثبوت القرآن وكونه من عنده تعالى بالضرورة، ثم قيل: أولم يكف بربك أى أولم يكفك شهوده تعالى على كل شىء فإنه سبحانه تشهد كل شىء لامن آيات الآفاق والانفس تشهده تعالى فالاول استدلال بالاثر على المؤثر والثانى من المؤثر على الاثر وهذا هو اللمى اليقينى، وفى قوله تعالى: (بربك) مضافا إلى ضميره ﷺ وإيثاره على أولم يكف به اشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وأتباعه من كل العارفين هم الذين يكفيهم شهوده على كل شىء دليلا وأن ذلك لهم نفس عنايته تعالى وتربيته من دون مدخل لتعلمهم فيه بخلاف الأول، ثم قيل: (ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم) فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شىء شهيد لأنه لاشهود لهم ليشدوا شهوده تعالى فهو شامل لفريقى الابرار والكفار، أما الكفار فلانهم فى شك فى الاصل، وأما الابرار فلانهم فى شك من الشهود أى لاعلم لهم به الا ايمانا متمحضا عن التقليد *

واطلاق المرية للتغليب ولا يخفى حسن موقعه، ثم قيل: (ألا إنه بكل شىء محيط) تتميما لقوله تعالى: (أولم يكف بربك) لأن من أحاط بكل شىء علما وقدرة لم يتخلف شىء عن شهوده فمن شهده شهد كل شىء فهذا هو الوجه فى تعميم الآيات من غير تخصيص لها بالفتوح وهو أنسب من قول الحسن. ومجاهد وأجرى على قواعد الصوفية وعلماء الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين انتهى، وقد أبعد عليه الرحمة المغزى وتكلف ماتكلف، ونقل العارف الجامى قدس سره فى نفحاته عن القاشانى أن قوله تعالى: (سنريهم) الخ يدل على وحدة الوجود، وقد رأيت فى بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك وجعل ضمير (أنه الحق) إلى المرئى وتفسير (الحق) بالله عزوجل، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الاكبر قدس سره: سبحان من أظهر الاشياء وهو عينها وهذه الوحدة هى التى حارت فيها الافهام وخرجت لعدم تحقيق امرها رقاب من ربقة الاسلام، وللشيخ ابراهيم الكورانى قدس سره النورانى عدة رسائل فى تحقيق الحق فيها وتشييد مبانيها نسأل الله تعالى أن يمن علينا بصحيح الشهود ويحفظنا بجوده عما علق باذهان الملاحدة من وحدة الوجود، وقرئ (إنه على كل شىء شهيد) بكسر همزة أن على اضمار القول، وقرأ السلمى. والحسن (فى مرية) بضم الميم وهى لغة فيها كالكسر ونحوها خفية بضم الخاء وكسرها والكسر اشهر لمناسبة الياء.

﴿ومن كلمات القوم فى الآيات﴾ (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون) فيه اشارة إلى أن اجر المؤمن الغير العامل ممنون أى منقوص بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل وأجر هذا العامل على الاعمال البدنية كالصلاة والحج الجنة، وعلى الاعمال القلبية كالرضا والتوكل الشوق والمحبة وصدق الطلب، وعلى الاعمال الروحانية كالتوجه إلى الله تعالى كشف الاسرار وشهود المعانى والاستئناس بالله تعالى والاستيحاش من الخلق والكرامات، وعلى اعمال الاسرار كالاعراض عن السوى بالكلية دوام التجلى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض)

أى ارض البشرية (فى يومين) يومى الهوى و الطبيعة (وتجعلون له اندادا) من الهوى والطبيعة (وجعل فيها رواسى) العقول الانسانية (وبارك فيها) بالحواس الخمس (وقدر فيها) أقواتها من القوى البشرية (ثم استوى إلى السماء) سماء القلب «وهى دخان» هيولى إلهية «فقضاهن سبع سموات» هى الاطوار السبعة للقلب فالاول محل الوسوسة والثانى مظهر الهواجس والثالث معدن الرؤية ويسمى الفؤاد والرابع منبع الحكمة ويسمى القلب والخامس مرآة الغيب ويسمى السويداء والسادس مثوى المحبة ويسمى الشغاف والسابع مورد التجلى ومركز الاسرار ومهبط الانوار ويسمى الحبة «فى يومين» يومى الروح الانسانى والالهام «وزينا السماء الدنيا بمصابيح» وهى انوار الاذكار والطاعات «إن الذين قالوا ربنا الله» يوم خوطبوا بألست بربكم؟ «ثم استقاموا» على اقرارهم لما خرجوا إلى عالم الصور ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين، وذكر أن الاستقامة متفاوتة فاستقامة العوام فى الظاهر بالاوامر والنواهى وفى الباطن بالايمان واستقامة الخواص فى الظاهر بالرغبة عن الدنيا وفى الباطن بالرغبة عن الجنان شوقا إلى الرحمن واستقامة خواص الخواص فى الظاهر برعاية حقوق المبايعة بتسليم النفس و المال وفى الباطن بالفناء والبقاء «تتنزل عليهم الملائكة» تنزلا متفاوتا حسب تفاوت مراتبهم، وعن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة لتزاحمنا بالركب أوما هذا معناه «وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون» هى أيضا متفاوتة فمنهم من يبشر بالجنة المعروفة ومنهم من يبشر بجنة الوصال ورؤية الملك المتعال «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله» بترك ماسواه «وعمل صالحا» لئلا يخالف حاله قاله «وقال اننى من المسلمين» المنقادين لحكمه تعالى الراضين بقضائه وقدره، وفيه اشارة إلى صفات الشيخ المرشد وماينبغى أن يكون عليه ويحق أن يقال فى كثير من المتصدين للارشاد فى هذا الزمان المتلاطمة أمواجه بالفساد:

خلت الرقاع من الرخاخ   وتفرزنت فيها البيادق
وتصاهلت عرج الحمير   وذاك من عدم السوابق

«ولا تستوى الحسنة» وهى التوجه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوص المحبة «ولا السيئة» وهى طلب السوى والرضا بالدون «ادفع بالتى هى أحسن» وهى طلب الله تعالى طلب ماسواه سبحانه «فاذا الذى بينك وبينه عداوة» وهو النفس الامارة بالسوء «كأنه ولى حميم» لتزكى النفس عن صفاتها الذميمة وانفطامها عن المخالفات القبيحة «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ» لتميل إلى مايهوى «فاستعذ بالله» وارجع اليه سبحانه لئلا يؤثر فيك نزغه، وفيه اشارة إلى أنه لاينبغى الأمن من المكر والغفلة عن الله عز وجل «إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا» فيه اشارة إلى سوء المنكرين على الاولياء فانهم من آيات الله تعالى والانكار من الالحاد نسأل الله تعالى العفو والعافية «قل هو» أى القرآن «للذين آمنوا هدى وشفاء» على حسب مراتبهم فمنهم من يهديه إلى شهود الملك العلام فعن الصادق على آبائه وعليه السلام لقد تجلى الله تعالى فى كتابه لعباده ولكن لايبصرون «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» فيه اشارة إلى أن الخلق لايرون الآيات الا باراءته عز وجل وهى كشف الحجب ليظهر أن الاعيان ماشمت رائحة الوجود ولاتشمه ابدا وانه عز وجل هو الأول والآخر والظاهر والباطن كان الله ولاشىء معه وهو سبحانه الآن على ماعليه كان واليه الاشارة عندهم بقوله تعالى: «حتى يتبين لهم أنه الحق» ومن هنا قال الشيخ الاكبر قدس سره:

ماآدم فى الكون ماابليس   ماملك سليمان ومابلقيس

السكل اشارة وأنت المعنى يامن هو للقلوب مغناطيس

وأكثر كلامه قدس سره من هذا القبيل بل هو أم وحدة الوجود وأبوها وابنها وأخوها، واياك أن تقول كما قال ذلك الاجل حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ماإليه وصل والله عز وجل الهادي إلى سواء السبيل، تم الكلام على السورة والحمد لله على جزيل نعمائه والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهر أسمائه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبائه وصلاة وسلاما باقيين إلى يوم لقائه *

سورة الشورى ٤٢

وتسمى سورة (حم عسق. وعسق) نزلت على ما روى عن ابن عباس. وابن الزبير بمكة وأطلق غير واحد القول بمكيتها من غير استثناء، وفى البحر هى مكية إلا أربع آيات من قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) إلى آخر أربع آيات، وقال مقاتل: فيها مدنى قوله تعالى: (ذلك الذى يبشر الله عباده - إلى - الصدور) واستثنى بعضهم قوله تعالى: (أم يقولون افترى) الخ، قال الجلال السيوطى: ويدل له ماأخرجه الطبرانى. والحاكم فى سبب نزولها فانها نزلت فى الأنصار، وقوله سبحانه: (ولو بسط الله الرزق) الخ فانها نزلت فى أصحاب الصفة رضى الله تعالى عنهم، واستثنى أيضا (الذين إذا أصابهم البغى) إلى قوله تعالى: (من سبيل) حكاه ابن الفرس، وسيأتى إن شاء الله تعالى مايدل على استثناء غير ذلك على بعض الروايات، وجوز أن يكون الاطلاق باعتبار الأغلب وعدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى وخمسون فيما عداه والخلاف فى (حم عسق) وقوله تعالى: (كالأعلام) كما فصله الدانى. وغيره، ومناسبة أولها لآخر السورة قبلها اشتمال كل على ذكر القرآن وذب طعن الكفرة فيه وتسلية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *

﴿ بسم الله الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيم حَم ١ عسق ٢ ﴾ لعلهما اسمان للسورة وأيد بعدهما آيتين والفصل بينهما فى الخط وبورود تسميتها (عسق) من غير ذكر (حم)، وقيل: هما اسم واحد وآية واحدة وحقه أن يرسم متصلا كما فى (كهيعص) لكنه فصل ليكون مفتتح السورة على طرز مفتتح اخواتها حيث رسم فى كل مستقلا وعلى الأول هما خبران لمبتدا محذوف، وقيل: (حم) مبتدأ و (عسق) خبره وعلى الثانى الكل خبر واحد، وقيل: إن (حم عسق) إشارة إلى هلاك مدينتين تبنيان على نهر من أنهار المشرق يشق النهر بينهما يجتمع فيهما كل جبار عنيد يبعث الله تعالى على إحداهما ناراً ليلا فتصبح سوداء مظلمة قد احترقت كأنها لم تكن مكانها ويخسف بالأخرى فى الليلة الأخرى، وروى ذلك عن حذيفة، وقيل: إن «حم» اسم من أسماء الله تعالى و«عين» إشارة إلى عذاب يوم بدر و (سين) إشارة إلى قوله تعالى: (سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) و«قاف» إلى قارعة من السماء تصيب الناس، وروى ذلك بسند ضعيف عن أبى ذر، والذى يغلب على الظن عدم ثبوت شئ من الروايتين *

وفى البحر ذكر المفسرون فى (حم عسق) أقوالا مضطربة لا يصح منها شئ ضربنا عن ذكرها صفحا، وما ذكرناه أولا قد اختاره غير واحد، ومنهم من اختار أنها مقطعات جئ بها للايقاظ، وقرأ ابن عباس. وابن مسعود (حم سق) بلا عين *

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣ ﴾ كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى

التوحيد والارشاد الى الحق أو أن ايحاءها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها، والكاف مفعول «يوحى» على الأول أي يوحى مثل ما في هذه السورة من المعاني أو نعت لمصدر مؤكد على الثاني أي يوحى ايحاء مثل ايحائها اليك والى الرسل أي بواسطة الملك، وهي في الوجهين اسم كما هو مذهب الأخفش وإن شئت فاعتبرها حرفا واعتبر الجار والمجرور مفعولا أو متعلقا بمحذوف وقع نعتا، وقول العلامة الثاني في التلويح: ان جار الله لايجوز الابتداء بالفعل ويقدر المبتدأ في جميع مايقع فيه الفعل ابتداء كلام غير مسلم وقد ترددوا فيه حتى قيل: انه لم يظهر له وجه *

وجوز أبو البقاء كون «كذلك» مبتدأ و«يوحى» الخبر والعائد محذوف أي مثل ذلك يوحيه اليك الخ وحذف مثله شائع في الفصيح، نعم هذا الوجه خلاف الظاهر، والاشارة كما أشرنا اليه الى ما في السورة أو الى إيحائها، والدلالة على البعد لبعد منزلة المشار اليه في الفضل، وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمراره في الأزمنة الماضية وان ايحاء مثله عادته عز وجل، وقيل: انها على التغليب فان الوحي إلى من مضى مضى واليه عليه الصلاة والسلام بعضه ماض وبعضه مستقبل، وجوز أن تكون على ظاهرها ويضمر عامل يتعلق به «الى الذين» أي وأوحى الى الذين وهو كما ترى، وفي جعل مضمون السورة أو ايحائها مشبها به من تفخيمها ما لا يخفى *

وقرأ مجاهد. وابن كثير. وعياش. ومحبوب كلاهما عن أبي عمرو «يوحى» مبنيا للمفعول على ان «كذلك» مبتدأ و«يوحى» خبره المسند الى ضميره أو مصدر و«يوحى» مسند الى «اليك» و(الله) مرتفع عند السكاكي على الفاعلية ليوحى الواقع في جواب من يوحى؟ نحو ماقرروه في قوله تعالى: «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» على قراءة «يسبح» بالبناء للمفعول، وقوله: *

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

وقال الزمخشري: رافعه مادل عليه (يوحى) كأن قائلا قال: من الموحي؟ فقيل: الله وإنما قدر كذلك على ماقاله صاحب الكشف ليدل على أن الايحاء مسلم معلوم وإنما الغرض من الاخبار اثبات اتصافه بأنه تعالى من شأنه الوحي لا اثبات أنه موح، ولم يرتض القول بعدم الفرق بين هذا وقوله تعالى: «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» بل أوجب الفرق لأن الفعل المضارع هنالك على ظاهره لم يؤت به للدلالة على الاستمرار ولهم فيه مقال،

و«العزيز الحكيم» صفتان له تعالى عند الشيخين، وجوز أبو حيان كون الاسم الجليل مبتدأ وما بعده خبر له وقيل: «الله العزيز الحكيم» الى آخر السورة قائم مقام فاعل «يوحى» أي هذه الكلمات *

وقرأ أبو حيوة. والاعشى عن أبي بكر. وأبان (نوحى) بنون العظمة فالله مبتدأ وما بعده خبر أو (العزيز الحكيم) صفتان، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤﴾ خبر له، وعلى الاوجه السابقة استئناف مقرر لعزته تعالى وحكمته عز وجل ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرىء (يكاد) بالياء ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله تعالى وجلاله جل شأنه وروى ذلك عن قتادة. وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه عن ابن عباس انه قال: تكاد السموات يتفطرن من الثقل، وقيل: من دعاء الشريك والولد له سبحانه كما في سورة مريم، وأيد هذا بقوله تعالى بعد: «والذين اتخذوا من دونه أولياء» فايراد الغفور الرحيم بعد لأنهم استوجبوا بهذه المقالة

صب العذاب عليهم لكنه صرف عنهم لسبق رحمته عز وجل، والآية عليه واردة للتنزيه بعد اثبات المالكية والعظمة، والأول أولى فى هذا المقام لأن الكلام مسوق لبيان عظمته تعالى وعلوه جل جلاله ويؤيده ترك العاطف، ويليه ما روى عن الحبر فان الآية وان تضمنت عليه الغرض المسوق له الكلام لكن دلالتها عليه بناء على القول الأول أظهر *

وقرأ البصريان. وأبو بكر (ينفطرن) بالنون، والأول ابلغ لأن المطاوع والمطاوع من التفعيل والتفعل الموضوع للمبالغة بخلاف الثانى فانه انفعال مطاوع للثلاثى، وروى يونس عن أبى عمرو انه قرأ (تتفطرن) بتاءين ونون فى آخره على مافى الكشاف، و(تنفطرن) بتاء واحدة ونون على مافى البحر عن ابن خالويه وهو على الروايتين شاذ عن القياس والاستعمال لأن العرب لا تجمع بين علامتى التأنيث فلا تقول النساء تقمن ولا الوالدات ترضعن، والوجه فيه تأكيد التأنيث كتأكيد الخطاب فى أرأيتك، ومثله ما رواه أبو عمر الزاهد فى نوادر ابن الاعرابى الابل تتشممن * ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أى يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها على الأول فى سبب التفطر لما أن أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال كالعرش والكرسى والملائكة من تلك الجهة ولذا كانت قبلة الدعاء، وعلى الثالث للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الأولى لأن تلك الكلمة الشنعاء الواقعة فى الأرض حين أثرت من جهة الفوق فلأن تؤثر من جهة التحت أولى، وكذا على الثانى لأن العادة تفطر سطح البيت مثلا من جهة التحتانية بحصول ثقل عليه، وقيل: الضمير للارض أى لجنسها فيشمل السبع ولذا جمع الضمير وهو خلاف الظاهر، وقال على بن سليمان الاخفش: الضمير للكفار والمراد من فوق الفرق والجماعات الملحدة، وبهذا الاعتبار أنث الضمير، وفى ذلك اشارة الى أن التفطر من أجل أقوال هاتيك الجماعات، وفيه ما فيه *

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ينزهونه سبحانه عما لا يليق به جل جلاله ملتبسين بحمده عز وجل، وقيل: يصلون والظاهر العموم فى الملائكة، وقال مقاتل: المراد بهم حملة العرش ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والالهام وترتيب الامور المقربة الى الطاعة كالمعاونة فى بعض أمور المعاش ودفع العوائق واستدعاء تأخير العقوبة طمعا فى إيمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد، وهو فيما ذكر مجاز مرسل أو استعارة *

وقال السدى. وقتادة: المراد بمن فى الأرض المؤمنون لقوله تعالى فى آية أخرى: (ويستغفرون للذين آمنوا) والمراد بالاستغفار عليه حقيقته، وقيل: الشفاعة *

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥﴾ إذ مامن مخلوق الاوله حظ عظيم من رحمته تعالى وانه سبحانه لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وفيه اشارة الى قبول استغفار الملائكة عليهم السلام وأنه سبحانه يزيدهم على ماطلبوه من المغفرة رحمة، والآية على كون قوله تعالى: (تكاد السموات يتفطرن) لبيان عظمته جل شأنه مقررة لما دل عليه ذلك ومؤكدة له لأن تسبيح الملائكة وتنزيههم له تعالى لمزيد عظمته تبارك وتعالى وعظيم جلاله جل وعلا والاستغفار لغيرهم للخوف عليهم من سطوة جبروته عز وجل والتذييل بقوله تعالى: (ألا إن الله) الخ

على هذا ظاهر، وعلى كون تفطر السموات لنسبة الولد والشريك بيان لكمال قدسه تعالى عما نسب اليه عز وجل فيكون تسبيحهم عما يقوله الكفرة واستغفارهم للمؤمنين الذين تبرأوا عما صدر من هؤلاء والتذييل للاشارة الى سبب ترك معاجلة العذاب مع استحقاقهم له وعمم بعض المستغفر لهم وأدخل استغفار الملائكة في سبب ترك المعاجلة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ شركاء وأنداداً ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦ ﴾ أى بموكل بهم أو بموكول اليك أمرهم وانما وظيفتك البلاغ والانذار فوكيل فعيل بمعنى مفعول من المزيد أو الثلاثى، وما فى هذه الآية من الموادعة على ما فى البحر منسوخ بآية السيف ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ذلك أشارة الى مصدر (أوحينا) ومحل الكاف على ماذهب اليه الاخفش من ورودها اسما النصب على المصدرية (وقرآنا) مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الايحاء البديع البين المفهم أوحينا اليك قرآنا عربيا لا لبس فيه عليك ولا على قومك، وقيل: اشارة الى ماتقدم من (الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل) فالكاف مفعول لأوحينا (وقرآناعربيا) حال من المفعول به أى أوحيناه اليك وهو قرآن عربى، وجوز نصبه على المدح أو البدلية من كذلك، وقيل: أولى من هذا أن يكون اشارة الى معنى الآية المتقدمة من أنه تعالى هو الحفيظ عليهم وأنه عليه الصلاة والسلام نذير فحسب لأنه أتم فائدة وأشمل عائدة ولا بد عليه من التجوز فى قرآنا عربيا اذ لا يصح أن يقال أوحينا ذلك المعنى وهو قرآن عربى لأن القرآنية والعربية صفة اللفظ لا المعنى لكن أمره سهل لقربه من الحقيقة لما بين اللفظ والمعنى من الملابسة القوية حتى يوصف احدهما بما يوصف به الآخر مع مافى المجاز من البلاغة ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أى أهل أم القرى على التجوز فى النسبة أو بتقدير المضاف والمراد بأم القرى مكة، وسميت بذلك على ماقال الراغب لماروى أنه دحيت الدنيا من تحتها فهى كالاصل لها والام تقال لكل ما كان أصلا لشىء، وقد يقال: هى ام لما حولها من القرى لأنها حدثت قبلها لا كل قرى الدنيا، وقد يقال لبلد: هى أم البلاد باعتبار احتياج أهالى البلاد اليها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من العرب على ماذهب اليه كثير وخص المذكورون بالذكر لأن السورة مكية وهم أقرب اليه عليه الصلاة والسلام، وأول من أنذر أو لدفع مايتوهم من أن أهل مكة ومن حولها لهم طمع فى شفاعته صلى الله تعالى عليه وسلم وإن لم يؤمنوا لحق القرابة والمساكنة والجوار فخصهم بالانذار لازالة ذلك الطمع الفارغ، وقيل: (من حولها) جميع أهل الارض واختاره البغوى وكذا القشيرى وقال: لأن الكعبة سرة الأرض والدنيا محدقة بها هى فيه أعنى مكة. وهذا عندى لا يكاد يصح مع قولهم: إن عرضها كام وطولها عز وان المعمور فى جانب الشمال اكثر منه فى جانب الجنوب ﴿ وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾ أى يوم القيامة لأنه يجمع فيه الخلائق قال الله تعالى: (يوم يجمعكم ليوم الجمع) وقيل: تجمع فيه الارواح والاشباح، وقيل: الأعمال والعمال، والانذار يتعدى الى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف ههنا ثانى مفعولى الاول وهو (يوم الجمع) والمراد بعذابه وأول مفعولى الثانى وهو (ام القرى ومن حولها) فقد حذف من الأول ما أثبت فى الثانى ومن الثانى ماأثبت فى الاول وذلك من الاحتباك. وقال جار الله: الاول عام فى الانذار بأمور الدنيا والآخرة ثم خص بقوله تعالى: (وتنذر يوم الجمع) يوم القيامة زيادة فى الانذار وبيانا لعظمة أهواله لأن الافراد بالذكر يدل عليه وكذلك ايقاع الانذار عليه ثانيا

والظاهر عليه أن حذف المفعول الثانى من الأول لافادة العموم وإن كان حذف الأول من الثانى لذلك أيضا وتنذر كل أحد يوم الجمع ، وقيل : يوم الجمع ظرف فيكون المفعولان محذوفين وقرئ (لينذر) بياء الغيبة على على أن الفاعل ضمير القرآن لعدم حسن الالتفات ههنا ﴿ لَارَيْبَ فيه ﴾ اعتراض فى آخر الكلام مقرر لما قبله ويحتمل الحالية من (يوم الجمع)أو الاستئناف ﴿ فَرِيقٌ فى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فى السَّعِيرِ ٧ ﴾ أى بعد جمعهم فى الموقف فانهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب،(وفريق) مبتدأ(وفى الجنة)صفته والخبر محذوف وكذا (فريق فى السعير)أى منهم فريق كائن فى الجنة ومنهم فريق كائن فى النار ،وضمير منهم للمجموعين لدلالة الجمع عليه ،وجملة المبتدأ والخبر استئناف فى جواب سؤال تقديره ثم كيف يكون حالهم ؟ أوحال ولاركاكة فيه،واشتراط الواو فيه غير مسلم،وجوز كون(فريق)فاعلا للظرف المقدر،وفيه ضعف،وكونه مبتدأ والظرف المقدر فى موضع الصفة له وفى الجنة خبره أى(فريق) كائن منهم مستقر فى الجنة،وكونه مبتدأ خبره مابعده من غير أن يكون هناك ظرف مقدر واقع صفة،وساغ الابتداء بالنكرة لأنها فى سياق التفصيل والتقسيم كما فى قوله: * فثوب لبست وثوب أجر * ،وكونه خبر مبتدأ محذوف أى المجموعون فريق الخ *

وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما(فريقا وفريقا)بنصبهما فقيل:هو على الحال من مقدر أى افترقوا أى المجموعون فريقا وفريقا أو من ضمير جمعهم المقدر لأن أل قامت مقامه أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين وهو من مجاز المشارفة أى مشارفين للتفرق أو الحال مقدرة فلا يلزم كون افتراقهم فى حال اجتماعهم أو يقال إن اجتماعهم فى زمان واحد لاينافى افتراق أمكنتهم كما تقول:صلوا فى وقت واحد فى مساجد متفرقة فالمراد متفرقين فى دارى الثواب والعقاب،وإذا اريد بالجمع جمع الأرواح بالاشباح أو الأعمال بالعمال لايحتاج الى توفيق أصلا،وجوز كون النصب بتنذر المقدر أو المذكور والمعنى تنذر فريقا من أهل الجنة وفريقا من أهل السعير لأن الانذار ليس فى الجنة والسعير ولا يخفى تكلفه ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ﴾ جعلهم أمة واحدة ﴿ لَجَعَلَهُمْ ﴾ أى فى الدنيا ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس فى قوله : على دين واحد،فمعنى قوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فى رَحْمَتِهِ ﴾ أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل من يشاء فى عذابه أن يدخله فيه ولاريب فى أن مشيئته تعالى لكل من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول ما أدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وانما قيل ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨ ﴾ وكان الظاهر أن يقال ويدخل من يشاء فى عذابه ونقمته للايذان بأن الادخال فى العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لامن جهته عز وجل كما فى الادخال فى الرحمة،واختار الزمخشرى كون المراد أمة واحدة مؤمنين وهو ماقاله مقاتل على دين الاسلام كما فى قوله تعالى : (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقوله سبحانه : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها)والمعنى ولو شاء الله تعالى مشيئة قدرة لقسرهم على الايمان ولكنه سبحانه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على مايختارون ليدخل المؤمنين فى رحمته وهم المرادون بقوله تعالى (من يشاء)وترك الظالمين بغير ولى ولا نصير،والكلام متعلق بقوله تعالى:(والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما

أنت عليهم بوكيل) كالتعليل للنهى عن شدة حرصه صلى الله تعالى عليه وسلم على ايمانهم، فالظالمون مظهر اقيم مقام ضمير المتخذين ليفيد أن ظلمهم علة لما بعده أو هو للجنس ويتناولهم تناولا أوليا، وعدل عن الظاهر الى ما فى النظم الجليل اذ الكلام فى الانذار وهو أبلغ فى تخويفهم لاشعاره بأن كونهم فى العذاب أمر مفروغ منه وانما الكلام فى أنه بعد تحتمه هل لهم من يخلصهم بالدفع او الرفع فاذا نفى ذلك علم أنهم فى عذاب لاخلاص منه.

وتعقب بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بادخال بعضهم فى رحمته تعالى إذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره باخراج بعضهم من بينهم وادخالهم فى عذابه، وربما يقال: حيث أن الآية متعلقة بما سمعت كان المراد ولو شاء الله تعالى لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك بل جعل بعضهم مؤمنا كما أردت وجعل بعضهم الآخر وهم أولئك المتخذون من دونه أولياء كفارا لاخلاص لهم من العذاب حسبما تقتضيه الحكمة وكان التصدير بما صدر به مناسبا كما لا يخفى على من له ذوق بأساليب الكلام الا أن الظاهر على هذا أدخل من شاء دون «يدخل من يشاء» لكن عدل عنه اليه حكاية للحال الماضية، وقال شيخ الاسلام: الذى يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه أن يراد الاتحاد فى الكفر كما فى قوله تعالى: «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين» الاية على أحد الوجهين، فالمعنى ولو شاء الله تعالى لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل اليهم رسولا لينذرهم ماذكر من يوم الجمع وما فيه من ألوان الاهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء فى رحمته سبحانه أى شأنه عز شأنه ذلك فيرسل الى الكل من ينذرهم ما ذكر فيتأثر بعضهم بالانذار فيصرفون اختيارهم الى الحق فيوفقهم الله تعالى للايمان والطاعات ويدخلهم فى رحمته عز وجل ولا يتأثر به الاخرون ويتمادون فى غيهم وهم الظالمون فيبقون فى الدنيا على ماهم عليه من الكفر ويصيرون فى الآخرة الى السعير من غير ولى يلى أمرهم ولا نصير يخلصهم من العذاب انتهى.

ولا يخفى أن بين قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة) الاية، وقوله سبحانه: (ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة) بالمعنى الذى اختاره هنا فيهما نوع تناف فتدبر جميع ذلك والله تعالى الموفق ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها من انتفاء أن يكون للظالمين ولى أو نصير وكلام الكشاف يومى الى أنه متصل بقوله تعالى «والذين اتخذوا» الخ على معنى دع الاهتمام بشأنهم واقطع الطمع فى ايمانهم وكيت وكيت أليسوا الذين اتخذوا من دون الله تعالى أولياء وهو سبحانه الولى الحقيقى القادر على كل شىء وعدلوا عنه عز وجل الا مالا نسبة بينه تعالى وبينه أصلا وإن قوله سبحانه «وكذلك أوحينا» الآية اعتراض مؤكد لمضمون الآيتين، و«أم» على القولين منقطعة وهى تقدر فى الاغلب ببل والهمزة، وقدرها جماعة هنا بهما الا أن بل على القول الثانى للاضراب وعلى القول الأول للانتقال من بيان ما قبلها الى بيان ما بعدها، والهمزة قيل: لانكار الواقع واستقباحه، وقيل: لا بل لانكار الوقوع ونفيه على أبلغ وجه وآكده اذ المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الاولياء فى شىء لأن ذلك فرع كون الاصنام أولياء وهو أظهر الممتنعات أى بل اتخذوا متجاوزين الله تعالى أولياء من الاصنام وغيرها ﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ قيل: هو جواب شرط مقدر أى إن ارادوا وليا بحق فالله تعالى هو الولى بحق لا ولى بحق سواه عز وجل، وكونه جواب الشرط على معنى الاخبار ونحوه.

وقال فى البحر: لاحاجة إلى اعتبار شرط محذوف والكلام يتم بدونه، ولعله يريد ماقيل: إنه عطف على

ماقبله أو أنه تعليل للانكار المأخوذ من الاستفهام كقولك أتضرب زيدا فهو أخوك أى لا ينبغى لك ضربه فانه أخوك
وتعقب بأن المعروف فى مثله استعماله بالواو وانما يحسن التعليل فى صريح الانكار، ولا يناسب معنى المضى أيضا ﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى شأنه ذلك نحو فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩ ﴾ فهو سبحانه الحقيق بأن يتخذ وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شىء ما أصلا :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ إلى آخره حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين أى ما خالفكم الكفار فيه من أمور الدين كاتخاذ الله تعالى وحده وليا فاختلفتم أنتم وهم ﴿ فَحُكْمُهُ ﴾ راجع ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو اثابة المحقين وعقاب المبطلين، ويجوز أن يكون كلاما من جهته تعالى متضمنا التسلية ويكون قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ الخ بتقدير قل، والامام اعتبره من أول الكلام، وأياما كان فالاشارة اليه تعالى من حيث اتصافه بما تقدم من الصفات على ما قاله الطيبى من كونه تعالى هو يحيي الموتى وكونه سبحانه على كل شىء قدير وكونه عز وجل ما اختلفوا فيه فحكمه اليه، وقال فى الارشاد: أى ذلكم الحاكم العظيم الشأن ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ مالكى ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فى مجامع أمورى خاصة لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾ أرجع فى كل ما يعن لى من معضلات الامور لا الى أحد سواه وحيث كان التوكل أمرا واحدا مستمرا والانابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر فى الأول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع ، وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شىء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى: (فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) ❁
وقيل: وما اختلفتم فيه من شىء من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه إلى المحكم من كتاب الله تعالى والظاهر من سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا الله تعالى أعلم كمعرفة الروح. وأورد على الكل أنه مخالف للسياق لأن الكلام مسوق للمشركين وهو على ذلك مخصوص بالمؤمنين ، وظاهر كلام الامام اختيار الاختصاص فانه قال فى وجه النظم الكريم: إنه تعالى كما منع رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان كذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معه فى الخصومات والمنازعات ، وذكر أنه احتج نفاة القياس به فقالوا. إما أن يكون المراد منه وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه مستفاد من نص الله تعالى أو من القياس على ما نص سبحانه عليه والثانى باطل لأنه يقتضى أن تكون كل الاحكام مبنية على القياس فتعين الأول، ولقائل أن يقول: لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه معروف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس ، وأجيب عنه بأن المقصود من التحاكم إلى الله تعالى قطع الاختلاف لقوله تعالى: (وما اختلفتم) والرجوع إلى القياس مما يقوى الاختلاف فوجب الرجوع إلى النصوص اه
وانت تعلم أن النصوص غير كافية فى جميع الاحكام وأن الآية على ما سمعت أولا مما لا يكاد يصح الاستدلال بها على هذا المطلب من أول الامر. وفى الكشاف لا يجوز حمل الاختلاف فيها على اختلاف المجتهدين فى احكام الشريعة لأن الاجتهاد لا يجوز بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يخفى عليك أن هذه المسئلة مختلف فيها فقال الاكثرون بجواز الاجتهاد المذكور عقلا ومنهم من أحاله، ثم المجوزون منهم من منع وقوع التعبد به وهو مذهب أبى على. وابنه أبى هاشم، واليه ذهب صاحب الكشاف وذكر ما يخالفه نقل لمذهب الغير وان لم يعقبه برد كما هو عادته

فى الاكثر ومنهم من ادعى الوقوع ظنا ومنهم من جزم بالوقوع ، وقيل : إنه الاصح عند الاصوليين ومنهم من توقف، والبحث فيها مستوفى فى أصول الفقه، والذى نقوله هنا: إن الاستدلال بالآية على منعه لايكاد يتم وأقل مايقال فيه: إنه استدلال بمافيه احتمال، وقوله تعالى ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خبر آخر لذلكم أوخبر لمبتدا محذوف أى هو فاطر أو صفة لربى أو بدل منه أومبتدأ خبره ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما بالجر على أنه بدل من ضمير (اليه) أو (عليه) أو وصف للاسم الجليل فى قوله تعالى: (إلى الله) وما بينهما جملة معترضة بين الصفة والموصوف وقد تقدم معنى (فاطر) وجعل أى خلق ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ نساء *

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لمامر غير مرة ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ أى وخلق للانعام من جنسها أزواجا كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ففيه جملة مقدرة لدلالة القرينة أو وخلق لكم من الانعام أصنافا أو ذكورا وإناثا ﴿ يَذْرَؤُكُمْ ﴾ يكثركم يقال ذرأ الله تعالى الخلق بثهم وكثرهم والذرء والذر اخوان ﴿ فِيهِ ﴾ أى فيما ذكر من التدبير وهو أن جعل سبحانه للناس والانعام أزواجا يكون بينهم توالد وجعل التكثير فى هذا الجعل لوقوعه فى خلاله واثنائه فهو كالمنبع له، ويجوز أن تكون فى للسببية وغاب فى (يذرؤكم) المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل فهناك تغليب واحد اشتمل على جهتى تغليب وذلك لأن الانعام غائب غير عاقل فاذا ادخلت فى خطاب العقلاء كان فيه تغليب العقل والخطاب معا، وهذا التغليب- أعنى التغليب لأجل الخطاب والعقل- من الاحكام ذات العلتين وهما هنا الخطاب والعقل وهذا هو الذى عناه جار الله وهو ممالا بأس فيه لأن العلة ليست حقيقية، وزعم ابن المنير أن الصحيح انهما حكمان متباينان غير متداخلين أحدهما مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطبا أو غائبا. والثانى مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب فالاول لتغليب العقل والثانى لتغليب الخطاب ليس بشىء ولايحتاج اليه، وكلام صاحب المفتاح يحتمل اعتبار تغليبين. أحدهما تغليب المخاطبين على الغيب. وثانيهما تغليب العقلاء على ما لا يعقل ، وقال الطيبى: إن المقام يأبى ذلك لأنه يؤدى إلى أن الاصل يذرؤكم ويذرؤها ويذرؤكن ويذرؤها لكن الاصل يذرؤكم ويذرؤها لاغير لأن -كم- فى (يذرؤكم) هو كم (فى جعل لكم من أنفسكم أزواجا) بعينه لكن غلب ههنا على الغيب فليس فى يذرؤكم الا تغليب واحد انتهى، ثم أنه لا ينبغى أن يقال: إن التذرئة حكم علل فى الآية بعلتين. احداهما جعل الناس أزواجا. والثانية جعل الانعام أزواجا ويجوز أن يكون هو الذى عناه جار الله لأن الحكم هو البث المطلق وعلته المجموع وإن جعل كل جزء منه علة فكل بث حكم أيضا فأين الحكم الواحد المتعدد علته فافهم ، وعن ابن عباس أن معنى (يذرؤكم) فيه يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها، وقريب منه قول ابن زيد يرزقكم فيه ، والظاهر عليه أن الضمير لجعل الازواج من الانعام *

وقال مجاهد أى يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن، ويتبادر منه أن الضمير للجعل المفهوم من (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) ويجوز أن يكون كما فى الوجه الاول ويفهم منه أن الذرء أخص من الخلق وبه صرح ابن عطية قال: ولفظة ذرأ تزيد على لفظة خلق معنى آخر ليس فى خلق وهو توالى الطبقات على مر الزمان ، وقال العتبى: ضمير (فيه) للبطن لأنه فى حكم المذكور والمراد يخلقكم فى بطون الاناث ، وفى رواية عن ابن زيد أنه لما خلق من السموات والارض ، وهو كما ترى ومثله ماقبله والله تعالى أعلم ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ نفى للمشابهة من كل وجه ويدخل فى

ذلك نفى أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه عز وجل وهو وجه ارتباط هذه الآية بماقبلها أوالمراد ليس مثله تعالى شيء فى الشئون التى من جملتها التدبير البديع السابق فترتبط بماقبلها أيضا، والمراد من مثله ذاته تعالى فلا فرق بين ليس كذاته شيء وليس كمثله شيء فى المعنى إلا أن الثانى كناية مشتملة على مبالغة وهى أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه وهذا لا يستلزم وجود المثل اذ الفرض كاف فى المبالغة ومثل هذا شائع فى كلام العرب نحو قول أوس بن حجر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه فى الفضائل

وقول الآخر : وقتلى كمثل جذوع النخيل تغشاهم مسبل منهمر

وقول الآخر: سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما أن كمثلهم فى الناس من أحد

وقد ذكر ابن قتيبة وغيره أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول مثلك لا يبخل وهى تريد أنت لا تبخل أى على سبيل الكناية وقد سمعت فائدتها . وفى الكشف أنها الدلالة على فضل اثبات لذلك الحكم المطلوب وتمكينه وذلك لوجهين . أحدهما أنه فرض جامع يقتضى ذلك فاذا قلت مثلك لا يبخل دل على أن موجب عدم البخل موجود بخلافه إذا قلت أنت لا تبخل. والثانى أنه إذا جعل من جماعة لا يبخلون يكون أدل على عدم البخل لأنه جعل معدودا من جملتهم ، ومن ذلك قولهم قد أيفعت لداته أى أترابه وأمثاله فى السن، وقول رقيقة بنت أبى صيفى بن هاشم فى سقيا عبد المطلب: الا وفيهم الطيب الطاهر لداته تعنى رسول الله ﷺ إلى غير ذلك ، وقيل: إن مثلا بمعنى الصفة وشيئا عبارة عنها أيضا حكاه الراغب ثم قال : والمعنى ليس كصفته تعالى صفة تنبيها على أنه تعالى وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليست تلك الصفات له عز وجل حسب ما يستعمل فى البشر .

وذهب الطبرى . وغيره إلى أن مثلا زائدة للتأكيد كالكاف فى قوله :

بالامس كانوا فى رخاء مأمول فاصبحت مثل كعصف مأكول

وقول الآخر: أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بجيد لأن مثلا اسم والاسماء لا تزاد بخلاف الكاف فانها حرف فتصلح للزيادة ، ونسب إلى الزجاج . وابن جنى . والأكثرين القول بأن الكاف زائدة للتأكيد، ورده ابن المنير بأن الكاف تفيد تأكيد التشبيه لا تأكيد النفى ونفى المماثلة المهملة أبلغ من نفى المماثلة المؤكدة فليست الآية نظير شطرى البيتين ، ويقال نحوه فيما نقل عن الطبرى ومن معه ، وأجيب بأنه يفيد تأكيد التشبيه ان سلبافسلب وإن إثباتافاثبات فيندفع ما أورد، نعم الأول هو الوجه ، والمثل قال الراغب : أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة وذاك ان الند يقال لما يشارك فى الجوهر فقط والشبه لما يشارك فى الكيفية فقط والمساوى لما يشارك فى الكمية فقط والشكل لما يشارك فى القدر والمساحة فقط والمثل عام فى جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفى الشبه من كل وجه خصه سبحانه بالذكر ، وذكر الامام الرازى أن المثلين عند المتكلمين هما اللذان يقوم كل منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته وحمل المثل فى الآية على ذلك أى لا يساوى الله تعالى فى حقيقة الذات شيء ، وقال : لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى فى الصفات شيء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله تعالى يوصف بذلك وكذا يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع أن الله تعالى يوصف بذلك، وأطال الكلام فى هذا المقام وفى القلب منه شيء .

وفى شرح جوهرة التوحيد اعلم أن قدماء المعتزلة كالجبائى . وابنه أبى هاشم ذهبوا إلى أن المماثلة هى المشاركة فى أخص صفات النفس فمماثلة زيد لعمرو مثلا عندهم مشاركته إياه فى الناطقية فقط ، وذهب المحققون من الماتريدية إلى أن المماثلة هى الاشتراك فى الصفات النفسية كالحيوانية والناطقية لزيد وعمرو ه

ومن لازم الاشتراك فى الصفة النفسية أمران. أحدهما الاشتراك فيما يجب ويجوز ويمتنع. وثانيهما أن يسد كل منهما مسد الآخر والمتماثلان وان اشتركا فى الصفات النفسية لكن لابد من اختلافهما بجهة أخرى ليتحقق التعدد والتمايز فيصح التماثل ، ونسب إلى الأشعرى أنه يشترط فى التماثل التساوى من كل وجه ه

واعترض بأنه لا تعدد حينئذ فلا تماثل، وبأن أهل اللغة مطبقون على صحة قولنا : زيد مثل عمرو فى الفقه إذا كان يساويه فيه ويسد مسده وإن اختلف فى كثير من الأوصاف ، وفى الحديث «الحنطة بالحنطة مثلا بمثل» وأريد به الاستواء فى الكيل دون الوزن وعدد الحبات وأوصافها، ويمكن أن يجاب بأن مراده التساوى فى الوجه الذى به التماثل حتى أن زيدا وعمرا لو اشتركا فى الفقه وكان بينهما مساواة فيه بحيث ينوب أحدهما مناب الآخر صح القول بأنهما مثلان فيه وإلا فلا فلا يخالف مذهب الماتريدية، وفيه أيضا أنه عز وجل ليس له سبحانه مماثل فى ذاته وصفاته فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات ولا مسد صفته جلت صفته صفة ، والمراد بالصفة الصفة الحقيقية الوجودية ، ومن هنا تعلم مافى قول الامام لا يصح أن يكون المعنى ليس كمثله تعالى فى الصفات شىء لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أن الله سبحانه يوصف بذلك فان معنى ذلك أنه تعالى ليس مثل صفته سبحانه صفة ، ومن المعلوم البين أن علم العباد وقدرتهم ليسا مثل علم الله عز وجل وقدرته جل وعلا أى ليسا سادين مسدهما ، وأما كونه تعالى مذكورا ونحوه فهو ليس من الصفات المعتبرة القائمة بذاته تعالى كما لايخفى ، وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان أنه تعالى ليس مسمى باسم الشىء لأن كل شىء فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقوله تعالى : (ليس كمثله شىء) معناه ليس مثل مثله شىء وذلك يقتضى أن لا يكون هو سبحانه مسمى باسم الشىء فلم يجعل المثل كناية عن الذات على ماسمعت ولاحكم بزيادته ولا بزيادة الكاف ومع هذا واغماض العين عما فى كلامه لايتم له مقصوده إذ لنا أن نجعل ليس مثل مثله شىء نفيا للمثل على سبيل الكناية أيضا لكن بوجه آخر وهو أنه نفى للشىء بنفى لازمه لأن نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم كما يقال : ليس لأخى زيد أخ فأخو زيد ملزوم والأخ لازمه لأنه لابد لأخى زيد من أخ هو زيد فنفيت هذا اللازم والمراد نفى ملزومه أى ليس لزيد أخ إذ لو كان له أخ لكان لذلك الأخ أخ هو زيد فكذا نفيت أن يكون لمثل الله تعالى مثل ، والمراد نفى مثله سبحانه وتعالى إذ لو كان له مثل لكان هو مثل مثله إذ التقدير أنه موجود، ومغايرته لما تقدم أن مبناه إثبات اللزوم بين وجود المثل ووجود مثل المثل ليكون نفى اللازم كناية عن نفى الملزوم من غير ملاحظة والتفات إلى أن حكم الأمثال واحد وأنه يجرى فى النفى دون الاثبات فان نفى اللازم يستلزم نفى الملزوم دون العكس بخلاف ماتقدم فان مبناه ان حكم المتماثلين واحد وإلا لم يكونا متماثلين ولايحتاج الى اثبات اللزوم بين وجود المثل ومثل المثل وانه يجرى فى النفى والاثبات كما سمعت من الأمثلة وليس ذاك من المذهب الكلامى فى شىء، أما أولا فلأنه ايراد الحجة وليس فى الآية اشعار بها فضلا عن الايراد ، وأما ثانيا فلأنه حينئذ تكون الحجة قياسا استثنائيا استثنى فيه نقيض التالى هكذا لو كان له سبحانه مثل لكان هو جل شأنه مثل مثله لكنه ليس مثلا لمثله فلا بد من بيان بطلان التالى حتى تتم الحجة

اذ ليس بينا بنفسه بل وجود المثل ووجود مثل المثل فى مرتبة واحدة فى العلم والجهل لايجوز جعل أحدهما دليلا على الآخر ، لكن قيل : ان المفهوم من ليس مثل مثله شيء على ذلك التقدير نفى أن يكون مثل لمثله سواه تعالى بقرينة الاضافة كما أن المفهوم من قول المتكلم : ان دخل دارى أحد فكذا غير المتكلم ، وأيضا لانسلم انه لو وجد له سبحانه مثل لكان هو جل وعلا مثل مثله لأن وجود مثله سبحانه محال والمحال جاز ان يستلزم المحال .

وأجيب عن الاول أن اسم ليس (شيء) وهو نكرة فى سياق النفى فتعم الآية نفى شيء يكون مثلا لمثله ، ولاشك أنه على تقدير وجود المثل يصدق عليه أنه شيء مثل لمثله ، والاضافة لا تقتضى خروجه عن عموم شيء بخلاف المثال المذكور فان القرينة العقلية دلت على تخصيص أحد بغير المتكلم لأن مقصوده المنع عن دخول الغير ، وعن الثانى أن وجود المثل لشيء مطلقا يستلزم المثل مع قطع النظر عن خصوصية ذلك الشيء وذلك بين فالمنع بتجويز أن يكون لذاته تعالى مثل ولا يكون هو سبحانه مثلا لمثله مكابرة ، ثم ان هذا الوجه لكثرة ما فيه من القيل والقال بالنسبة إلى غيره من الأوجه السابقة لم نذكره عند ذكرها وهو على علاته أحسن من القول بالزيادة كما لايخفى على من وفقه الله عز وجل ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ المدرك ادراكا تاما لا على طريق التخيل والتوهم لجميع المسموعات ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول هواء ﴿ الْبَصِيرُ ١١ ﴾ المدرك إدراكا تاما لجميع المبصرات أو الموجودات لا على سبيل التخيل والتوهم ولا على طريق تأثر حاسة ولا وصول شعاع فالسمع والبصر صفتان غير العلم على ماهو الظاهر وأرجعهما بعضهم إلى صفة العلم ، وتمام الكلام على ذلك فى الكلام ، وقدم سبحانه نفى المثل على اثبات السمع والبصر لأنه أهم فى نفسه وبالنظر إلى المقام .

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم تفسيره فى سورة الزمر وكذا قوله تعالى : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وقرىء (يقدر) بالتشديد ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢ ﴾ مبالغ فى الإحاطة به فيفعل كل ما يفعل جل شأنه على ماينبغى أن يفعل عليه ، والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ وايذان بأن ماشرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته الى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل ، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من مشاهير الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا ، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير اليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة الى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام والا فما من نبى الا وهو مأمور بما أمروا به من اقامة دين الاسلام وهو التوحيد ومالا يختلف باختلاف الامم وتبدل الاعصار من أصول الشرائع والاحكام كما ينبىء عنه التوصية فانها معربة عن تأكيد الامر والاعتناء بشأن المأمور به ، والمراد بايحائه اليه صلى الله تعالى عليه وسلم إما ما ذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى : (وكذلك أوحينا اليك) الآية وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى : (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقوله سبحانه : (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم إله واحد) وغير ذلك ، وايثار الايحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع فى الآيات المذكورة ولما فى الايحاء من

التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لانكار الكفرة، والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الاعتناء بايحائه، وفى ذلك اشعار بأن شريعته صلى الله تعالى عليه وسلم هى الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالذى التى هى أصل الموصولات وذلك هو السر فى تقديم الذى أوحى اليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة الى بيان كون المشروع لهم دينا قديما، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب اليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ أى دين الاسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والايمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر مايكون العبد به مؤمنا، والمراد باقامته تعديل أركانه وحفظه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه، و(أن) مصدرية وتقدم الكلام فى وصلها بالأمر والنهى أو مخففة من الثقيلة لما فى (شرع) من معنى العلم، والمصدر اما منصوب على أنه بدل من مفعول (شرع) والمعطوفين عليه أو مرفوع على أنه خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب عن سؤال نشأ من ابهام المشروع كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أن أقيموا الدين، وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير (به) ولا يلزمه بقاء الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس فى نية الطرح حقيقة، نعم قال شيخ الاسلام: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه الى خروجه عن حيز الايحاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مستلزم لكون الخطاب فى النهى الآتى عن التفرق للانبياء المذكورين عليهم السلام وتوجيه النهى الى أممهم تمحل ظاهر مع أن الاظهر أنه متوجه الى أمته صلى الله تعالى عليه وسلم وأنهم المتفرقون، ثم بين ما استظهره وسنشير اليه إن شاء الله تعالى.

وجوز كونه بدلا من (الدين) ويجوز كون (أن) مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه والخطاب فى (أقيموا) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ على ما اختاره غير واحد من الاجلة شامل للنبى ﷺ وأتباعه وللانبياء والامم قبلهم وضمير (فيه) للدين أى ولا تتفرقوا فى الدين الذى هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتى به بعض ولا يأتى بعض ويأتى بعض ببعض منه دون بعض وهو مراد مقاتل أى لا تختلفوا فيه، ولا يشمل هذا النهى عن الاختلاف فى الفروع فانها ليست من الاصول المرادة هنا ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وبعضهم أدخل بعض الفروع فى أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يبعث نبى الا أمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة والاقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه وذلك اقامة الدين، وقال الحافظ أبو بكر بن العربى: لم يكن مع آدم عليه السلام الا بنوه ولم يفرض له الفرائض ولا شرعت له المحارم وانما كان منبها على بعض الامور مقتصرا على بعض ضروريات المعاش واستمر الامر الى نوح عليه السلام فبعثه الله تعالى بتحريم الامهات والبنات ووظف عليه الواجبات وأوضح له الادب فى الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالانبياء واحدا بعد واحد وشريعة اثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل، فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للانبياء دينا واحدا فى الاصول وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج والتقرب بصالح الاعمال والصدق والوفاء بالعهد وأداء الامانة وصلة الرحم وتحريم الكبر والزنا والايذاء للخلق والاعتداء على الحيوان واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات فهذا كله مشروع دينا واحدا وملة متحدة لم يختلف على ألسنة الأنبياء وان اختلفت أعدادهم، ومعنى (أقيموا الدين ولا تتفرقوا

فيه) اجعلوه قائما أى دائما مستمرا من غير خلاف فيه ولا اضطراب انتهى، ولعله أراد بالصلاة و الزكاة والصيام والحج مطلقها لا ما نعرفه فى شرعنا منها فان الصلوات الخمس والزكاة المخصوصة وصيام شهر رمضان من خواص هذه الامة على الصحيح، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام ولا لأكثر الامم قبلهما على أن الآية مكية ولم تشرع الزكاة المعروفة وصيام رمضان الا فى المدينة، و بالجملة لاشك فى اختلاف الاديان فى الفروع، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الاخلاق واجتناب الرذائل ﴿ كَبُرَ ﴾ أى عظم وشق ﴿ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ على سبيل الاستمرار التجددى من التوحيد ورفض عبادة الاصنام ويشعر بارادته التعبير بالمشركين وهو أصل الاصول وأعظم ماشق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات أو ماتدعوهم اليه من اقامة الدين وعدم التفرق فيه ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم بأن منهم من يجيب، و (يجتبى) من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والضمير فى (اليه) لله تعالى كما ذكر محيي السنة وغيره وكذا الضمير فى قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ١٣ ﴾ أى يصطفى اليه سبحانه من يشاء اصطفاءه ويخصصه سبحانه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع النعم ويهدى اليه عز وجل بالارشاد والتوفيق من يقبل اليه تعالى شأنه، وعدى الاجتباء بإلى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب، وجعله جمع من الجباية بمعنى الجمع يقال: جبيت الماء فى الحوض جمعته فيه فمنهم من اختار جعل ضمير (اليه) فى الموضعين لله لما فيه من اتساق الضمائر أى يجتلب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه الى ما تدعوهم اليه، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هى اتحاد المتفرق فيه والمجتمع عليه والزمخشرى اختار كونه من الجباية بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين، وماذكره محيي السنة وغيره قال فى الكشف أظهر وأملأ بالفائدة، أما الثانى فللدلالة على أن أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه وعلى مختار طائفة واحدة *

وأما الأول فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالا ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم اليه واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذى آثره الزمخشرى فكلام ظاهرى بناه على أن الكلام فى عدم التفرق فى الدين فناسب الجمع والانتهاء اليه، وقيل: (ما تدعوهم اليه) على معنى ما تدعوهم الى الايمان به والمراد به الرسالة أى ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا اياك بالرسالة والوحى دونهم وقوله تعالى: (الله يجتبى اليه من يشاء) رد عليهم على نحو (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وماقدمنا أظهر ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا ﴾ أى أمم الانبياء بعد وفاة أنبيائهم كما فى الكشف منذ بعث نوح عليه السلام فى الدين الذى دعوا اليه واختلفوا فيه فى وقت من الاوقات ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ من أنبيائهم بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه؛ وهذا يؤيد مادل عليه سابقا من أن الامم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة واقامة الدين، والمراد بالعلم سببه مجازا مرسلا، ويجوز أن يكون التجوز فى الاسناد، وأن يكون الكلام بتقدير مضاف أى جاءهم سبب العلم، وقد يقال جاء مجاز عن حصل، والاستثناء على ما أشرنا اليه مفرغ من أعم الاوقات، وجوز أن يكون من أعم الاحوال أي ما تفرقوا فى حال من الاحوال الا حال مجيء العلم ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي عداوة على أن البغي

الظلم والتجاوز والعداوة سبب له وهي الداعي للتفرق أو طلبا للدنيا والرياسة على أن البغي مصدر بغى بمعنى طلب ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هي عدته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ معلوم له سبحانه وهو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة لهم ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ باستئصال المبطلين حين افترقوا لعظم ما اقترفوا ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهده ﷺ وقرأ زيد ابن علي (ورثوا) مبنيا للمفعول مشددا الواو ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ أي من كتابهم فلم يؤمنوا به حق الايمان ﴿ مُرِيبٍ ١٤ ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة، والجملة اعتراض يؤكد أن تفرقهم ذلك باق في أعقابهم منضما اليه الشك في كتابهم مع انتسابهم اليه فهم تفرقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث اليوم المصدق لكتابهم و تفرقوا قبله شكا في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يصدقوا حقه ۞

﴿ فَلِذَلِكَ ﴾ أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر في الأمم السالفة شعبا ﴿ فَادْعُ ﴾ إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أي اثبت على الدعاء كما أوحي اليك، وقيل: الاشارة إلى قوله تعالى: (شرع لكم) وما يتصل به ونقل عن الواحدي أي ولأجل ذلك من التوصية التي شوركت فيها مع نوح ومن بعده ولأجل ذلك الأمر بالاقامة والنهي عن التفرق فادع، وما ذكر أولا أولى لأن قوله تعالى. (أن أقيموا) شمل النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه كما سمعت، ويدل عليه (كبر على المشركين ماتدعوهم اليه) فقوله تعالى: (فلذلك فادع) الخ لا يتسبب عنه لما يظهر من التكرار وهو تفرع الأمر عن الأمر، وأما تسببه عن تفرقهم فظاهر على معنى فلما أحدثوا من التفرق وأبدعوا فاثبت أنت على الدعاء الذي أمرت به واستقم وهذا ظاهر للمتأمل ۞

ومن الناس من جعل المشار اليه الشرع السابق ولم يدخل فيه الأمر بالاقامة لئلا يلزم التكرار أي فلأجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون فادع، وقيل: هو الكتاب، وقيل: هو العلم المذكور في قوله تعالى: (جاءهم العلم) وقيل: هو الشك ورجح بالقرب وليس بذاك، واللام على جميع الأقوال المذكورة للتعليل، وقيل: على بعضها هي بمعنى إلى صلة الدعاء فما بعدها هو المدعو اليه، وأنت تعلم أنه لا حاجة في إرادة ذلك إلى جعلها بمعنى إلى فان الدعاء يتعدى بها أيضا كما في قوله: ۞ دعوت لما نابني مسورا ۞

ونقل ذلك عن الفراء والزجاج، وأيا ما كان فالفاء الأولى واقعة في جواب شرط مقدر كما أشرنا اليه والفاء الثانية مؤكدة للاولى، وقيل: كان الناس بعد الطوفان أمة واحدة موحدين فاختلف أبناؤهم بعد موتهم حين بعث الله تعالى النبيين مبشرين ومنذرين، وجعل ضمير (تفرقوا) لأخلاف أولئك الموحدين والذين أورثوا الكتاب باق على ما تقدم والأول أظهر ۞

وقيل: (ضمير) تفرقوا لأهل الكتاب تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم بمبعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهذا كقوله تعالى: (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وإنما تفرقوا حسدا له عليه الصلاة والسلام لا لشبهة، والمراد بالذين أورثوا الكتاب من بعدهم مشركو مكة وأحزابهم لأنهم أورثوا القرآن فالكتاب القرآن وضمير منه له وقيل للرسول وهو خلاف الظاهر، واختار كون المتفرقين أهل الكتاب

اليهود والنصارى والمورثين الشاكين مشركى مكة وأحزابهم شيخ الاسلام واستظهر أن الخطاب فى (أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) لأمته صلى الله تعالى عليه وسلم. وتعقب القول بكون المتفرق كل أمة بعد نبيها والقول بكونه اخلاف الموحدين الذين كانوا بعد الطوفان فقال: يرد ذلك قوله تعالى: (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم) فان مشاهير الأمم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير إنظار وإمهال على أن مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الأمة وإنما ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم السلام لتحقيق أن ماشرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الأعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيد الوجوب اقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الاخلال بذلك المرام انتهى *

وأجيب عن الأول بأن ضمير (بينهم) لأولئك الذين تفرقوا وقد علمت أن المراد بهم المتفرقون بعد وفاة أنبيائهم وهم لم يصبهم عذاب الاستئصال وإنما أصاب الذين لم يؤمنوا فى عهد أنبيائهم واطلاق المتفرقين ليس بذاك الظهور، وقيل: المراد لقضى بينهم ريثما افترقوا ولم يمهلوا أعواما، وقيل: المراد لقضى بينهم باهلاك المبطلين وإثابة المحقين إثابتهم فى العقبى وهو كما ترى، وعن الثانى بأنا لانسلم إيهام التعرض لبيان تفرق الأمم الاخلال بالمرام بعد بيان أنه لم يكن إلا بعد أن جاءهم العلم بأنه ضلال وفساد وأمر متوعد عليه وأنه كان بغيا بينهم ولم يكن لشبهة فى صحة الدين، وقيل، ضمير (تفرقوا) للمشركين فى قوله تعالى: (كبر على المشركين) *

حكى فى البحر عن ابن عباس أنه قال: وما تفرقوا يعنى قريشا والعلم محمد صلى تعالى عليه وسلم وكانوا يتمنون أن يبعث اليهم نبى كما قال سبحانه: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) لئن جاءهم نذير الآية، وقد يقال عليه: المراد بالذين أورثوا الكتاب أهل الكتاب الذين عاصروا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومعنى من بعدهم على ماقال أبو حيان من بعد أسلافهم *

ونقل الطبرسى عن السدى مايدل على أن المراد من بعد احبارهم وفسر الموصول بعوام أهل الكتاب، وقيل: ضمير بعدهم للمشركين أيضا والبعدية رتبية كما قيل فى قوله تعالى: «والارض بعد ذلك دحاها» ولايخفى عليك أنه لابأس بعود ضمير (تفرقوا) للمشركين لو وجد للذين أورثوا الكتاب توجيه يقع فى حيز القبول والله تعالى الموفق، وجعل متعلق (استقم) الدعاء لاتخفى مناسبته. وجوز جعله عامافيكون استقم أمرا بالاستقامة فى جميع أموره عليه الصلاة والسلام، والاستقامة أن يكون على خط مستقيم، وفسرها الراغب بلزوم المنهج المستقيم فلا حاجة إلى التأويل بالدوام على الاستقامة أى دم على الاستقامة ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى شيئا من أهوائهم الباطلة على أن الاضافة للجنس ﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أى بجميع الكتب المنزلة لأن مامن أدوات العموم، وتنكير (كتاب) المبين مؤيد لذلك، وفى هذا القول تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الاصول وتأليف لقلوب الاهل الكتابين وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أى أمرنى الله تعالى بما أمرنى به لأعدل بينكم فى تبليغ الشرائع والاحكام فلا أخص بشىء منها شخصا دون شخص وقيل: لأعدل بينكم فى الحكم إذا تخاصمتم، وقيل: بتبليغ الشرائع وفصل الخصومة واختاره غير واحد، وقيل: لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لاأعمله ولاأخالفكم إلى ماأنهاكم عنه ولاأفرق بين أصاغركم وأكابركم فى اجراء حكم الله عز وجل، فاللام للتعليل والمأمور به محذوف، وقيل: اللام مزيدة أى أمرت أن أعدل ويحتاج

لتقدير الباء أى بأن أعدل، ولايخلو عن بعد ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى خالق الكل ومتولى أمره فليس المراد خصوص المتكلم والمخاطب ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا ﴾ لا يتخطانا جزاؤها ثوابا كان أو عقابا ﴿ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ لايجاوزكم آثارها لننتفع بحسناتكم وتتضرر بسيئاتكم ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى لااحتجاج ولاخصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد، وجاءت الحجة هنا على أصلها فانها فى الاصل مصدر بمعنى الاحتجاج كما ذكره الراغب وشاعت بمعنى الدليل وليس بمراد ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥ ﴾ فيفصل سبحانه بيننا وبينكم، وليس فى الآية مايدل على متاركة الكفار رأسا حتى تكون منسوخة بآية السيف، وادعى أبوحيان أن مايظهر منها الموادعة المنسوخة بتلك الآية *

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ ﴾ أى يخاصمون فى دينه، قال ابن عباس . ومجاهد نزلت فى طائفة من بنى اسرائيل همت برد الناس عن الاسلام واضلالهم فقالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم ، وفى رواية بدل فديننا الخ فنحن أولى بالله تعالى منكم ، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس فى دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا أو اتركوا الاسلام، والمحاجة فيه غير ظاهرة ولعلهم مع هذا يذكرون مافيه ذلك ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ ﴾ أى من بعد مااستجاب الناس لله عز وجل أو لدينه ودخلوا فيه وأذعنوا له لظهور الحجة ووضوح المحجة، والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم اليه ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ زائلة باطلة لاتقبل عنده عز وجل بل لاحجة لهم أصلا ، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة وهى الدليل ههنا مجاراة معهم على زعمهم الباطل *

وجوز كون ضمير (له) للرسول عليه الصلاة والسلام لكونه فى حكم المذكور والمستجيب أهل الكتب واستجابتهم له صلى الله تعالى عليه وسلم اقرارهم بنعوته واستفتاحهم به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام فاذا كانوا هم المحاجين كان الكلام فى قوة والذين يحاجون فى دين الله من بعد مااستجابوا لرسوله وأقروا بنعوته حجتهم فى تكذيبه باطلة لما فيها من نفى ماأقروا به قبل وصدقه العيان ، وقيل: المستجيب هو الله عز وجل وضمير (له) لرسوله عليه الصلاة والسلام، واستجابته تعالى له ﷺ باظهار المعجزات الدالة على صدقه، وإلى نحوه ذهب الجبائى حيث قال: أى من بعد مااستجاب الله تعالى دعاءه فى كفار بدر حتى قتلهم بأيدى المؤمنين ودعاءه على أهل مكة حتى قحطوا ودعاءه للمستضعفين حتى خلصهم الله تعالى من أيدى قريش وغير ذلك مما يطول تعداده، وبطلان حجتهم لظهور خلاف ما تقتضيه بزعمهم بذلك، وهذا ظاهر فى أن هذه الآية مدنية لأن وقعة بدر بعد الهجرة وحمل (استجيب) على الوعد خلاف الظاهر جدا، وكذا ماروى عن عكرمة ، وقيل : إن حمل الاستجابة على استجابة أهل الكتاب يقتضى ذلك أيضا إذ لم يكن بمكة أحد منهم ، وقيل : لايقتضيه لأن خبر استجابتهم واقرارهم بنعوته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو عليه الصلاة والسلام بمكة بلغ أهل مكة والمجادلون محمول عليهم فلا مانع من كونها مكية ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦ ﴾ لايقادر قدره *

﴿ اللهُ الَّذى أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ جنس الكتاب أو الكتاب المعهود أو جميع الكتب ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسا بالحق بعيدا من الباطل فى أحكامه وأخباره أو ملتبسا بما يحق ويجب من العقائد والاحكام ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى العدل كما قال ابن عباس . ومجاهد . وقتادة . وغيرهم أو الشرع الذى يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس ، وعلى الوجهين فيه استعارة ونسبة الانزال اليه مجاز لأنه من صفات الاجسام والمنزل حقيقة من بلغه ، واعتبر بعضهم الامر أى انزل الامر بالميزان ، وتعقب بأنه أيضا محتاج إلى التأويل ، وقد يقال : نسبة الانزال وكذا النزول إلى الامر مشهورة جدا فالتحقت بالحقيقة ، ويجوز أن يتجوز فى الانزال ويقال نحو ذلك فى (أنزل الكتاب) وعن مجاهد أن الميزان الآلة المعروفة فعلى هذا انزاله على حقيقته ، وجوز أن يكون على سبيل الامر به ، واستظهر الأول لما نقل الزمخشرى فى الحديد أنه نزل إلى نوح وأمر ان يوزن به ، وكون المراد به ميزان الاعمال بعيد هنا *

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ أى أى شىء يجعلك داريا أى عالما ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ ﴾ أى اتيان الساعة الذى أخبر به الكتاب الناطق بالحق فالكلام بتقدير مضاف مذكر ، وقوله تعالى : ﴿ قَرِيبٌ ١٧ ﴾ خبر عنه فى الحقيقة لأن المحذوف بقرينة كالملفوظ وهو وجه فى تذكيره ، وجوز أن يكون لتأويل الساعة بالبعث وأن يكون (قريب) من باب تامر ولابن أى ذات قرب إلى أوجه أخر تقدمت فى الكلام على قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب) وأيا ما كان فالمعنى إن الساعة على جناح الاتيان فاتبع الكتاب وواظب على العدل واعمل بالشرع قبل أن يفاجئك اليوم الذى توزن فيه الاعمال ويوفى جزاؤها * ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ استعجال انكار واستهزاء كانوا يقولون : متى هى ليتها قامت حتى يظهر لنا أهو الذى نحن عليه أم كالذى عليه محمد عليه الصلاة والسلام واصحابه *

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى خائفون منها مع اعتناء بها فان الاشفاق عناية مختلطة بخوف فاذا عدى بمن كما هنا فمعنى الخوف فيه اظهر وإذا عدى بعلى فمعنى العناية إظهر ، وعنايتهم بها لتوقع الثواب ، وزعم الجابى أن الآية من الاحتباك والاصل يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها فلا يشفقون منها والذين آمنوا مشفقون منها فلا يستعجلون بها * ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الامر المتحقق الكائن لا محالة ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ ﴾ أى يجادلون فيها ، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب ، واطلاق المماراة على المجادلة لأن كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ، ويجوز أن يكون من المرية التردد فى الامر وهو أخص من الشك ومعنى المفاعلة غير مقصود فالمعنى ان الذين يترددون فى أمر الساعة ويشكون فيه ﴿ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ ١٨ ﴾ عن الحق فان البعث أقرب الغائبات بالمحسوسات لأنه يعلم من تجويزه من احياء الارض بعد موتها وغير ذلك فمن لم يهتد اليه فهو عن الاهتداء إلى ماوراءه أبعد وأبعد *

﴿ اللهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ بر بليغ البر بهم يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه مالا يبلغه الأفهام ويؤذن بذلك مادة اللطف وصيغة المبالغة فيها وتنكيرها الدال على المبالغة بحسب الكمية والكيفية ، قال حجة الاسلام عليه الرحمة : إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وماذق منها ولطف ثم يسلك فى إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف فاذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى الادراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك إلا فى الله تعالى شأنه ، فصنوف البر من المبالغة فى الكم ، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة

والمبالغة فى الكيفية لأنه إذا دق جدا كان أخفى وأخفى، وارادة الجميع من اضافة العباد وهو جمع الى ضميره تعالى فيفيد الشمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل الا أنه قال: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا *

وقال أبو حيان: لطيف بعباده أى بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود فى الجنة وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف إنما هو املاء الا ما آل الى رحمة ووفاة على الاسلام، وحكى الطيبى هذا التخصيص عن الواحدى ومال الى ترجيحه وذلك أنه ادعى أن الاضافة فى (عباده) اضافة تشريف اذ أكثر استعمال التنزيل الجليل فى مثل ذلك فيختص العباد بأوليائه تعالى المؤمنين، وحمل اللطف على منح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأخروية والكرامات السنية، وحمل الرزق فى قوله تعالى: ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ عليه أيضا وقال: ان استعماله فيما ذكر كاستعماله فى قوله تعالى: « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) *

وجعل قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ١٩ ﴾ مؤذنا بالتعليل كأنه قيل: انما تلطف جل شأنه فى حق عباده المؤمنين دون من غضب عليهم بمحض مشيئته سبحانه لأنه تعالى قوى قادر على أن يختص برحمته وكرامته من يشاء من عباده عزيز غالب لا يمنعه سبحانه عما يريده أحد، وادعى أنه يكون وزان الآية على هذا مع قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ الآية وزان قوله عز وجل: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وينتظم الكلام أتم انتظام وتلتئم أطرافه أشد التآم، ولا يقال حينئذ: ان قوله تعالى: (يرزق من يشاء) حكم مترتب على السابق فكان ينبغى أن يعم عمومه والعموم أظهر، وحديث التخصيص فى (يرزق من يشاء) فقد أجاب عنه صاحب التقريب فقال انما خص الرزق بمن يشاء مع أنهم كلهم بر سبحانه بهم لأنه تعالى قد يخص أحدا بنعمة وغيره بأخرى فالعموم لجنس البر والخصوص لنوعه. وأشار جار الله الى أنه لا تخصيص بالحقيقة فان المعنى الله تعالى بليغ البر بجميع عباده يرزق من يشاء ما يشاء سبحانه منه - فيرزق من يشاء - بيان لتوزيعه على جميعهم فليس الرزق الا النصيب الخاص لكل واحد، ولما شمل الدارين لاءم قوله تعالى: (من كان يريد) الخ كل الملاءمة، ولا يتوقف هذا على ما قاله الطيبى، ولعل أمر التذييل بالاسمين الجليلين على القول بالعموم أظهر والتعليل أنسب فكأنه قيل: لطيف بعباده عام الاحسان بهم لأنه تعالى القوى الباهر القدرة الذى غلب وغلبت قدرته سبحانه جميع القدر يرزق من يشاء لأنه العزيز الذى لا يغلب على ما يريد فكل من الاسمين الجليلين ناظر إلى حكم فافهم (وقل رب زدنى علما) *

فكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى

والحرث فى الاصل القاء البذر فى الارض يطلق على الزرع الحاصل منه، ويستعمل فى ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الاعمال بالبذور أى من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة الى سبعمائة فما فوقها ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بأعماله ﴿ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ وهو متاعها وطيباتها ﴿ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى شيئا منها حسبما قدرناه له بطلبه وارادته ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ ﴾ اذ كانت همته مقصورة على الدنيا، وقرأ ابن مقسم والزعفرانى ومحبوب.

والمنقرى كلاهما عن أبى عمرو (يزد، ويؤته) بالياء فيهما، وقرأ سلام (نؤته) بضم الها. وهى لغة أهل الحجاز وقد جاء فى الآية فعل الشرط ماضيا والجواب مضارعا مجزوما قال أبو حيان: ولا نعلم خلافا فى جواز الجزم فى مثل ذلك وانه فصيح مختار مطلقا الا ماذكره صاحب كتاب الاعراب أبو الحكم بن عذرة عن بعض النحويين أنه لا يجىء فى الفصيح الا اذا كان فعل الشرط كان، وانما يجىء معها لأنها أصل الأفعال ونص كلام سيبويه والجماعة انه لا يختص بكان بل سائر الافعال مثلها فى ذلك وانشد سيبويه للفرزدق

دست رسولا بأن القوم ان قدروا عليك يشفوا صدورا ذات توغير

وقال أيضا: تعش فان عاهدتنى لاتخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ فى الكفر وهم الشياطين ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ أى لهؤلاء الكفرة المعاصرين لك بالتسويل والتزيين ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا. و(أم) منقطعة فيها معنى بل الاضرابية والهمزة التى للتقرير والتقريع والاضراب عما سبق من قوله تعالى: (شرع لكم من الدين) الخ فالعطف عليه وما اعترض به بين الآيتين من تتمة الأولى، وتأخير الأضراب ليدل على أنهم فى شرع يخالف ماشرعه الله تعالى من كل وجه فالشرك فى مقابلة اقامة الدين والاستقامة عليه وإنكار البعث فى مقابلة قوله تعالى (والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) والعمل للدنيا لقوله سبحانه: (من كان يريد حرث الآخرة) وهذا أظهر من جعل الأضراب عما تقدم من قوله تعالى: (كبر على المشركين) كما لا يخفى، وقيل: شركاؤهم أصنامهم، وإضافتها اليهم لأنهم الذين جعلوها شركاء لله سبحانه، وإسناد الشرع اليها لأنها سبب ضلالتهم وافتتانهم كقوله تعالى: (إنهن أضللن كثيرا) وجوز أن يكون الاستفهام المقدر على هذا للانكار أى ليس لهم شرع ولا شارع كما فى قوله تعالى: (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) وأياما كان فضمير (شرعوا) للشركاء وضمير (لهم) للكفار *

وجوز على تفسير الشركاء بالأصنام أن يكون الأول للكفار والثانى للشركاء أى شرع الكفار لأصنامهم وسموا من المعتقدات والأحكام مالم يأذن به الله تعالى كاعتقاد أنهما آلهة وأن عبادتهم تقربهم إلى الله سبحانه، وكجعل البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك، وهو كما ترى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أى القضاء والحكم السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة أو إلى آخر أعمارهم ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أى بين الكافرين والمؤمنين فى الدنيا أو حين افترقوا بالعقاب والثواب، وجوز أن يكون المعنى لولا ماوعدهم الله تعالى به من الفصل فى الآخرة لقضى بينهم فالفصل بمعنى البيان كما فى قوله تعالى: (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) وقيل: ضمير بينهم للكفار وشركائهم بأى معنى كان ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وهم المحدث عنهم أو الأعم منهم ويدخلون دخولا أوليا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١)﴾ فى الآخرة. وفى البحر أى فى الدنيا بالقتل والأسر والنهب وفى الآخرة بالنار *

وقرأ الأعرج ومسلم بن جندب (وأن) بفتح الهمزة عطفا على (كلمة الفصل) أى لولا القضاء السابق بتأخير العذاب وتقدير أن الظالمين لهم عذاب أليم فى الآخرة أو لولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة وتقدير أن الظالمين لهم الخ لقضى بينهم، والعطف على التقديرين تتميم للايضاح لا تفسيرى محض ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ جملة مستأنفة لبيان ماقبل، والخطاب لكل أحد يصلح له للقصد إلى المبالغة فى سوء حالهم أى ترى يامن يصلح

منه الرؤيا الظالمين يوم القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين الخوف الشديد ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فى الدنيا من السيآت، والكلام قيل على تقدير مضاف.

و(من) صلة الاشفاق أى مشفقين من وبال ما كسبوا ﴿وَهُوَ﴾ أى الوبال ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أى حاصل لهم لاحق بهم، واختار بعضهم أن لا تقدير ومن تعليلية لأنه أدخل فى الوعيد، والجملة اعتراض للاشارة الى أن اشفاقهم لا ينفعهم، وايثار (واقع) على يقع مع أن المعنى على الاستقبال لأن الخوف انما يكون من المتوقع بخلاف الحزن للدلالة على تحققه وأنه لا بد منه، وجوز أن تكون حالا من ضمير (مشفقين) وظاهر ما سمعت انه حال مقدرة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أى مستقرون فى أطيب بقاعها وأنزهها. وقال الراغب: هى محاسنها وملاذها، وأصل الروضة مستنقع الماء والخضرة واللغة الكثيرة فى واوها جمعا التسكين كما فى المنزل ولغة هذيل بن مدركة فتحها فيقولون روضات اجراء للمعتل مجرى الصحيح نحو جفنات ولم يقرأ أحد فيما علمنا بلغتهم ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم فالظرف متعلق بمتعلق الجار والمجرور الواقع خبر الما أو به واختاره جار الله ونفى أن يكون متعلقا بيشاؤن مع أنه الظاهر نحواه، وبين صاحب الكشف ذلك بأنه كلام فى معرض المبالغة فى وصف ما يكون أهل الجنة فيه من النعيم الدائم فأفيد أنهم فى انزه موضع من الجنة وأطيب مقعد منها بقوله تعالى: (فى روضات الجنات) لأن روضة الجنة انزه موضع منها لا سيما والاضافة فى هذا المقام تنبىء عن تميزها بالشرف والطيب، والتعقيب بقوله تعالى: «لهم ما يشاؤن» أيضا ثم أفيد أن لهم ما يشتهون من ربهم ولا خفاء أنك اذا قلت: لى عند فلان ما شئت كان ابلغ فى حصول كل مطالبك منه مما اذا قلت: لى ما شئت عند فلان بالنسبة الى الطالب والمطلوب منه.

أما الأول فلأنه يفيد أن جميع ما تشاؤه موجود مبذول لك منه، والثانى يفيد ان ما شئت عنده مبذول لا جميع ما تشاؤه، وأما الثانى فلأنك وصفته بأنه يبذل جميع المرادات، وفى الثانى وصفته بان ما شئت عنده مبذول لك إما منه وإما من غيره ثم فى الاول مبالغة فى تحقيق ذلك وثبوته كما تقول: لى عندك وقبلك كذا، فالله تعالى شأنه أخبر بان ذلك حق لهم ثابت مقضى فى ذمة فضله سبحانه ولا كذلك فى الثانى، ثم قال: ولعل الأوجه أن يجعل (عند ربهم) خبرا آخر أى الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند ربهم فى روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤن، وانما أخر توخيا لسلوك طريق المبالغة فى الترقى من الادنى الى الاعلى ومراعاة لترتيب الوجود أيضا فان الوافد والضيف ينزل فى أنزه موضع ثم يحضر بين يديه الذى يشتهيه؛ وملاك ذلك كله أن يختصه رب المنزل بالقرب والكرامة، وأن جعله حالا من فاعل يشاؤن أو من المجرور فى (لهم) افاد هذا المعنى أيضا لكنه يقصر عما آثرناه لأنه قد أتى به اتيان الفضلة وهو مقصود بذاته عمدة، ولعمرى أن ما آثره حسن معنى إلا أنه أبعد لفظا مما آثره جار الله، ولا يخفى عليك ماهو الانسب بالتنزيل. وفى الخبر عن أبى ظبية قال: إن السرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم الا امطرته حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب اترابا ﴿ذَٰلِكَ﴾ اشارة إلى ماذكر من حال المؤمنين، ومافيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢﴾ الذى لا يقدر قدره ولا تبلغ غايته ويصغر دونه ما لغيرهم فى الدنيا ﴿ذَٰلِكَ﴾

الفضل الكبير أو الثواب المفهوم من السياق هو ﴿ الَّذى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلوا الصّٰلِحَاتِ ﴾ أى يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول كما هو عادتهم فى التدريج فى الحذف، ولامانع كما قال الشهاب من حذفهما دفعة ، وجوز كون ذلك اشارة إلى التبشير المفهوم من (يبشر) بعد والاشارة قد تكون لما يفهم بعد كما قرروه فى قوله تعالى : (و كذلك جعلنا كم أمة وسطا) ونحوه ، والعائد إلى الموصول ضمير منصوب بيبشر على أنه مفعول مطلق له لأنه ضمير المصدر أى ذلك التبشير يبشره الله عباده، وزعم أبو حيان أنه لا يظهر جعل الاشارة إلى التبشير لعدم تقدم لفظ البشرى ولامايدل عليها وهو ناشىء عن الغفلة عما سمعت فلاحاجة فى الجواب عنه أن كون ما تقدم تبشيرا للمؤمنين كاف فى صحة ذلك، ثم قال: ومن النحويين من جعل الذى مصدرية حكاه ابن مالك عن يونس و تأول عليه هذه الآية أى ذلك تبشير الله تعالى عباده، وليس بشئ لأنه اثبات للاشتراك بين مختلفى الحد بغير دليل وقد ثبتت اسمية الذى فلا يعدل عن ذلك بشىء لا يقوم به دليل ولا شبهة ه

وقرأ عبد الله بن يعمر. وابن أبى إسحق . والجحدرى . والاعمش . وطلحة فى رواية . والكسائى . وحمزة (يبشر) ثلاثيا . ومجاهد . وحميد بن قيس بضم الياء وتخفيف الشين من أبشر وهو معدى بالهمزة من بشر اللازم المكسور الشين وإما بشر بفتحها فمتعد وبشر بالتشديد للتكثير لا للتعدية لأن المعدى الى واحد وهو مخفف لا يعدى بالتضعيف اليه فالتضعيف فيه للتكثير لا للتعدية ﴿ قُل لَّا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى على ما اتعاطاه لكم من التبليغ والبشارة وغيرهما ﴿ أَجْرًا ﴾ أى نفعا ما، ويختص فى العرف بالمال ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ ﴾ أى الا مودتكم إياى ﴿ فِى الْقُرْبَىٰ ﴾ أى لقرابتى منكم ففى للسببية مثلها فى «إن امرأة دخلت النار فى هرة» فهى بمعنى اللام لتقارب السبب والعلة ، والى هذا المعنى ذهب مجاهد . وقتادة . وجماعة . والخطاب إما لقريش على ما قيل : انهم جمعوا له مالا وأرادوا أن يرشوه على أن يمسك عن سب آلهتهم فلم يفعل ونزلت، وله عليه الصلاة والسلام فى جميعهم قرابة . أخرج أحمد. والشيخان. والترمذى. وغيرهم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: (الا المودة فى القربى) فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ابن عباس: عجلت ان النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن بطن من قريش الا كان له فيهم قرابة أو للانصار بناء على ما قيل: انهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت فرده ، وله عليه الصلاة والسلام قرابة منهم لأنهم اخواله فان أم عبد المطلب وهى سلمى بنت زيد النجارية منهم وكذا اخوال آمنة أمه عليه الصلاة والسلام كانوا على مافى بعض التواريخ من الانصار أيضا أو لجميع العرب لقرابته عليه الصلاة والسلام منهم جميعا فى الجملة كيف لا وهم إما عدنانيون وقريش منهم وإما قحطانيون والانصار منهم، وقرابته عليه الصلاة والسلام من كل قد علمت وذلك يستلزم قرابته من جميع العرب، وقضاعة من قحطان لاقسم برأسه على ما عليه معظم النسابين، والمعنى ان لم تعرفوا حقى لنبوتى وكونى رحمة عامة ونعمة تامة فلا أقل من مودتى لأجل حق القرابة وصلة الرحم التى تعتنون بحفظها ورعايتها ه

وحاصله لا أطلب منكم الا مودتى ورعاية حقوق قرابتى منكم وذلك أمر لازم عليكم ، وروى نحو هذا فى الصحيحين عن ابن عباس بل جاء ذلك عنه رضى الله تعالى عنه فى روايات كثيرة وظاهرها ان الخطاب لقريش منها ما أخرجه سعيد بن منصور. وابن سعد. وعبد بن حميد. والحاكم. وصححه. وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل

عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا فى هذه الآية (قل لا أسئلكم) الخ فكتبنا الى ابن عباس نسأله فكتب رضى الله تعالى عنه إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان وسط النسب فى قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولدوه قال الله تعالى: (قل لا اسئلكم عليه أجرا) على ما أدعوكم عليه (الا المودة فى القربى) تودونى لقرابتى منكم وتحفظونى بها. ومنها ما أخرجه ابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى عنه قال: كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرابة من جميع قريش فلما كذبوه وأبوا أن يتابعوه قال: ياقوم اذا أبيتم أن تتابعونى فاحفظوا قرابتى فيكم ولا يكون غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم، والظاهر من هذه الاخبار أن الآية مكية والقول بأنها فى الانصار يقتضى كونها مدنية، والاستثناء متصل بناء على ما سمعت من تعميم الاجر *

وقيل: لا حاجة الى التعميم. وكون المودة المذكورة من أفراد الاجر ادعاء كاف لاتصال الاستثناء، وقيل: هو منقطع اما بناء على أن المودة له عليه الصلاة والسلام ليست أجرا أصلا بالنسبة اليه صلى الله تعالى عليه وسلم أو لأنها لازمة لهم ليصلوا بصلة الرحم فنفعها عائد عليهم والانقطاع اقطع لتوهم المنافاة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفى سؤال الاجر مطلقا، وذهب جماعة الى أن المعنى لا أطلب منكم أجرا الا محبتكم أهل بيتى وقرابتى. وفى البحر أنه قول ابن جبير. والسدى. وعمرو بن شعيب، و(فى) عليه للظرفية المجازية و(القربى) بمعنى الاقرباء، والجار والمجرور فى موضع الحال أى الا المودة ثابتة فى اقربائى متمكنة فيهم، ولمكانة هذا المعنى لم يقل: الا مودة القربى، وذكر أنه على الاول كذلك وأمر اتصال الاستثناء وانقطاعه على ماسبق، والمراد بقرابته عليه الصلاة والسلام فى هذا القول قيل: ولد عبد المطلب، وقيل على. وفاطمة. وولدها رضى الله تعالى عنهم وروى ذلك مرفوعا، أخرج ابن المنذر. وابن أبى حاتم. والطبرانى. وابن مردويه من طريق ابن جبير عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية (قل لا اسئلكم) الخ قالوا: يارسول الله من قرابتك الذين وجبت مودتهم؟ قال على. وفاطمة. وولدها صلى الله تعالى عليه وسلم على النبى وعليهم» *

وسند هذا الخبر على ماقال السيوطى فى الدر المنثور ضعيف، ونص على ضعفه فى تخريج احاديث الكشاف ابن حجر، وأيضا لو صح لم يقل ابن عباس ما حكى عنه فى الصحيحين وغيرهما وقد تقدم الا أنه روى عن جماعة من أهل البيت ما يؤيد ذلك، اخرج ابن جرير عن أبى الديلم قال: لما جئ بعلى بن الحسين رضى الله تعالى عنهما اسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم فقال له على رضى الله تعالى عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: ما قرأت (قل لا أسئلكم عليه اجرا إلا المودة فى القربى) قال: فانكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى ذاذان عن على كرم الله تعالى وجهه قال: فينا فى آل حم آية لا يحفظ مودتنا الا مؤمن ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت فى قوله:

وجدنا لكم فى آل حم آية ... تأولها منا تقى ومعرب

ولله تعالى در السيد عمر الهيتى احد الاقارب المعاصرين حيث يقول:

بأية آية يأتى يزيد ... غداة صحائف الاعمال تتلى
وقام رسول رب العرش يتلو ... وقد صمت جميع الخلق قل لا

والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للانصار فقط وإن ورد ما يوهم ذلك فانهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت. فقد أخرج مسلم. والترمذى. والنسائى عن زيد بن أرقم «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

قال: اذكركم الله تعالى فى أهل بيتى . وأخرج الترمذى . وحسنه . والطبرانى . والحاكم . والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال . قال عليه الصلاة والسلام « أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لحب الله تعالى وأحبوا أهل بيتى لحبى » واخرج ابن حبان . والحاكم . عن أبى سعيد قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله تعالى النار » الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الاخبار ، وفى بعضها ما يدل على عموم القربى وشمولها لبنى عبد المطلب . أخرج أحمد . والترمذى وصححه . والنسائى عن المطلب بن ربيعة قال : دخل العباس على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إنا لنخرج فنرى قريشا تحدث فاذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال : والله لا يدخل قلب امرئ مسلم ايمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتى ، وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم والا فقيل : إن الحكم منسوخ ، وفيه نظر ، والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث انهم قرابته ﷺ كيف كانوا ، وما أحسن ما قيل : داريت أهلك فى هواك وهم عدا ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد ، فمودة العلويين الفاطميين الزم من محبة العباسيين على القول بعموم (القربى) وهى على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضا باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام ، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك فى هاتيك المسالك . وأنا أقول قول الشافعى الشافى العى :

يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى فيضا كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى

ومع هذا لا أعد الخروج عما يعتقده أكابر أهل السنة فى الصحابة رضى الله تعالى عنهم دينا وأرى حبهم فرضا على مبينا فقد أوجبه أيضا الشارع وقامت على ذلك البراهين السواطع . ومن الظرائف ماحكاه الامام عن بعض المذكرين قال : انه عليه الصلاة والسلام قال : « مثل أهل بيتى كسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين . أحدهما السفينة الخالية عن العيوب ، والثانى الكواكب الطالعة النيرة ، فاذا ركب تلك السفينة ووضع بصره على تلك الكواكب كان رجاء السلامة غالبا ، فلذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ﷺ ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة يرجون أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة انتهى ، والكثير من الناس فى حق كل من الآل والأصحاب فى طرفى التفريط والافراط ومابينهما هو الصراط المستقيم ، ثبتنا الله تعالى على ذلك الصراط *

وقال عبد الله بن القاسم : المعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن يود بعضكم بعضا وتصلوا قراباتكم ، وأمر (فى) والاستثناء لا يخفى *

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن المعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا التقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح فالقربى بمعنى القرابة وليس المراد قرابة النسب ، قيل : ويجرى فى الاستثناء الاتصال والانقطاع ، واستظهر

الخفاجي أنه منقطع وأنه على نهج قوله : * ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * البيت، وأراه على القول قبله كذلك *
وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (إلا مودة فى القربى) هذا ومن الشيعة من أورد الآية فى مقام الاستدلال على امامة على كرم الله تعالى وجهه قال : على كرم الله تعالى وجهه واجب المحبة وكل واجب المحبة واجب الطاعة وكل واجب الطاعة صاحب الامامة ينتج على رضى الله تعالى عنه صاحب الامامة وجعلوا الآية دليل الصغرى ، ولا يخفى ما فى كلامهم هذا من البحث ، أما أولا فلأن الاستدلال بالآية على الصغرى لايتم إلا على القول بأن معناها لاأسألكم عليه أجرا الا أن تودوا قرابتى وتحبوا أهل بيتى وقد ذهب الجمهور الى المعنى الأول، وقيل فى هذا المعنى : انه لايناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فان أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئا ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم ، وأيضا فيه منافاة ما لقوله تعالى : (وما تسألهم عليه من أجر) وأما ثانيا فلأنا لا نسلم أن كل واجب المحبة واجب الطاعة فقد ذكر ابن بابويه فى كتاب الاعتقادات أن الامامية أجمعوا على وجوب محبة العلوية مع أنه لا يجب طاعة كل منهم ، وأما ثالثا فلأنا لانسلم أن كل واجب الطاعة صاحب الامامة أى الزعامة الكبرى والا لكان كل نبي فى زمنه صاحب ذلك ونص (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) يأبى ذلك ، وأما رابعا فلأن الآية تقتضى أن تكون الصغرى أهل البيت واجبو الطاعة ومتى كانت هذه صغرى قياسهم لا ينتج النتيجة التى ذكروها ولو سلمت جميع مقدماته بل ينتج أهل البيت صاحبو الامامة وهم لا يقولون بعمومه الى غير ذلك من الابحاث فتأمل ولا تغفل *

﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ أى يكتسب أى حسنة كانت ، والكلام تذييل ، وقيل المراد بالحسنة المودة فى قربى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وروي ذلك عن ابن عباس . والسدى ، وأن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله تعالى عنه لشدة محبته لأهل البيت ، وقصة فدك . والعوالى لا تأبى ذلك عند من له قلب سليم ، والكلام عليه تتميم ، ولعل الأول أولى ، وحب آل الرسول عليه الصلاة والسلام من أعظم الحسنات وتدخل فى الحسنة هنا دخولا أوليا ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا ﴾ أى فى الحسنة ﴿ حُسْناً ﴾ بمضاعفة الثواب عليها فانها يزاد بها حسن الحسنة ، ففى للظرفية و(حسنا) مفعول به أو تمييز ، وقرأ زيد بن على . وعبدالوارث عن أبى عمرو . وأحمد بن جبير عن الكسائى (يزد) بالياء أى يزد الله تعالى. وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو «حسنى» بغير تنوين وهو مصدر كبشرى أو صفة لموصوف مقدر أى صفة أوخصلة حسنى ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساتر ذنوب عباده ﴿ شَكُورٌ ٢٣ ﴾ مجاز من أطاع منهم بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة ، وقال السدى : غفور لذنوب آل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم شكور لحسناتهم *

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ بل أيقولون ﴿ افْتَرَى ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ بدعوى النبوة أو القرآن ، والهمزة للانكار التوبيخى وبل للاضراب من غير ابطال وهو اضراب أطم من الأول فأطم فان اثبات ما هم عليه من الشرع وإن كان شرا وشركا أقرب من جعل الحق الابلج المعتضد بالبرهان النير من أوسطهم فضلا ودعة وعقلا افتراء ثم افتراء على الله عز وجل فكأنه قيل : أيتمالكون التفوه بنسبة مثله عليه

الصلاة والسلام الى الافتراء ثم الى الافتراء على الله عز وجل الذى هو أعظم الفرى وأفحشها ولا تحترق ألسنتهم *
وفى ذلك أتم دلالة على بعده صلى الله تعالى عليه وسلم من الافتراء كيف وقد أردف بقوله تعالى :
﴿ فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ فان هذا الاسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه الصلاة والسلام وأنه فى البعد مثل الشرك بالله سبحانه والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم فكأنه قيل : فان يشأ الله سبحانه يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب فانه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله تعالى الا من كان فى مثل حالهم وهو فى معنى فان يشأ يجعلك منهم لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله تعالى ، وما أحسن هذا التعريض بأنهم المفترون وأنهم فى نفس هذه المقالة عن افترائهم مفترون ، ونظير الآية فيما ذكر قول أمين نسب الى الخيانة : لعل الله تعالى خذلنى لعل الله تعالى أعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب وانما يريد استبعاد أن يخون مثله والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، فالكلام تعليل لانكار قولهم ، وأتى بإن مع أن عدم مشيئته تعالى مقطوع به قيل ارخاء للعنان ، وقيل : اشعار بعظمته تعالى وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ثم ذيل بقوله تعالى : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ تأكيداً للمفهوم من السابق من أنه ليس من الافتراء فى شىء أى كيف يكون افتراء ومن عادته تعالى محو الباطل ومحقه واثبات الحق بوحيه أو بقضائه وما أتى به عليه الصلاة والسلام يزداد كل يوم قوة ودحوا فلو كان مفتريا كما يزعمون لكشف الله تعالى افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه *
والفعل المضارع للاستمرار . والكلام ابتدائى فيمح مرفوع لا مجزوم بالعطف على (يختم) وأسقطت الواو فى الرسم فى أغلب المصاحف تبعا لاسقاطها فى اللفظ لالتقاء الساكنين كما فى «سندع الزبانية . ويدع الانسان بالشر» وكان القياس اثباتها رسما لكن رسم المصحف لا يلزم جريه على القياس ، ويؤيد الاستئناف دون العطف على «يختم» اعادة الاسم الجليل ورفع (يحق) وهذا ماذكره جار الله فى الجملتين وبيان ارتباطهما بما قبلهما ، وقد دقق النظر فى ذلك وأتى بما استحسنه النظار حتى قال العلامة الطيبى : لو لم يكن فى كتابه إلا هذا لكفاه مزية وفضلا ، وجوز هو أيضا فى قوله تعالى : (ويمح) الخ أن يكون عدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنصر أى يمحو الله تعالى باطلهم وما بهتوك به ويثبت الحق الذى أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذى لا مرد له ، وحينئذ يكون اعتراضا يؤكد ماسبق له الكلام من كونهم مبطلين فى هذه النسبة الى من هو أصدق الناس لهجة بأصدق حديث من اصدق متكلم ، وقال فى ارشاد العقل السليم فى الجملة الأولى : إنها استشهاد على بطلان ما قالوه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام لو افترى على الله تعالى كذبا لمنعه من ذلك قطعا ، وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم انه سبحانه لا يشاء صدوره عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورياته منعه عنه قطعا فكأنه قيل : لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وان يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحى حينا فحينا تبين أنه من عند الله عز وجل ، وذكر فى الجملة الثانية ما ذكره جار الله من الوجهين ، ولا يخفى عليك مايرد على كلامه من المنع مع أن فيه جعل مفعول المشيئة غير مايدل عليه الجواب وهو ذلك المشار به الى عدم الصدور ، والمتبادر كون المفعول الختم على ماهو المعروف

فى نظائر هذا التركيب أى فان يشأ الله تعالى الختم على قلبك يختم ، وايهام كون القرءان ناشئا منه ﷺ لا منزلا عليه عليه الصلاة والسلام ، وقال السمرقندى : المعنى إن يشأ يختم على قلبك كما فعل بهم فهو تسلية له عليه الصلاة والسلام و تذكير لاحسانه اليه واكرامه له صلى الله تعالى عليه وسلم ليشكر ربه سبحانه و يترحم على من ختم على قلبه فاستحق غضب ربه ولولا ذلك ما اجترأ على نسبته لما ذكر ، فالتفريع بالنظر الى المعنى المكنى عنه ، وحاصله انهم اجترؤا على هذا لأنهم مطبوعون على الضلال انتهى ، وفيه شمة مما ذكره الزمخشرى *

وعن قتادة . وجماعة يختم على قلبك ينسك القرآن ، والمراد على ماقال ابن عطية الرد على مقالة الكفار و بيان بطلانها كأنه قيل : وكيف يصح أن تكون مفتريا وأنت من الله تعالى بمرأى ومسمع وهو سبحانه قادر ولو شاء لختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤك ، وفيه أن اللفظ ضيق عن اداء هذا المعنى ، وذكر القشيرى أن المعنى فان يشأ الله تعالى يختم على قلوب الكفار وعلى ألسنتهم ويعاجلهم بالعذاب ، وعدل عن الغيبة الى الخطاب ومن الجمع الى الافراد ، وحاصله يختم على قلبك أيها القائل إنه عليه الصلاة والسلام افترى على الله تعالى كذبا ، وفيه من البعد ما فيه مع أن الكفار مختوم على قلوبهم ، وقال مجاهد . ومقاتل : المعنى فان يشأ يربط على قلبك بالصبر على اذاهم حتى لا يشق عليك قولهم انك مفتر ، ولا مانع عليه من عطف (يمح) على جواب الشرط بل هو الظاهر فيكون سقوط الواو للجازم ، و(يحق) حينئذ مستأنف أى وان يشأ يمح باطلهم عاجلا لكنه سبحانه لم يفعل لحكمة أو مطلقا وقد فعل جل وعلا بالآخرة وأظهر دينه ، وقيل : لامانع من العطف على بعض الأقوال السابقة أيضا أى إن يشا يمح افتراءك لوافتريت وهو كما ترى ، وكذا جوز كون الجملة حالية وإن أحوج ذلك الى تقدير المبتدأ وفيه تكلف مستغنى عنه ، وربما يقال: إن جملة (فان يشأ الله يختم) من تتمة قولهم مفرعا على (افترى) كأنه قيل: افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبه بسبب افترائه فلا يعقل شيئا أو كأنه قيل : افتريت على الله فان يشأ يختم على قلبك جزاء ذلك الا ان نكتة اختيار الغيبة فى احدى الجملتين والخطاب فى الاخرى غير ظاهرة ، وكونها الاشارة الى أن من افترى يحق أن يواجه بالجزاء ليس مما يهش له السامع فيما أرى ، ولعل الأولى أن يكون (فان يشأ) الخ مفرعا على كلامهم خارجا مخرج التهكم بهم ، ولا بأس حينئذ بعطف يمح على جواب الشرط و يراد بالباطل ما هو باطل بزعمهم كأنه قيل : أم يقولون افترى على الله فاذن إن يشأ الله يختم على قلبك ويمح ما يزعمون أنه باطل ، وهذا كما تقول لمن أخبرك أن زيدا افترى عليك وأنت تعلم أنه لم يفتر وانما ادى عنك ما أمرته به فاذن نؤدبه وننتقم منه ونمحو افتراءه تقصد بذلك التهكم بالقائل فتأمل ، فهذه الآية كما قال الخفاجى من أصعب مامر فى كلامه تعالى العظيم وفقنا الله تعالى وإياكم لفهم معانيه والوقوف على سر دوخافيه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٤﴾ فيعلم سبحانه ما فى صدرك وصدورهم فيجرى جل وعلا الأمر على حسب ذلك *

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه والقبول يعدى بعن لتضمنه معنى الابانة وبمن لتضمنه معنى الاخذ كما فى قوله تعالى : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم) أى تؤخذ ، وقيل : القبول مضمن هنا معنى التجاوز والكلام على تقدير مضاف أى يقبل التوبة متجاوزا عن ذنوب عباده وهو تكلف *

والتوبة أن يرجع عن القبيح والاخلال بالواجب فى الحال و يندم على مامضى ويعزم على تركه فى المستقبل

وزادوا التفصى منه بأى وجه أمكن إن كان الذنب لعبد فيه حق وذلك بالرد اليه أو إلى و كيله أو الاستحلال منه إن كان حيا وبالرد الى ورثته إن كان ميتا ووجدوا ثم القاضى لو كان أمينا وهو كالا كسير ومن رأى الا كسير؟ فإن لم يقدر على شيء من ذلك يتصدق عنه والا يدع له ويستغفر *

وفي الكشف التفصى داخل فى الرجوع اذ لا يصح الرجوع عنه وهو ملتبس به بعد، واختير أن حقيقتها الرجوع وإنما الندم والعزم ليكون الرجوع اقلاعا ويتحقق انه التوبة التى ندبنا اليها وهو موافق لما فى الاحياء من أنها اسم لتلك الحالة بالحقيقة والباقى شروط التحقق، و يشترط أيضا أن يكون الباعث على الرجوع مع الندم والعزم دينيا فلو رجع لمانع آخر من ضعف بدن أو غرم لذلك لم يكن من التوبة فى شيء، وأشار الزمخشرى الى ذلك بكون الرجوع لأن المرجوع عنه قبيح واخلال بالواجب وخرج عنه، لو رجع طلبا للثناء أو رياء أو سمعة لأن قبح القبيح معناه كونه مقتضيا للعقاب آجلا وللذم عاجلا فلو رجع لما سبق لم يكن رجوعا لذلك *

وروى جابر أن اعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال: اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على كرم الله وجهه: ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج الى التوبة فقال يا أمير المؤمنين: ماالتوبة؟ قال: اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته، وهذا يحتمل أن تكون التوبة مجموع هذه الامور فالمراد اكمل أفرادها، ويحتمل أنها اسم لكل واحد منها والأول أظهر. واختلف فى التوبة عن بعض المعاصى مع الاصرار على البعض هل هى صحيحة أم لا والذى عليه الاصحاب أنها صحيحة لظواهر الآيات والأحاديث وصدق التعريف عليها، وأكثر المعتزلة على أنها غير صحيحة قال أبو هاشم منهم: لو تاب عن القبيح لكونه قبيحا وجب أن يتوب عن كل القبائح وإن تاب عنه لا لمجرد قبحه بل لغرض آخر لم تصح توبته. وتعقب بأنه يجوز أن يكون الباعث شدة القبح أو أمرا دينيا آخر وأيضا يجرى نظير هذا فى فعل الحسن بل يقال: لو فعل الحسن لكونه حسنا وجب عليه أن يفعل كل حسن وإن فعله لغرض آخر لم يقبل وفيه بحث *

واستدل المعتزلة بالآية على أنه يجب عليه تعالى قبول التوبة واستدل أهل السنة بها على عدم الوجوب لمكان التمدح ولا تمدح بالواجب، وفيه أيضا بحث والانفع فى هذا المقام أدلة نفى الوجوب مطلقا عليه عز وجل *

﴿ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ صغائرها و كبائرها لمن يشاء من غير اشتراط شيء كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر *

وقال الطيبي: المعنى من شأنه تعالى شأنه قبول التوبة عن عباده اذا تابوا والعفو عن سيآتهم بمحض رحمته او بشفاعة شافع، وقال المعتزلة: أى يعفو عن الكبائر اذا تيب عنها وعن الصغائر اذا اجتنبت الكبائر فالعفو عن السيئات عليه أعم من قبول التوبة لشموله الصغائر اذا اجتنبت الكبائر وهو تعميم بعد تخصيص، والظاهر مع أهل السنة اذ لا دلالة فى النظم الجليل على تخصيص السيئات نعم المراد بها غير الشرك بالاجماع *

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥ ﴾ بتاء الخطاب عند حفص. والاخوين. وعلقمة. وعبدالله وبياء الغيبة عند الجمهور وعلى الأول ففيه التفات وما موصولة والعائد محذوف أى يعلم الذى تفعلونه كائنا ما كان من خير وشر فيجازى بالثواب والعقاب أو يتجاوز سبحانه بالعفو حسبما تقتضيه مشيئته جل وعلا المبنية على الحكم والمصالح *

وقيل: يعلم ذلك فيجازي التائب ويتجاوز عن غيره اذا شاء سبحانه والاول أظهر. وفي الكشاف يعلم سبحانه ذلك فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات. وفي الكشف بعد نقله هو أي قوله تعالى. (ويعلم) الخ تذييل للكلام السابق يؤكد ماذكره من القبول والعفو لأنه تعالى إذا علم العملين والعاملين جازى كلا بما فعل فاولى أن يجازي هؤلاء المحسنين بافعالهم، ثم فيه لطف وحث على لزوم الحذر منه تعالى والاخلاص له سبحانه في محاض التوبة، ونحن أيضا لاننكر أنه تذييل فيه تأكيد كما لايخفى ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عطف على (يقبل التوبة) فالفاعل ضميره تعالى و(الذين) مفعول بدون تقدير شيء بناء على أن (يستجيب) يتعدى بنفسه كما يتعدى باللام نحو شكرته وشكرت له أو بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والايصال والاصل يستجيب للذين آمنوا بناء على أنه يتعدى الداعي باللام وللدعاء بنفسه ونحو هذا قوله:

وداع دعا يامن يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وأجاب واستجاب بمعنى أي ويجيب الله تعالى الذين آمنوا اذا دعوا وحاصله يجيب دعاءهم، وجوز بعضهم أن يكون الكلام بتقدير هذا المضاف قيل: وهو أولى من القول بإيصال الفعل بحذف الصلة لأن حذف المضاف اذا لم يلبس منقاس وذاك مسموع، ويجوز أن يكون المراد يثيبهم على طاعتهم فان الطاعة لكونها طلب ما يترتب عليها من الثواب شابهت الدعاء وشابهت الاثابة عليها الاجابة، ومن هذا يسمى الثناء دعاء لأنه يترتب عليه مايترتب عليه، وسئل سفيان عن قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي لا إله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فقال: هذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ألا ترى قول أمية بن الصلت لابن جدعان حين أتاه يبغي نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ثناؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه عن تعرضك الثناء

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ «أفضل الدعاء الحمد لله» على معنى أن الحمد يدل على الدعاء والسؤال بطريق الكناية والتعريض، وقيل: هو على اطلاق الدعاء على الحمد لشبهه به في طلب مايترتب عليه، وجوز أن يراد بالاجابة معناها الحقيقي والاثابة بناء على القول بصحة الجمع بين الحقيقة والمجاز أي يجيب دعاءهم ويثيبهم على الطاعة ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ على ماسألوا واستحقوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الواسع جل شأنه، وقيل: إن فاعل (ويستجيب الذين آمنوا) واستظهره أبو حيان، والجملة عطف على مجموع قوله تعالى: (هو الذين يقبل التوبة) الخ أي ينقادون لله تعالى ويجيبونه سبحانه إذا دعاهم، وهو المروي عن ابن جبير، وعن ابراهيم بن أدهم أنه قيل له: مالنا ندعوا فلا نجاب؟ فقال: لأنه سبحانه دعاكم فلم تجيبوه ثم قرأ (والله يدعو إلى دار السلام. ويستجيب الذين آمنوا) وهذا يؤكد هذا الوجه لانه قدس سره ذكر أن الله تعالى دعاكم بقوله عز وجل: (والله يدعو إلى دار السلام) وذكر أن المؤمن من استجاب دعوة ربه تعالى بقوله: (ويستجيب الذين آمنوا) فمن لايجيب دعاءه تعالى لايجيب تعالى ايضا دعاءه، وكون الفاعل ضميره تعالى قد روي ما يقتضيه عن ابن عباس. ومعاذ بن جبل (ويزيدهم) عليه عطف على ماقبله وعلى الوجه الآخر عطف على مقدر أي فيوفيهم اجورهم ويزيدهم عليها على اسلوب (وقالا الحمد لله الذي فضلنا) وقوله سبحانه. (من

فضله متعلق بيزيدهم مطلقا ، وجوز تعليقه بالفعلين على التنازع فان الاجابة والثواب فضل منه تعالى كالزيادة *
وأيا ما كان فالظاهر عموم الذين آمنوا وروى عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة واستحكم الاسلام قالت الانصار فيما بينها: نأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام ونقول له: إن تعرك أمور فهذه اموالنا تحكم فيها فنزلت قل (لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى) فقرأها عليهم ، وقال تودون قرابتى من بعدى فخرجوا مسلمين فقال المنافقون: إن هذا اشىء افتراه فى مجلسه أراد بذلك عز قرابته من بعده فنزلت (أم يقولون افترى على الله كذبا) فأرسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا وندموا فأنزل الله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) فأرسل ﷺ اليهم فبشرهم وقال:(ويستجيب الذين آمنوا) وهم الذين سلموا لقوله ذكر ذلك الطبرسى ، وذكر قريبا منه فى الدر المنثور لكن قال: أخرجه الطبرانى فى الاوسط. وابن مردويه عن ابن جبير بسند ضعيف، والذى يغلب على الظان الوضع ﴿ وَالْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٦ ﴾ بدل ما للمؤمنين من الاجابة والتفضل *
﴿ ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لعبَادِه لَبَغَوْا فى الْأَرْض ﴾ أى لتكبروا فيها بطرا وتجاوزوا الحد الذى يليق بالعبيد أو لظلم بعضهم بعضا فان الغنى مبطرة مأشرة، وكفى بحال قارون عبرة، وفى الحديث «أخوف ما أخاف على أمتى زهرة الدنيا وكثرتها» ولبعض العرب :

وقد جعل الوسمى ينبت بيننا   وبين بنى رومان نبعا وشوحطا

وأصل البغى طلب اكثر مما يجب بأن يتجاوز فى القدر والكمية أو فى الوصف والكيفية ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو بالتخفيف من الانزال ﴿ بِقَدَرٍ ﴾ بتقدير ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ وهو ما اقتضته حكمته جل شأنه ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ٢٧ ﴾ محيط بخفيات أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم ما يليق بشأنه فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو اغناهم جميعا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا. واستشكلت الآية بأن الغنى قد يكون سبب البغى فكذلك الفقر قد يكون فلا يظهر الشرطية، وأجاب جار الله بأنه لا شبهة أن البغى مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب وكلاهما سبب ظاهر للاقدام على البغى والاحجام عنه فلو عم البسط لغلب البغى حتى ينقلب الامر إلى عكس ما عليه الآن وأراد والله تعالى أعلم أن نظام العالم على ما هو عليه يستمر وان كان قد يصدر من الغنى فى بعض الاحيان بغى ومن الفقير كذلك لكن فى أحدهما ما يدفع الآخر أما لو أفقرهم كلهم لكان الضعف والهلك لازما ولو بسط عليهم كلهم مع أن الحاجة طبيعية لكان من البغى ما لا يقادر قدره لأن نظام العالم بالفقر أكثر منه بالغنى، وهذا أمر ظاهر مكشوف، ثم ان الفقر الكلى لا يتصور معه البغى للضعف العام ولأنه لا يجد حاجته عند غيره ليظلمه، وأما الغنى الكلى فعنده البغى التام، وأما الذى عليه سنة الله عز وجل فهو الذى جمع الامرين مشتملا على خوف للغنى من الفقراء يزعه عن الظلم وخوف للفقير من الاغنياء أكثر منه يدعوه إلى التعاون ليفوز بمبتغاه ويزعه عن البغى، ثم قد يتفق بغى من هذا أو ذاك كذا قرره صاحب الكشف ثم قال: وهذا جواب حسن لا تكلف فيه وهو اشارة إلى رد العلامة الطيبى فانه زعم أنه جواب متكلف وان السؤال قوى، وذهب هو الى أن المراد (بعباده) من خصهم الله تعالى بالكرامة وجعلهم من أوليائه ثم قال: وينصره التذييل بقوله تعالى:(إنه بعباده خبير بصير)

ووضع المظهر موضع المضمر أى أنه تعالى خبير بأحوال عباده المكرمين بصير بما يصلحهم وما يرديهم، واليه ينظر ماورد عنه ﷺ إذا أحب الله تعالى عبدا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء ، ويشد من عضده قول خباب بن الارت نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها فنزلت (ولو بسط) الآية وقول عمرو ابن حريث طلب قوم من أهل الصفة من الرسول ﷺ أن يغنيهم الله تعالى ويبسط لهم الاموال والارزاق فنزلت وعليه تفسير محي السنة انتهى . ولا يخفى أن الانسب بحال المكرمين المصطفين من عباده تعالى أن لايبطرهم الغنى لصفاء بواطنهم وقوة توجههم إلى حظائر القدس ومزيد تعلق قلوبهم بمحبوبهم ووقوفهم على حقائق الاشياء وكمال علمهم بمنتهى زخارف الحياة الدنيا، وأبناء الدنيا لو فكروا فى ذلك حق التفكر لهان أمرهم وقل شغفهم كما قيل :

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

فلعل الأولى ماتقدم أو يقال إن هذا فى بعض العباد المؤمنين فتأمل ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ أى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه فلا يقال غيث لكل مطر ، وقرأ الجمهور (ينزل) مخففا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَاقَنَطُوا ﴾ يئسوا منه، وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة ، وقرأ الاعمش وابن وثاب (قنطوا) بكسر النون ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أى منافع الغيث وآثاره فى كل شىء من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته الواسعة المنتظمة لما ذكر انتظاما أوليا ، وقيل : الرحمة هنا ظهور الشمس لأنه إذا دام المطر سئم فتجئ الشمس بعده عظيمة الموقع ذكره المهدوى وليس بشئ، ومن البعيد جدا ماقاله السدى من أن الرحمة هنا الغيث نفسه عدد النعمة نفسها بلفظين، (وأياما كان فضمير) رحمته لله عزوجل، وجوز على الأول كونه للغيث ﴿ وَهُوَ الْوَلِىُّ ﴾ الذى يتولى عباده بالاحسان ونشر الرحمة ﴿ الْحَمِيدُ ٢٨ ﴾ المستحق للحمد على ذلك لاغيره سبحانه ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على ماهما عليه من تعاجيب الصنائع فانها بذاتها وصفاتها تدل على شؤنه تعالى العظيمة، ومن له أدنى انصاف وشعور يجزم باستحالة صدورها من الطبيعة العديمة الشعور ﴿ وَمَابَثَّ فِيهِمَا ﴾ عطف على (السموات) أى ومن آياته خلق مابث أو عطف على (خلق) أى ومن آياته مابث و(ما) تحتمل الموصولية والمصدرية والموصولية أظهر ولاحاجة عليه إلى تقدير مضاف أى خلق الذى بث خلافا لأبى حيان ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى حيوان له دبيب وحركة، وظاهر الآية وجود ذلك فى السموات وفى الارض وبه قال مجاهد وفسر الدابة بالناس والملائكة ، ويجوز أن يكون للملائكة مشى مع الطيران، واعترض ذلك ابن المنير بأن اطلاق الدابة على الاناسى بعيد فى عرف اللغة فكيف بالملائكة وادعى أن الاصح كون الدواب فى الارض لاغير ؛ ومافى أحد الشيئين يصدق أنه فيهما فى الجملة، فالآية على أسلوب (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وذلك لقوله تعالى فى البقرة : (وبث فيها من كل دابة) فانه يدل على اختصاص الدواب بالارض لأن مقام الاطناب يقتضى ذكره لو كان لاللعمل بمفهوم اللقب الذى لايقول به الجمهور والجواب أن التى فى البقرة لما كانت كلاما مع الغبى والفهم والمسترشد والمعاند جىء فيه بما هو معروف عند الكل وهو بث الدواب فى الارض واما ههنا فجىء به مدمجا مختصرا لماتكرر فى القرآن ولاسيما فى هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقيل : (ومن

آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما) مؤثرا على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة وبين بقوله تعالى: (من دابة) تعميما وتغليبا لغير ذوي العلم في السماوي والارضي تحقيقا للمخلوقية فقد ثبت في صحاح الاحاديث مايدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها، وكذلك مايدل على وجود ملائكة كالأوعال بل لايبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لانعلمها ولم يذكر في الاخبار شيء منها فقد قال تعالى: (ويخلق مالا تعلمون) وأهل الارصاد اليوم يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات في جرم القمر لكنهم لم يحققوا أمرها لنقص مافي الآلات على مايدعون، ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به، وقيل: المراد بالسموات جهات العلو المسامتة للاقاليم مثلا وفي جو كل إقليم بل كل بلدة بل كل قطعة من الارض حيوانات لايحصى كثرتها الاالله تعالى بعضها يحس بها بلا واسطة آلة وبعضها بواسطتها، وقيل: المراد بها السحب وفيها من الحيوانات مافيها وكل ذلك على مافيه لايحتاج اليه، وكذا لايحتاج إلى ماذهب اليه كثير من أن المراد بالدابة الحي مجازا إما من استعمال المقيد في المطلق أو اطلاق الشيء على لازمه أو المسبب على سببه لأن الحياة سبب للدبيب وإن لم تكن الدابة سببا للحي فيكون مجازا مرسلا تبعيا لأن الاحتياج إلى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه إلا إذا دل دليل على خلافه وأين ذلك الدليل؟ بل هو قائم على وجود الدواب في السماء كما هي موجودة في الارض ❊

﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ ﴾ أي حشرهم بعد البعث للمحاسبة ﴿ إِذَا يَشَاءُ ﴾ ذلك ﴿ قَدِيرٌ ٢٩ ﴾ تام القدرة كاملها، و(إذا) متعلقة بما قبلها لا بقدير لأن المقيد بالمشيئة جمعه تعالى لاقدرته سبحانه وهي كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع، ومنه قوله:

وإذا ماأشاء أبعث منها آخر الليل ناشطا مذعورا

وقول صاحب الكشف: لقائل أن يفرق بين إذا وإذا ما الظاهر أنه ليس في محله وقد نص الخفاجي على عدم الفرق وجعل القول به توهما، وكذا نص على أنها تدخل على الفعلين ظرفية كانت أو شرطية، وقيد ذلك الطيبي بما اذا كانت بمعنى الوقت كما هنا، وضمير (جمعهم) قيل للسموات والأرض وما فيهما على التغليب وهو كما ترى، وقيل: للدواب المفهوم مما تقدم وضمير العقلاء للتغليب المناسب لكون الجمع للمحاسبة، وقيل: للناس المعلوم من ذلك ولعله الأولى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي مصيبة كانت من مصائب الدنيا كالمرض وسائر النكبات ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي فبسبب معاصيكم التي اكتسبتموها، و(ما) اسم موصول مبتدا والمبتدا إذا كان موصولا صلته جملة فعلية تدخل على خبره الفاء كثيرا لما فيه من معنى الشرط لاشعاره بابتناء الخبر عليه فلذا جيء بالفاء هنا ❊

وقرأ نافع. وابن عامر. وأبو جعفر في رواية. وشيبة (بما) بغير فاء لأنها ليست بلازمة وإيقاع المبتدا موصولا يكفي في الاشعار المذكور، وحكي عن ابن مالك أنه قال: اختلاف القراءتين دل على أن ما موصولة فجيء تارة بالفاء في خبرها وأخرى لم يؤت بها حطا للمشبه عن المشبه به، وجوز كون ما شرطية واستظهره أبو حيان في القراءة بالفاء وجعلها موصولة في القراءة الأخرى بناء على أن حذف الفاء من جواب الشرط مخصوص بالشعر عند سيبويه نحو ❊ من يفعل الحسنات الله يشكرها ❊ والأخفش. وبعض نحاة بغداد أجازوا ذلك مطلقا، ومنه

قوله تعالى : (وإن أطعتموهم انكم لمشركون) *
وقال أبو البقاء : حذف الفاء من الجواب حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي ويعلم منه مزيد حسن حذفها هنا على جعل ماموصولة ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ٣٠ ﴾ أى من الذنوب فلا يعاقب عليها بمصيبة عاجلا قيل وآجلا.
وجوز كون المراد بالكثير الكثير من الناس والظاهر الأول وهو الذى تشهد له الأخبار. روى الترمذي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله تعالى عنه أكثر وقرأ (وما أصابكم من مصيبة)» *
وأخرج ابن المنذر . وجماعة عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية (وما أصابكم) الخ ، قال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده مامن خدش عود ولا اختلاج عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر ، وأخرج ابن سعد عن أبي مليكة أن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما كانت تصدع فتضع يدها على رأسها وتقول بذنبى وما يغفره الله تعالى أكثر، وروى على كف شريح قرحة فقيل: بم هذا؟ فقال: بما كسبت يدى، وسئل عمران بن حصين عن مرضه فقال: إن أحبه إلى أحبه الى الله تعالى وهذا بما كسبت يدى، والآية مخصوصة بأصحاب الذنوب من المسلمين وغيرهم فان من لا ذنب له كالأنبياء عليهم السلام قد تصيبهم مصائب ، ففى الحديث «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» ويكون ذلك لرفع درجاتهم أو لحكم أخرى خفيت علينا ، وأما الأطفال والمجانين فقيل غير داخلين فى الخطاب لأنه للمكلفين وبفرض دخولهم أخرجهم التخصيص بأصحاب الذنوب فما يصيبهم من المصائب فهو لحكم خفية ، وقيل: فى مصائب الطفل رفع درجته ودرجة أبويه أو من يشفق عليه بحسن الصبر ثم ان المصائب قد تكون عقوبة على الذنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه يوم القيامة ، ويدل على ذلك مارواه أحمد فى مسنده . والحكيم الترمذى . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه قال : ألا أخبركم بافضل آية فى كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) وسأفسرها لك يا على ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة وما عفا الله تعالى عنه فى الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه، وزعم بعضهم أنها لا تكون جزاء لأن الدنيا دار تكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت دار جزاء وتكليف معا وهو محال فما هى الا امتحانات ، وخبر على كرم الله وجهه يرده وكذا ما صح من ان الحدود أى غير حد قاطع الطريق مكفرات وأى محالية فى كون الدنيا دار تكليف ويقع فيها لبعض الاشخاص ما يكون جزاء له على ذنبه أى مكفرا له *
وعن الحسن تفسير المصيبة بالحد قال: المعنى ما أصابكم من حد من حدود الله تعالى فانما هو بكسب أيديكم وارتكابكم ما يوجبه ويعفو الله تعالى عن كثير فيستره على العبد حتى لا يحد عليه، وهو مما تأباه الاخبار ومع هذا ليس بشىء. ولعله لم يصح عن الحسن *
وفى الانتصاف ان هذه الآية تبلس عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة فى صرفها عن مقتضى نصها فانها حملوا قوله تعالى: (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) على التائب وهو غير ممكن لهم ههنا فانه قد أثبت التبعيض

فى العفو ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقيدا بالتوبة فانه يلزم تبعيضها أيضا وهى عندهم لا تتبعض كما نقل الامام عن أبى هاشم وهو رأس الاعتزال والذى تولى كبره منهم فلا محل لها الا الحق الذى لا مرية فيه وهو رد العفو الى مشيئة الله تعالى غير موقوف على التوبة. وأجيب عنهم بأن لهم أن يقولوا: المراد ويعفو عن كثير فلا يعاقب عليه فى الدنيا بل يؤخر عقوبته فى الآخرة لمن لم يتب. وأنت تعلم مادل خبر على كرم الله تعالى وجهه *

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ ﴾ أى بجاعلين الله سبحانه وتعالى عاجزا عن أن يصيبكم بالمصائب بما كسبت أيديكم وإن هربتم فى أقطار الارض كل مهرب، وقيل: المراد انكم لا تعجزون من فى الأرض من جنوده تعالى فكيف من فى السماء ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ ﴾ من متول بالرحمة يرحمكم إذا أصابتكم المصائب وقيل يحميكم عنها ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ٣١ ﴾ يدفعها عنكم، والجملة كالتقرير لقوله تعالى: (ويعفو عن كثير) أى ان الله تعالى يعفو عن كثير من المصائب اذ لا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه فتفوتوا ماقضى عليكم منها ولا لكم أيضا من متول بالرحمة غيره عز وجل ليرحمكم اذا أصابتكم ولا ناصر سواه لينصركم منها ولهذا جاء عن على كرم الله تعالى وجهه أن هذه أرجى آية فى القرآن للمؤمنين، ويقوى أمر الرجاء على ماقيل: أن معنى (ما أنتم) الخ ما أنتم بمعجزين الله تعالى فى دفع مصائبكم أى أنه سبحانه قادر على ذلك ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ ﴾ أى السفن الجوارى أى الجارية فهى صفة لموصوف محذوف لقرينة قوله تعالى: ﴿ فِى الْبَحْرِ ﴾ وبذلك حسن الحذف والا فهى صفة غير مختصة والقياس فيها أن لا يحذف الموصوف وتقوم مقامه، وجوز أبو حيان أن يقال: إنها صفة غالبة كالابطح وهى يجوز فيها أن تلى العوامل بغير ذكر الموصوف، و(فى البحر) متعلق بالجوارى وقوله تعالى: ﴿ كَالْأَعْلَامِ ٣٢ ﴾ فى موضع الحال *

وجوز أن يكون الأول أيضا كذلك، والاعلام جمع علم وهو الجبل وأصله الاثر الذى يعلم به الشئ كعلم الطريق وعلم الجيش وسمى الجبل علما لذلك ولا اختصاص له بالجبل الذى عليه النار للاهتداء بل اذا أريد ذلك قيد كما فى قول الخنساء:

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وفيه مبالغة لطيفة، وحكى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لما سمعه: قاتلها الله تعالى ما رضيت بتشبيهه بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا. وقرأ نافع وأبو عمرو (الجوارى) بياء فى الوصل دون الوقف *

وقرأ ابن كثير بها فيهما والباقون بالحذف فيهما والاثبات على الاصل والحذف للتخفيف، وعلى كل فالاعراب تقديرى وسمع من بعض العرب الاعراب على الراء ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ التى تجرى بها ويعدم سبب تموجها وهو تكاثف الهواء الذى كان فى المحل الذى جرت اليه وتراكم بعضه على بعض وسبب ذلك التكاثف إما انخفاض درجة حرارة الهواء فيقل تمدده ويتكاثف ويترك أكثر المحل الذى كان مشغولا به خاليا وإما تجمع فجائى يحصل فى الابخرة المنتشرة فى الهواء فيخلو محلها، وهذا على ماقيل أقوى الاسباب فاذا وجد الهواء أمامه فراغا بسبب ذلك جرى بقوة ليشغله فتحدث الريح وتستمر حتى تملأ المحل وماذكر فى سبب التموج هو الذى ذكره فلاسفة العصر. وأما المتقدمون فذكروا أشياء أخر، ولعل هناك أسبابا غير ذلك كله لا يعلمها الا الله عز وجل، والقول بالاسباب تحريكا واسكانا لا ينافى اسناد الحوادث الى الفاعل المختار جل جلاله وعم نواله *

وقرأ نافع (الرياح) جمعا ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ﴾ فيصرن ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا ، وفسر بعضهم (يظللن) بيبقين فيكون (رواكد) حالا والأول أولى ٭

وقرأ قتادة (فيظللن) بكسر اللام والقياس الفتح لأن الماضى مكسور العين فالكسر فى المضارع شاذ ، وقال الزمخشرى : هو من ظل يظل و يظل بالفتح والكسر نحو ضل بالضاد يضل ويضل، وتعقبه أبو حيان بأنه ليس كما ذكر لأن يضل بالفتح من ضللت بالكسر ويضل بالكسر من ضللت بالفتح وكلاهما مقيس ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر من السفن المسخرة فى البحر تحت أمره سبحانه وحسب مشيئته تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة كثيرة على عظمة شؤنه عز وجل ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣ ﴾ لكل من حبس نفسه عن التوجه الى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه سبحانه فالصبر هنا حبس مخصوص والتفكر فى نعمه تعالى شكر ٭

ويجوز أن يكون قد كنى بهذين الوصفين عن المؤمن الكامل لأن الايمان نصفه صبر ونصفه شكر ٭

وذكر الامام أن المؤمن لا يخلو من أن يكون فى السراء والضراء فان كان فى الضراء كان من الصابرين وان كان فى السراء كان من الشاكرين ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ ﴾ عطف على (يسكن) أى أو يهلكهن بارسال الريح العاصفة المغرقة ، والمراد على ما قال غير واحد اهلاك أهلها إما بتقدير مضاف أو بالتجوز باطلاق المحل على حاله أو بطريق الكناية لأنه يلزم من اهلاكها اهلاك من فيها والقرينة على ارادة ذلك قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ وأصله أو يرسلها أى الريح فيوبقهن لأنه قسيم يسكن فاقتصر فيه على المقصود من ارسالها عاصفة وهو إما اهلاكهم أو انجاؤهم المراد من قوله تعالى : ﴿ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ٣٤ ﴾ اذ المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا بذنوبهم وينج ناسا على طريق العفو عنهم وبهذا ظهر وجه جزم (يعف) لأنه بمعنى ينج معطوف على يوبق ، ويعلم وجه عطفه بالواو لأنه مندرج فى القسيم وهو ارسالها عاصفة، وعلى هذا التفسير تكون الآية متضمنة لاسكانها ولارسالها عاصفة مع الاهلاك والانجاء وارسالها باعتدال معلوم من قوله سبحانه الجوارى فانها المطلوب الاصلى منها٭

وقال بعض الاجلة: التحقيق أن (يعف) عطف على قوله تعالى : (يسكن الريح) الى قوله سبحانه: (بما كسبوا) ولذا عطف بالواو لا بأو والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالاسكان أو الاعصاف وإن يشأ يعف عن كثير ٭

وجوز بعضهم حمل (يوبقهن) على ظاهره لأن السفن من جملة أموالهم التى هلاكها والخسارة فيها بذنوبهم أيضا وجعل الآية مثل قوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة) ٭ الخ

وقرأ الاعمش (يعفو) بالواو الساكنة آخره على عطفه على مجموع الشرط والجواب دون الجواب وحده كما فى قراءة الجزم، وعن أهل المدينة أنهم قرؤا (يعفو) بالواو المفتوحة على أنه منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد الواو والعطف على هذه القراءة على مصدر متصيد من الكلام السابق كأنه قيل: يقع وهو من العطف على المعنى وهذا مذهب البصريين فى مثل ذلك وتسمى هذه الواو واو الصرف لصرفها عن عطف الفعل المجزوم قبلها الى عطف مصدر على مصدر، ومذهب الكوفيين ان الواو بمعنى أن المصدرية ناصبة للمضارع بنفسها٭

واختار الرضى أن الواو اما واو الحال والمصدر بعدها مبتدأ خبره مقدر والجملة حالية أو واو المعية وينصب بعدها الفعل لقصد الدلالة على معية الافعال كما أن الواو فى المفعول معه دالة على مصاحبة الاسماء فعدل به عن

الظاهر ليكون نصا فى معنى الجمعية، والمشهور اليوم على ألسنة المعربين مذهب البصريين وعليه خرج أبو حيان النصب فى هذه القراءة وكذا خرج غير واحد ومنهم الزجاج النصب فى قوله تعالى :

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ٣٥ ﴾ أى من مهرب ومخلص من العذاب على ذلك، وجعلوا الجزاء بمنزلة الانشاء كالاستفهام فكأنه تقدم أحد الأمور الستة ولم يرتض ذلك الزمخشرى وقال : فيه نظر لما أورده سيبويه فى الكتاب قال: واعلم أن النصب بالفاء والواو فى قوله : إن تأتنى آتك وأعطيك ضعيف وهو نحو من قوله : ٭ وألحق بالحجاز فأستريحا ٭ فهذا تجوز ولا يحد الكلام ولا وجهه إلا أنه فى الجزاء صار أقوى قليلا لأنه ليس بواجب أنه يفعل إلا أن يكون من الاول فعل فلما ضارع الذى لا يوجبه كالاستفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعف، ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحد الكلام ولا وجهه ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة انتهى، وخرج هو النصب فى (يعلم) على العطف على علة مقدرة قال: أى لينتقم منهم ويعلم الذين الخ، وكم من نظير له فى القرآن العظيم إلا أن ذلك مع وجود حرف التعليل كقوله تعالى : (ولنجعله آية للناس) وقوله سبحانه : (خلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت) ٭

وقال أبو حيان : يبعد هذا التقدير أنه ترتب على الشرط اهلاك قوم ونجاة قوم فلا يحسن لينتقم منهم٭ وأجيب بأن الآية مخصوصة بالمجرمين فالمقصود الهلاك ويجوز أن يقدر ليظهر عظيم قدرته تعالى ويعلم الذين يجادلون فلا يرد عليه ماذكر ويحسن ذلك التقدير فى توجيه النصب فى (يعفو) على ماروى عن أهل المدينة إذا خدش التوجيه السابق بما نقل عن سيبويه فيقال : إنه عطف على تعليل مقدر أى لينتقم منهم ويعفو عن كثير، وقراءة النصب فى (يعلم) هى التى قرأ بها أكثر السبعة ٭

وقرأ نافع . وابن عامر . وأبو جعفر . والاعرج . وشيبة . وزيد بن على بالرفع، وقرر فى الكشف وجهه بأنه على عطف يعلم على مجموع الجملة الشرطية على معنى ومن آياته الدالة على كمال القدرة السفن فى البحر ثم ذكر وجه الدلالة وأنها مسخرة تحت أمره سبحانه تارة بتضمن نفع من فيها وتارة بالعكس ثم قال جل وعلا ويعلم الذين يعاندون ولا يعترفون بآيات الله تعالى الباهرة بدل قوله سبحانه فيها بالضمير الراجع الى الآية المبحوث عنها شهادة بأنها من آيات الله تعالى وزيادة للتحذير وذم الجدال فيها وليكون على أسلوب الكناية على نحو العرب لا تخفر الذمم فكأنه لما قيل: إن يشأ يسكن الريح وذكر سبب الدلالة صار فى معنى يعلمها ويعترف بها المتدبرون فى آياتنا المسترشدون ويعلم المجادلون فيها المنكرون ما لهم من محيص، وجاز أن يجعل عطفا على قوله تعالى:(ومن ءاياته الجوار) وتجعل هذه وحدها آيات لتضمنها وجوها من الدلالة أقيمت مقام المضمر، والمعنى ومن آياته الجوار ويعلم المجادلون فيها، واعترض بين المعطوف والمعطوف عليه ببيان وجه الدلالة ليدل على موجب وعيد المجادل وعلى كونها آية بل آيات، ونقل عن ابن الحاجب أنه يجوز أن يكون الرفع بالعطف على موضع الجزاء المتقدم باعتبار كونه جملة لا باعتبار عطف مجرد الفعل ليجب الجزم فتكون الجملتان مشتركتين فى المسببية، وفيه بحث يعلم بما سيأتى ان شاء الله تعالى، وقرئ (ويعلم) بالجزم ٭

وخرج على العطف على (يعف) وتسببه عن الشرط باعتبار تضمن الاخبار عن علم المجادلين بما يحل بهم فى

المستقبل الوعيد والتحذير كما قيل :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

ومرجع المعنى على ذلك أنه تعالى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضا وينج آخرين عفوا ويحذر جماعة أخرى.

وأعترض بأن التخصيص بالمجادلين فى هذا التحذير غير لائح، وأيضا علمهم بأن لا محيص من عذاب الله تعالى على تقدير عصف الريح بأهل السفن على سبيل العبرة ولا اختصاص لها بهم ولا بهذا المقدور خاصة.

وأجيب عن الأول بأن التخصيص بالمجادلين لأنهم أولى بالتحذير، وعن الاخير بأنه أريد أن البر والبحر لا ينجيان من بأسه عز وجل فهو تعميم، واختار فى الكشف كون التخريج على أن الآية فى الكافرين بمعنى إن يشأ يعصف الريح فيغرق بعضهم وينج آخرين منهم عفوا ويعلموا مالهم من محيص فلا يغتروا بالنجاة والعفو فى هذه المرة ، فالمجادلون هم الكثير الناجون أو بعضهم وهو على منوال قوله تعالى (أم امنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى) الآية ، ومن مجموع ما سمعت يلوح لك ضعف هذه القراءة ولهذا لم يقرأ بها فى السبعة، والظاهر على القراءات الثلاث أن فاعل (يعلم الذين) وجملة (ما لهم من محيص) سادة مسد المفعولين. وفى الدر المصون أن الجملة فى قراءة الرفع تحتمل الفعلية وتحتمل الاسمية أى وهو يعلم الذين، ولا يخفى أن الظاهر على الاحتمال الثانى كون «الذين» مفعولا أولا والجملة مفعولا ثانيا والفاعل ضميره تعالى المستتر، وأوجب بعضهم هذا على قراءة الجزم وعطف «يعلم» على «يعف» لئلا يخرج الكلام عن الانتظام ويظهر قصد التحذير لشيوع أن علم الله تعالى يكون كناية عن المجازاة وهو كما ترى ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيء كان من أسباب الدنيا، والظاهر أن الخطاب للناس مطلقا، وقيل: للمشركين ، وما موصوله مبتدأ والعائد محذوف أى أوتيتموه والخبر ما بعد، ودخلت الفاء لتضمنها معنى الشرط، وقال أبو حيان: هى شرطية مفعول ثان لأوتيتم و(من شيء) بيان لها وقوله تعالى: ﴿ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم فيها جواب الشرط، والأول اوفق بقوله تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من ثواب الآخرة ﴿ خَيْرٌ ﴾ ذاتا لخلوص نفعه ﴿ وَأَبْقَى ﴾ زمانا حيث لا يزول ولا يفنى لأن الظاهر أن (ما) فيه موصولة وانما لم يؤت بالفاء فى خبرها مع أن الموصول المبتدأ إذا وصل بالظرف يتضمن معنى الشرط أيضا لأن مسببية كون الشيء عند الله تعالى لخيريته أمر معلوم مقرر غنى عن الدلالة عليه بحرف موضوع له بخلاف ماعند غيره سبحانه والتعبير عنه بانه عند الله تعالى دون ما ادخر لذلك ، وقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إما متعلق بابقى أو اللام لبيان من له هذه النعمة فهو خبر مبتدأ محذوف أى ذلك للذين امنوا.

﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾ لا على غيره تعالى أصلا، وعن على كرم الله تعالى وجهه اجتمع لأبى بكر رضى الله تعالى عنه مال فتصدق به كله فى سبيل الله تعالى فلامه المسلمون وخطأه الكافرون فنزلت، والموصول فى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٧ ﴾ مع ما بعده اما عطف على الموصول الأول أو هو مدح مرفوع على الخبرية لمبتدأ محذوف أو منصوب بمقدر كاعنى أو أمدح، والواو اعتراضية كما ذكره الرضى، وغفل أبو البقاء عن الواو فلم يذكر العطف وذكر بدله البدل، وكبائر الاثم مارتب عليه الوعيد أو مايوجب الحد أو كل مانهى الله تعالى عنه والفواحش مافحش وعظم قبحه منها ، وقيل : المراد بالكبائر مايتعلق

بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش مايتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله تعالى:(وإذاما غضبواهم يغفرون) مايتعلق بالقوة الغضبية وهو كما ترى ، والمراد بالاثم الجنس والاقيل الآثام،و(إذا) ظرف ليغفرون و «هم» مبتدأ لا تأكيد لضمير غضبوا وجوزه فى البحر وجملة يغفرون خبره وتقديمه لافادة الاختصاص لأنه فاعل معنوى، واختصاصهم باعتبار أنهم احقاء بذلك دون غيرهم فان المغفرة حال الغضب عزيزة المثال، وفى الآية ايماء إلى أنهم يغفرون قبل الاستغفار، وقيل (هم) مرفوع بفعل يفسره (يغفرون) ولما حذف انفصل الضمير وليس بشىء، وجعل أبو البقاء (إذا) شرطية وجملة (هم يغفرون) جوابا لها ، وتعقبه أبو حيان بأنه يلزم الفاء حينئذ ولا يجوز حذفها الافى الشعر، وتقدم لك آنفا ما ينفعك تذكره فتذكر ، وقرأ حمزة والكسائى «كبير الاثم» بالافراد لارادة الجنس أو الفرد الكامل منه وهو الشرك ، وروى تفسيره به عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما، ولا يلزم التكرار لأن المراد الاستمرار والدوام ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ قيل: نزلت فى الانصار دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ للايمان به وطاعته سبحانه فاستجابوا له فاثنى عليهم جل وعلا بما أثنى، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام لبيان شرفه لايمانهم دون تردد وتلعثم، والآية إن كانت مدنية فالامر ظاهر وإذا كانت مكية فالمراد بالانصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة أو المراد بهم أصحاب العقبة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ أى ذو شورى ومراجعة فى الآراء بينهم بناء على أن الشورى مصدر كالبشرى فلا يصح الاخبار لأن الامر متشاور فيه لا مشاورة الا إذا قصد المبالغة، وأورد أنه يقال من غير تأويل شأنى الكرم والامر هنا بمعنى الشأن. نعم إذا حمل على القضايا المتشاور فيها احتاج إلى التاويل أو قصد المبالغة ، وقيل : أن اضافة المصدر للعموم فلا يصح الاخبار الا بالتاويل ورد بأن المراد أمرهم فيما يتشاور فيه لا جميع أمورهم وفيه نظر ، وقال الراغب: المشورة استخراج الرأى بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم: شرت العسل وأشرته استخرجته والشورى الامر الذى يتشاور فيه انتهى، والمشهور كونه مصدرا، وجىء بالجملة اسمية مع أن المعطوف عليه جملة فعلية للدلالة على أن التشاور كان حالهم المستمرة قبل الاسلام وبعده ، وفى الآية مدح للتشاور لاسيما على القول بان فيها الاخبار بالمصدر ، وقد أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما عن النبى ﷺ قال: من اراد امرا فشاور فيه وقضى هدى لأرشد الامور، وأخرج عبد بن حميد والبخارى فى الادب وابن المنذر عن الحسن قال: ماتشاور قوم قط الاهدوا وأرشد امرهم ثم تلا (وأمرهم شورى بينهم) ، وقد كانت الشورى بين النبى ﷺ وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضى الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام ، وكانت بينهم أيضا فى الاحكام كقتال أهل الردة وميراث الجد وعدد حد الخمر وغير ذلك، والمراد بالاحكام مالم يكن لهم فيه نص شرعى والا فالشورى لامعنى لها وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال والله سبحانه هو الحكيم الخبير، ويؤيد ماقلنا ماأخرجه الخطيب عن على كرم الله تعالى وجهه قال: قلت يارسول الله الامر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يسمع منك فيه شىء قال: اجمعوا له العابد من أمتى واجعلوه بينكم شورى ولاتقضوه برأى واحد، وينبغى أن يكون المستشار عاقلا كما ينبغى أن يكون عابدا ، فقد أخرج الخطيب أيضا عن أبى هريرة مرفوعا «استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » والشورى على الوجه الذى ذكرناه من جملة أسباب صلاح الارض ففى الحديث إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم أسخياءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الارض

خير لكم من بطنها وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الارض خير لكم من ظهرها، وإذا لم تكن على ذلك الوجه كان افسادها للدين والدنيا أكثر من اصلاحها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٨ ﴾ أى فى سبيل الخير لأنه مسوق للمدح ولا مدح بمجرد الانفاق، ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لأن الاستجابة لله تعالى واقام الصلاة كانا من آثارها، وقيل: لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات *

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ٣٩ ﴾ أى ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون، ومعنى الاختصاص انهم الاخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز، ولا يراد انهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو والسابق، فكأنه وصفهم سبحانه بأنهم الاخصاء بالغفران لا يغول الغضب احلامهم كما يغول فى غيرهم وانهم الاخصاء بالانتصار على ماجوز لهم إن كافؤا ولا يعتدون كغيرهم فهم محمودون فى الحالتين بين حسن وأحسن مخصوصون بذلك من بين الناس، وقال غير واحد: إن كلا من الوصفين فى محل وهو فيه محمود فالعفو عن العاجز المعترف بجرمه محمود ولفظ المغفرة مشعر به والانتصار من المخاصم المصر محمود، ولفظ الانتصار مشعر به ولو أوقعا على عكس ذلك كانا مذمومين وعلى هذا جاء قوله:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقد يحمد كل ويذم باعتبارات أخر فلا تناقض أيضا سواء اتحد الموصوفان فى الجملتين أولا، وقال بعض المحققين: الاوجه أن لا يحمل الكلام على التخصيص بل على التقوى أى يفعلون المغفرة تارة والانتصار اخرى لا دائما للتناقض وليس بذاك، وعن النخعى أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق، وفيه ايماء إلى أن الانتصار من المخاصم المصر والافلا اذ لال للنفس بالعفو عن العاجز المعترف، ثم إن جملة (هم ينتصرون) من المبتدا والخبر صلة الموصول و(إذا) ظرف (ينتصرون) وجوز كونها شرطية والجملة جواب الشرط وجملة الجواب والشرط هى الصلة. وتعقبه أبو حيان بما مر آنفا، وجوز أيضا كون (هم) فاعلا لمحذوف وهو كما سمعت فى (وإذا ما غضبوا) الخ، وقال الحوفى: يجوز جعل (هم) توكيداً لضمير (أصابهم) وفيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بالفاعل ولعله لا يمتنع، ومع هذا فالوجه فى الاعراب ما أشرنا اليه أولا ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهى الجزاء سيئة قيل للمشاكلة، وقال جار الله: تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء من تنزل به، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ واشارة إلى أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة وهى عسرة ففى مساقها حث على العفو من طريق الاحتياط، وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ أى عن المسىء اليه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما بينه وبين من يعاديه بالعفو والاغضاء عما صدر منه ﴿ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فيجزيه جل وعلا اعظم الجزاء، تصريح بما لوح اليه ذلك من الحث وتنبيه على أنه وإن كان سلوكا لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك اصلاح ذات البين المحمود حالا ومآلا ليكون زيادة تحريض عليه، وابهام الاجر وجعله حقا على العظيم الكريم جل شأنه الدال على عظمه زيادة فى الترغيب، وجىء بالفاء ليفرعه عن السابق أى إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون العثار فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق

المأمون العثار المحمود فى الدارين ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠ ﴾ المتجاوزين الحد فى الانتقام ، تتميم لذلك المعنى وتصريح بما ضمن من عسر رعاية طريق المماثلة وأنه قلما تخلو عن الاعتداء والتجاوز لاسيما فى حال الحرد والتهاب الحمية فيكون دخولا فى زمرة من لايحبه الله تعالى ، ولاحاجة على هذا المعنى إلى جعل (فمن عفا) الخ اعتراضا ، ثم لو كان كذلك بأن يكون هذا متعلقا بجزاء سيئة سيئة مثلها على أنه تعليل لما يفهم منه فالفاء غير مانعة عنه كما توهم ، وأدخل غير واحد المبتدئين بالسيئة فى الظالمين ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ بعد ماظلم بالبناء للمجهول ، وقرىء به فالمصدر مضاف لمفعوله اوهو مصدر المبنى للمفعول واللام للقسم ، وجوز أن تكون لام الابتداء جىء بها للتوكيد و (من) شرطية او موصولة وحمل انتصر على لفظها وحمل ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤١ ﴾ أى للمعاقب ولا للعاتب والعائب على معناها ، والجملة عطف على (من عفا) وجىء بها للتصريح بأن ماحض عليه إنما حض عليه ارشادا إلى الاصلح فى الاغلب لا أن المنتصر عليه سبيل بوجه حالا اومآلا ، ولايهام الحض خلاف ماتضمنته من نفى السبيل على العموم صدرت باللام، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ تعيين لمن عليه السبيل بعد نفى ذلك عن المنتصرين، والمراد بالذين يظلمون الناس من يبتدؤنهم بالظلم اويزيدون فى الانتقام ويتجاوزون ماحدلهم ، وفسر ذلك بعضهم بالذين يفعلون بهم مالا يستحقونه وهو أعم *

﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى يتكبرون فيها تجبراً وفساداً ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بالظلم والبغى بغير الحق ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ ﴾ بسبب ظلمهم وبغيهم ، والمراد بهؤلاء الظالمين الباغين الكفرة ، وقيل : من يعمهم وغيرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ ﴾ تحذير عن الظلم والبغى ومايؤدى إلى العذاب الأليم بوجه،وفيه حض على ماحض عليه أولا اهتماما به وزيادة ترغيب فيه ، فالصبر هنا هو الاصلاح المؤخر فيما تقدم قدم ههنا ، وعبر عنه بالصبر لأنه من شأن أولى العزم وإشارة إلى أن الاصلاح بالعفو والاغضاء إنما يحمد إذا كان عن قدرة لا عن عجز ، و « ذلك » إشارة إلى المذكور من الصبر والمغفرة، و (عزم الأمور) الأمور المعزومة المقطوعة أو العازمة الصادقة، وجوز فى (من) أن تكون موصولة وأن تكون شرطية. وفى اللام أن تكون ابتدائية وأن تكون قسمية وا كتفى بجواب القسم عن جواب الشرط، وإذا جعلت اللام للابتداء و (من) شرطية فجملة (إن ذلك) جواب الشرط وحذفت الفاء منها ، ومن يخص الحذف بالشعر لايجوز هذا الوجه ، وذكر جماعة أن فى الكلام حذفا أى إن ذلك منه لمن عزم الأمور، وعلل ذلك بأن الجملة خبر فلا بد فيها من رابط و (ذلك) لايصلح له لأنه إشارة إلى الصبر والمغفرة ، وكونه مغنيا عنه لأن المراد صبره أو (ذلك) رابط والاشارة لمن بتقدير من ذوى عزم الأمور تكلف *

هذا واختار العلامة الطيبى أن تسمية الفعلة الثانية التى هى الجزاء سيئة من باب التهجين دون المشاكلة ، وزعم أن المجازى مسىء وبنى على ذلك ربط جملة (إنه لايحب الظالمين) بما قبل فقال : يمكن أن يقال لما نسب المجازى إلى المساءة فى قوله سبحانه : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) والمسىء فى هذا المقام مفسداً لما فى البين بدليل (فمن عفا وأصلح) علل مفهوم ذلك بقوله سبحانه : (إنه لايحب الظالمين) كأنه قيل : من أخرج نفسه

بالعفو والاصلاح من الانتساب إلى السيئة والافساد كان مقسطا إن الله يحب المقسطين فوضع موضعه (فأجره على الله) ومن اشتغل بالمجازاة وانتسب إلى السيئة وأفسد مافى البين وحرم نفسه ذلك الأجر الجزيل كان ظالما نفسه (إنه لايحب الظالمين) فالآية واردة إرشاداً للمظلوم إلى مكارم الأخلاق وإيثار طريق المرسلين.

وقال: إن قوله تعالى: (ولمن انتصر بعد ظلمه) الخ خطاب للولاة والحكام وتعليم فعل ماينبغى فعله بدليل قوله سبحانه: «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس» حيث أعاد السبيل المنكر بالتعريف وعلق به «يظلمون الناس» وفسره بقوله تعالى: «عذاب أليم» وكذا قوله سبحانه: «ولمن صبر وغفر» الخ تعليم لهم أيضا طريق الحكم يعنى أن صاحب الحق اذا عدل من الأولى وانتصر من الظالم فلا سبيل لكم عليه لما قد رخص له ذلك واذا اختار الافضل فلا سبيل لكم على الظالم لأن عفو المظلوم من عزم الأمور فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان انتهى، ولا يخفى مافيه.

وفى الكشف أن جعل ماذكر خطابا للولاة والحكام يوجب التعقيد فى الكلام فالمعول عليه ماقدمناه، وقد جاءت أخبار كثيرة فى فضل العافين عمن ظلمهم، أخرج البيهقى فى شعب الايمان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «قال موسى ابن عمران عليه الصلاة والسلام يارب من أعز عبادك عندك؟ قال: من إذا قدر غفر» وأخرج ابن أبى حاتم. وابن مردويه. والبيهقى فى الشعب عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا وقف العباد للحساب نادى مناد ليقم من أجره على الله تعالى فليدخل الجنة ثم نادى الثانية ليقم من أجره على الله تعالى قالوا: ومن ذا الذى أجره على الله تعالى؟ قال: العافون عن الناس فقام كذا وكذا الفا فدخلوا الجنة بغير حساب».

وأخرج أحمد. وأبو داود عن أبى هريرة أن رجلا شتم أبا بكر رضى الله تعالى عنه والنبى ﷺ جالس فجعل عليه الصلاة والسلام يعجب ويتبسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله: فغضب النبى ﷺ وقام فلحقه أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقال: يارسول الله كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت قال: إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله: وقع الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث من الحق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها لله تعالى الا أعز الله عز وجل بها نصره وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله تعالى بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة الا زاده الله تعالى بها قلة» واستشكل هذا الخبر بأنه يشعر بعتب أبى بكر رضى الله تعالى عنه وهو نوع من السبيل المنفى فى قوله تعالى: «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل» وأجيب بأنا لانسلم ذلك وليس فيه أكثر من تنبيهه رضى الله تعالى عنه على ترك الاولى وهو شىء والعتب شىء آخر، وكذا لا يعدلو ما كالا يخفى.

ومن الناس من خص السبيل فى الآية بالاثم والعقاب فلا إشكال عليه أصلا، وقيل: هو باق على العموم الا أن الآية فى عوام المؤمنين ومن لم يبلغ مبلغ أبى بكر رضى الله تعالى عنه فان مثله يلام بالشتم وان كان بحق بحضرة رسول الله ﷺ قبل أن يأذن له به قالا أو حالا بل لاح عليه صلى الله تعالى عليه وسلم مايشعر باستحسان السكوت عنه وحسنات الأبرار سيآت المقربين.

وقد أمر صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الاشخاص برد الشتم على الشاتم، أخرج النسائى. وابن ماجه.

وابن مردويه. عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت. دخلت على زينب رضى الله تعالى عنها وعندى رسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبلت على تسبنى فوزعها النبى عليه الصلاة والسلام فلم تنته فقال لى: سبيها فسببتها حتى جف ريقها فى فمها ووجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتهلل سرورا، ولعله كان هذا منه عليه الصلاة والسلام تعزيرا لزينب رضى الله تعالى عنها بلسان عائشة رضى الله تعالى عنها لما أن لها حقا فى الرد ورأى المصلحة فى ذلك وقد ذكر فقهاؤنا أن للقاضى أن يعزر من استحق التعزير بشتم غير القذف وكذا للزوج أن يعزر زوجته على شتمها غير محرم الى أمور أخر فتأمل *

وظاهر قوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) يقتضى رعاية المماثلة مطلقا، وفى تفسير الامام أن الآية تقتضى وجوب رعاية المماثلة فى كل الامور الا فيما خصه الدليل لأنه لو حملت المماثلة فيها على المماثلة فى أمر معين فهو غير مذكور فيها فيلزم الاجمال وعلى ما قلنا يلزم تحمل التخصيص ومعلوم أن دفع الاجمال أولى من دفع التخصيص *

والفقهاء أدخلوا التخصيص فيها فى صور كثيرة تارة بناء على نص آخر أخص وأخرى بناء على القياس، ولا شك أن من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بها فى جميع المطالب *

وعن مجاهد. والسدى اذا قال له: أخزاه الله تعالى فليقل أخزاه الله تعالى واذا قذفه قذفا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله تعالى به، ونقل أبو حيان عن الجمهور انهم قالوا اذا بغى مؤمن على مؤمن فلا يجوز له أن ينتصر منه بنفسه بل يرفع ذلك الى الامام أو نائبه، وفى مجمع الفتاوى جاز المجازاة بمثله فى غير موجب حد للاذن به «ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل» والعفو افضل (فمن عفا وأصلح فاجره على الله) وقال ابن الهمام: الاولى أن الانسان اذا قيل له ما يوجب التعزير أن لا يجيبه قالوا: لو قال له: ياخبيث الاحسن أن يكف عنه ويرفعه الى القاضى ليؤدبه بحضوره ولو أجاب مع هذا فقال: بل أنت لا بأس *

وفى التنوير وشرحه ضرب غيره بغير حق وضربه المضروب أيضا يعزران كما لو تشاتما بين يدى القاضى ولم يتكافآ، وأنت تعلم ما يقتضيه ظاهر الآية ولا يعدل عنه الا لنص، وظاهر كلام العلامة الطيبى ان المظلوم اذا عفا لا يلزم الظالم التعزير بضرب أو حبس أو نحوه، وذكر فقهاؤنا أن التعزير يغلب فيه حق العبد فيجوز فيه الابراء والعفو واليمين والشهادة على الشهادة وشهادة رجل وامرأتين ويكون أيضا حقا لله تعالى فلا عفو فيه الا اذا علم الامام انزجار الفاعل الى آخر ما قالوا، ويترجح عندى ان الامام متى رأى بعد التأمل والتجرد عن حظوظ النفس ترك التعزير للعفو سببا للفساد والتجاسر على التعدى وتجاوز الحدود عزر بما تقتضيه المصلحة العامة وليبذل وسعه فيما فيه اصلاح الدين وانتظام أمور المسلمين واياه أن يتبع الهوى فيضل عن الصراط المستقيم *

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى ماله من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله تعالى اياه فضمير «بعده» لله تعالى بتقدير مضاف فيه، وقيل للخذلان المفهوم من (يضلل) والجملة عطف على قوله تعالى: (أولئك لهم عذاب أليم) وكنى بمن عن الظالم الباغى تسجيلا بانه ضال مخذول أو أتى به مبهما ليشمله شمولا أوليا فقوله سبحانه: «ولمن صبر» الخ اعتراض لما أشرنا اليه ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى حين يرونه، وصيغة الماضى للدلالة على التحقق ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ ﴾ أى رجعة الى الدنيا ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤ ﴾ حتى نؤمن ونعمل صالحا، وجوز أن يكون المعنى هل الى رد للعذاب ومنع منه من سبيل، وتنكير (مرد) وكذا (سبيل) للمبالغة والجملة حال وقيل مفعول ثان لترى *

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى على النار المدلول عليها بالعذاب، والجملة كالسابقة ﴿ خَاشِعِينَ ﴾ متضائلين متقاصرين ﴿ مِنَ الذُّلِّ ﴾ أى بسبب الذل لعظم ما لحقهم فمن سببية متعلقة بخاشعين وهو وكذا مابعده حال * وجوز أن يعلق الجار بقوله تعالى: ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ويوقف على (خاشعين) ﴿ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ والاول أظهر، والطرف مصدر طرف اذا حرك عينه ومنه طرفة العين، والمراد بالخفى الضعيف، ومن ابتدائية أى يبتدىء نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف بمسارقة كما ترى المصبور ينظر الى السيف وهكذا نظر الناظر الى المكاره لايقدر أن يفتح اجفانه عليها ويملأ عينيه منها كما يفعل فى نظره الى المحاب، ويجوز أن تكون من بمعنى الباء *

وعن ابن عباس (خفى) ذليل فالطرف عليه جفن العين، وقيل: يحشرون عميا فلا ينظرون الا بقلوبهم وذلك نظر من طرف خفى، وهو تأويل متكلف، والجملتان السابقتان أعنى (ترى الظالمين. وتراهم يعرضون) معطوفان على (ومن يضلل) وأصل الكلام والظالمون لما رأوا العذاب يقولون وهم يعرضون عليها خاشعين، ثم قيل (وترى وتراهم) خطابا لكل من يتأتى منه الرؤية ويعتبر بحالهم زيادة للتهويل كأنه يعجبهم مما هم فيه ليعتبروا ويبتهجوا، ومنه يظهر أنه خطاب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأتباعه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أنهم ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ بالتعريض للعذاب الخالد أو على ما مر فى الزمر، وعدل عن انهم الى الذيل تسجيلا عليهم بأكمل الخسران اذ المراد أن الكاملين فى صفة الخسران المتصفين بحقيقته ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ متعلق بخسروا والقول فى الدنيا، وجوز أن يكون متعلقا بقال، والماضى لتحقق الوقوع أى ويقولون اذا رأوهم على تلك الصفة. وفى الكشف الظاهر أنه قول يوم القيامة كالخسران من باب التنازع بين الفعلين، وآثر صاحب الكشاف على ما يؤذن به صنيعه أن يتعلق بالخسران وحده لأن الأصل فى (قال الذين آمنوا إن الخاسرين) الخ هم الخاسرون كما أن الاصل فى (وترى الظالمين) والظالمون لما رأوا ثم قيل: (وقال الذين آمنوا) على نحو ماقيل (وترى) الخ وكما أن الرؤية رؤية الدنيا استحضاراً لعذابهم الكائن فى الآخرة تهويلا كذلك القول كأنهم جعلهم حضورا يعاين عذابهم ويسمع ما يقول المؤمنون فيهم ورد على الخطاب فى الرؤية والغيبة فى القول لأن معاينة العذاب لما كانت أدخل فى التهويل جعل العذاب قريبا مشاهدا وخصوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج ولم يكن فى الخسران ذلك المعنى لأنه أمر معقول والمحسوسات أقوى لاسيما اذا كن موجبات الخسران فجىء به على الاصل من الغيبة، وعدله من المضارع الى الماضى لأنه قول صادر عن مقتضى الحال قد حق ووقع تفوهوا به أولا وأسند الى المؤمنين دلالة على الابتهاج المذكور واغتباطهم بنجاتهم عماهم فيه والا فالقول والرؤية لكل من يتأتى منه القول والرؤية، وجعله حالا كما فعل الطيبى على معنى وتراهم وقد صدق فيهم قول المؤمنين فى الدنيا ان الخاسرين الخ من أسلوب قوله:

* اذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * وفيه انه انما يرتكب عند تعذر الحقيقة وقد أمكن الحمل على التنازع فلا تعذر *

ثم أنه على التقدير لا يظهر أنه قول فيها الا بدليل خارج، وهذا بخلاف ماذكره جار الله فى قوله تعالى: (وقد قدمت اليكم بالوعيد) من تقدير وقد صح عندكم انى قدمت لأن فى اللفظ اشعارا به بينا انتهى، ولعمرى لقد أبعد قدس سره المغزى فى هذه الآيات العظام وأتى بما تستحسنه النظار من ذى الافهام فليفهم، وقوله تعالى:

﴿ألَا إنَّ الظَّالمينَ فى عَذَاب مُقيمٍ ٤٥﴾ إما من تمام كلام المؤمنين ويجرى فيه ماسمعت من الأصل ونكتة العدول أو استئناف اخبار منه تعالى تصديقا لذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ منْ أَوْليَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ﴾ برفع العذاب عنهم ﴿مِنْ دُون الله﴾ حسبما يزعمون ﴿وَمَنْ يُضْلل اللهُ فَمَالَهُ منْ سَبيل ٤٦﴾ الى الهدى أو النجاة، وقيل: المراد ماله من حجة ﴿اسْتَجيبُوا لرَبِّكُمْ﴾ اذا دعاكم لما به النجاة على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿منْ قَبْل أَنْ يَأْتىَ يَومٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ منَ الله﴾ الجار والمجرور اما متعلق بمرد ويعامل اسم لا الشبيه بالمضاف معاملته فيترك تنوينه كما نص عليه ابن مالك فى التسهيل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لامانع لما أعطيت» وقوله تعالى: (لا تثريب عليكم اليوم) أى لايرده الله تعالى بعد ما حكم به *

ومن لم يرض بذلك قال: هو خبر لمبتدا محذوف أى ذلك من الله تعالى، والجملة استئناف فى جواب سؤال مقدر تقديره ممن ذلك؟ أو حال من الضمير المستتر فى الظرف الواقع خبر لا أو متعلق بالنفى او بمادل عليه كما قيل فى قوله تعالى: (ماأنت بنعمة ربك بمجنون) وقيل: هو متعلق بيأتى، وتعقب بأنه خلاف المتبادر من اللفظ والمعنى، وقيل: هو مع ذلك قليل الفائدة، وجوز كونه صفة ليوم، وتعقب بأنه ركيك معنى، والظاهر أن المراد بذلك اليوم يوم القيامة لايوم ورود الموت كما قيل ﴿مَالَكُمْ منْ مَلْجَأٍ يَوْمَئذ﴾ أى ملاذ تلتجئون اليه فتخلصون من العذاب على أن (ملجأ) اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدرا ميميا ﴿وَمَالَكُمْ منْ نَكير ٤٧﴾ انكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس ونفى ذلك مع قوله تعالى حكاية عنهم: (والله ربنا ما كنا مشركين) تنزيلا لما يقع من انكارهم منزلة العدم لعدم نفعه وقيام الحجة وشهادة الجوارح عليهم أو يقال أن الامرين باعتبار تعدد الاحوال والمواقف، وجوز أن يكون (نكير) اسم فاعل للمبالغة أى مالكم منكر لاحوالكم غير مميز لها بل يرحمكم وهو كما ترى ﴿فَانْ أعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهمْ حَفيظاً﴾ تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له إلى الرسول ﷺ أى فان لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم اليه فلا تهتم بهم فما أرسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم ﴿إنْ عَلَيْكَ﴾ أى ماعليك ﴿الاَّ الْبَلاَغُ﴾ لا الحفظ وقد فعلت *

﴿وَانَّا اذا أَذَقْنَا الانْسَانَ منَّا رَحْمَةً﴾ أى نعمة من الصحة والغنى والامن ونحوها ﴿فَرحَ بهَا﴾ أريد بالانسان الجنس الشامل للجميع وهو حينئذ بمعنى الاناسى أو الناس ولذا جمع ضميره فى قوله سبحانه: ﴿وَانْ تُصبْهُمْ﴾ وليست للاستغراق والجمعية لاتتوقف عليه فكأنه قيل: وإن تصب الناس أو الاناسى ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بلاء من مرض وفقر وخوف وغيرها ﴿بمَا قَدَّمَتْ أَيْديهمْ﴾ بسبب ماصدر منهم من السيئات ﴿فَانَّ الانْسَانَ كَفُورٌ ٤٨﴾ بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا ويذكر البلية ويستعظمها ولا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته من غير استحقاق لها *

وأل فيه أيضا للجنس، وقيل: هى فيهما للعهد على أن المراد المجرمون، وقيل: هى فى الأول للجنس وفى الثانى للعهد، وقال الزمخشرى: أراد بالانسان الجمع لا الواحد لمكان ضمير الجمع ولم يرد الا المجرمين لأن اصابة السيئة بما قدمت أيديهم إنما يستقيم فيهم، ثم قال: ولم يقل فانه لكفور ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم كما قال سبحانه: (إن الانسان لظلوم كفار. إن الانسان لربه لكنود) ففهم منه العلامة الطيبي أنها فى الأول للعهد

وأن المراد الكفار المخاطبون فى قوله تعالى: استجيبوا لربكم (لترتب) فان أعرضوا (عليه)، ووضع المظهر موضع المضمر للاشعار بتصميمهم على الكفران والايذان بأنهم لا يرعوون بما هم فيه وانها فى الثانى للجنس ليكون المعنى ليس ببدع من هذا الانسان المعهود الاصرار لأن هذا الجنس موسوم بكفران النعم فيكون ذم المطلق دليلا على ذم المقيد، وفى الكشف أنه أراد أن الانسان أى الأول للجنس الصالح للكل وللبعض وإذا قام دليل على ارادة البعض تعين وقدقام لما سلف أن الاصابة فى غير المجرمين للعوض الموفى ولم يذهب إلى أن اللام للعهد وجعل قوله تعالى: (فان الانسان كفور) للجنس ليكون تعليلا للمقيد بطريق الأولى ومطابقا لما جاء فى مواضع عديدة من الكتاب العزيز، ولا بأس بأن يجعل اشارة إلى السالف فانه للجنس أيضا، ويكون فى وضع المظهر موضع المضمر الفائدة المذكورة مرارا بل هو أدل على القانون الممهد فى الاصول ويكون كليهما للجنس أقول، واسناد الكفران مع أنه صفة الكفرة إلى الجنس لغلبتهم فهو مجاز عقلى حيث أسند إلى الجنس حال أغلب افراده لملابسته الاغلبية، ويجوز أن يعتبر أغلب الافراد عين الجنس لغلبتهم على غيرهم فيكون المجاز لغويا، وكذا يقال فى اسناد الفرح إذا كان بمعنى البطر فانه أيضا من صفات الكفرة بل إن كان أيضا بمعناه المعروف وهو انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك فى اللذات البدنية الدنيوية فانه وإن لم يكن من خواص الكفار بل يكون فى المؤمنين أيضا اضطرارا أو شكرا الا أنه لا يعم جميع افراد الجنس وان قلت بعمومه لم تحتج الى ذلك كما اذا فسرته بالبطر على ارادة العهد فى الانسان، واصابة السيئة بالذنوب غير عامة للافراد أيضا فحال اسنادها يعلم مما ذكرنا، وتصدير الشرطية الأولى باذا مع اسناد الاذاقة بلفظ الماضى إلى نون العظمة للتنبيه على أن إيصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع وأنه مراد بالذات من الجواد المطلق سبحانه وتعالى كما أن تصدير الثانية بإن واسناد الاصابة بلفظ المضارع إلى السيئة وتعليلها بأعمالهم للايذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الارادة بالذات والقصد الأولى، وإقامة علة الجزاء مقام الجزاء مبالغة فى ذمهم.

﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا لغيره سبحانه اشتراكا أو استقلالا ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من غير وجوب عليه سبحانه ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ استئناف بيانى أو بيان ليخلق أو بدل منه بدل البعض على ما اختاره القاضى، ولما ذكر سبحانه إذاقة الانسان الرحمة واصابته بضدها أتبع جل وعلا ذلك أن له سبحانه الملك وأنه تعالى يقسم النعمة والبلاء كما شاء بحكمته تعالى البالغة لا كما شاء الانسان بهواه، وفيه اشارة إلى أن إذاقة الرحمة ليست للفرح والبطر بل للشكر لموليها واصابة المحنة ليست للكفران والجزع بل للرجوع إلى مبليها، وتأكيد لانكار كفرانهم من وجهين. الاول أن الملك ملكه سبحانه من غير منازع ومشارك يتصرف فيه كيف يشاء فليس على من هو أحقر جزء من ملكه تعالى أن يعترض ويريد أن يجرى التدبير حسب هواه الفاسد. الثانى أن هذا الملك الواسع لذلك العزيز الحكيم جل جلاله الذى من شأنه أن يخلق ما يشاء فأنى يجوز أن يكون تصرفه الاعلى وجه لا يتصور أكمل منه ولا أوفق لمقتضى الحكمة والصواب، وعند ذلك لا يبقى الا التسليم والشغل بتعظيم المنعم المبلى عن الكفران والاعجاب، وناسب هذا المساق أن يدل فى البيان من أول الامر على أنه تعالى فعل لمحض مشيئته سبحانه لا مدخل لمشيئة العبد فيه فلذا قدمت الاناث وأخرت الذكور كأنه قيل: يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء من الاناسي ما لا يهواه ويهب لمن يشاء

منهم مايهواه فقد كانت العرب تعد الاناث بلاء (وإذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) ولو قدم المؤخر لاختل النظم ، وليس التقديم لمجرد رعاية مناسبة القرب من البلاء ليعارض بأن الآية السابقة ذكرت الرحمة فيها مقدمة عليه فناسب ذلك تقديم الذكور على الاناث ، وفى تعريف الذكور مع مافيه من الاستدراك لقضية التأخير التنبيه على أنه المعروف الحاضر فى قلوبهم أول كل خاطر وأنه الذى عقدوا عليه مناهم ، ولماقضى الوطر من هذا الاسلوب قيل : (أو يزوجهم) أى الاولاد (ذكرانا وإناثا) أى يخلق مايهبهم زوجا لأن التزويج جعل الشئ زوجا فذكرانا وأناثا حال من الضمير ، والواو قيل للمعية لأن حقه التأخير عن القسمين سياقا ووجودا فلا تتأتى المقارنة الابذلك ، وقيل ذلك لأن المراد يهب لمن يشاء مالا يهواه ويهب لمن يشاء مايهواه أو يهب الامرين معا لا أنه سبحانه يجعل من كل من الجنسين الذكور والاناث على حياله زوجا ولولا ذلك لتوهم ماذكر فتأمله ، ولتركبه منهما لم يكرر فيه حديث المشيئة ، وقدم المقدم على ماهو عليه فى الاصل ولم يعرف إذ لاوجه له ، ثم قيل : (ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له فقيد بالمشيئة لأنه قسم آخر ، وكأنه جىء بأو فى (أو يزوجهم) دون الواو كما فى سابقه من حيث أنه قسيم الانفراد المشترك بين الاولين ولم يؤت فى الاخير لاتضاحه بأنه قسيم الهبة المشتركة بين الاقسام المتقدمة فتأمل ، وقيل : قدم الاناث توصية برعايتهن لضعفهن لاسيما وكانوا قريبي العهد بالوأد ، وفى الحديث « من ابتلى بشىء من هذه البنات فأحسن اليهن كن له سترا من النار » وقيل : قدمت لأنها أكثر لتكثير النسل فهى من هذا الوجه أنسب بالخالق المراد بيانه ، وقيل : لتطييب قلوب آبائهن لما فى تقديمن من التشريف لأنهن سبب لتكثير مخلوقاته تعالى ، وقال الثعالبي : إنه اشارة إلى مافى تقدم ولادتهن من اليمن حتى أن أول مولود ذكر يكون مشؤما فيقولون له بكر بكرين ، وعن قتادة من يمن المرأة تبكيرها بأنثى ، وقيل : قدمت وأخر الذكور معرفا للمحافظة على الفواصل ، والمناسب للسياق ماعلمت سابقا ، وقال مجاهد فى (أو يزوجهم) التزويج أن تلد المرأة غلاما ثم تلد جارية ، وقال محمد بن الحنفية رضى الله تعالى عنهما : هو أن تلد توأما غلاما وجارية . وزعم بعضهم أن الآية نزلت فى الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وهب سبحانه لشعيب ولوط عليهم السلام اناثا ولابراهيم عليه السلام ذكورا ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ذكورا واناثا وجعل عيسى ويحيى عليهما السلام عقيمين اه ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥ ﴾ مبالغ جل شأنه فى العلم والقدرة فيفعل مايفعل بحكمة واختيار ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾ أى ماصح لفرد من افراد البشر *

﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ ظاهره حصر التكليم فى ثلاثة اقسام . الاول الوحى وهو المراد بقوله تعالى : (الاوحيا) وفسره بعضهم بالالقاء فى القلب سواء كان فى اليقظة أوفى المنام والالقاء أعم من الالهام فان ايحاء أم موسى إلهام وإيحاء ابراهيم عليه السلام القاء فى المنام وليس إلهاما وايحاء الزبور إلقاء فى اليقظة كما روى عن مجاهد وليس بالهام ، والفرق أن الالهام لا يستدعى صورة كلام نفسانى فقد وقد وأما اللفظى فلا ، وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه ، وقد جاء اطلاق الوحى على الالقاء فى القلب فى قول عبيد بن الابرص :

وأوحى إلى الله أن قد تأمروا بابل أبى أوفى فقمت على رجلى

فانه أراد قذف فى قلبى . والثانى اسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان لموسى وكذا

الملائكة الذين كلمهم الله تعالى فى قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم وهو المراد بقوله سبحانه (أومن وراء حجاب) فانه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه . والثالث ارسال الملك كالغالب من حال نبينا ﷺ وهو حال كثير من الانبياء عليهم السلام ، وزعم أنه من خصوصيات أولى العزم من المرسلين غير صحيح وهو المراد بقوله عز وجل : (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول إلى المرسل اليه الذى هو الرسول البشرى (باذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره سبحانه (ما يشاء) أن يوحيه ، وهذا يدل على أن المراد من الاول الوحى من الله تعالى بلا واسطة لأن ارسال الرسول جعل فيه ايحاء ذلك الرسول ، وبنى المعتزلى على هذا الحصر أن الرؤية غير جائزة لأنها لو صحت لصح التكليم مشافهة فلم يصح الحصر ، وقال بعض : المراد حصر التكليم فى الوحى بالمعنى المشهور والتكليم من وراء حجاب وتكليم الرسل البشريين مع أممهم ، واستبعد بأن العرف لم يطرد فى تسمية ذلك إيحاء ، وقال القاضى إن قوله تعالى (الا وحيا) معناه الا كلاما خفيا يدرك بسرعة وليس فى ذاته مركبا من حروف مقطعة وهو مايعم المشافهة كما روى فى حديث المعراج وماوعد به فى حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى عليه السلام فى الطور لكن عطف قوله تعالى : (أومن وراء حجاب) عليه يخصه بالاول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها ، وإلى الاول ذهب الزمخشرى وانتصر له صاحب الكشف عفا الله تعالى عنه فقال : وأما نحن فنقول والله تعالى أعلم : إن قوله تعالى : (وما كان لبشر) على التعميم يقتضى الحصر بوجه لايخص التكلم بالانبياء عليهم السلام ويدخل فيه خطاب مريم وما كان لأم موسى ومايقع للمحدثين من هذه الامة وغيرهم فحمل الوحى على ماذهب اليه الزمخشرى أولى . ثم أنه يلزم القاضى أن لايكون ماوقع من وراء حجاب وحيا لأنه يخصصه لأنه نظير قولك : ماكان لك أن تنعم الاعلى المساكين وزيد ، نعم يحتمل أن يكون زيد داخلا فيهم على نحو (ملائكته وجبريل) وهذا يضر القاضى لاقتضائه أن يكون هذا القسم أعنى ماوقع من وراء حجاب أعلا المراتب فلا يكون الثانى هو المشافهة ، وتقدير الاوحيا من غير حجاب أومن وراء حجاب خلاف الظاهر وفيه فك للنظم لقوله سبحانه : (أو يرسل) وهو عطف على قوله تعالى : (الا وحيا) مع كونه خلاف الظاهر *

وعلى هذا يفسد مابنى عليه من حديث التنزل من القسم الاعلى إلى مادونه ، ومع ذلك لايدل على عدم وقوع الرؤية فضلا عن جوازه بل دل على أنها لو وقعت لم يكن معها المكالمة وذلك هو الصحيح لأن الرؤية تستدعى الفناء والبقاء به عز وجل وهو يقتضى رفع حجاب المخاطب المستدعى كونا وجوديا ثم الكامل لتوفيته حق المقامات الكبرى يكون المحتظى منه بالشهود فى مقام البقاء المذكور ومع ذلك لايمنعه عن حظه من سماع الخطاب لأنه حظ القلب المحجوب عن مقام الشهود ، والمقصود أن الذى يصح ذوقا ونقلا وعقلا كون الخطاب من وراء حجاب البتة وهو صحيح لكن لاينفع منكر الرؤية ولا مثبتها ، وأما سؤال الترقى فى الاقسام فالجواب عنه أن الترقى حاصل بين الأول والثانى الذى له سمى الكليم كليما ، وأما الثالث فلما كان تكليما مجازيا أخر عن القسمين ولم ينظر إلى أنه أشرف من القسم الأول فان ذلك الامر غير راجع إلى التكليم بل لا . مخصوص بالانبياء عليهم السلام انتهى *

وتعقب ما اعترض به على القاضى بأنه لايرد لأن الوحى بذلك المعنى بالتخصيص المذكور والتقييد المأخوذ من التقابل صار مغايرا لما بعده وليس من شىء من القبيلين حتى يذهب الى الترقى أو التدلى لأنه لا يعطف

بأو بل بالواو كما لا يخفى، ولزوم أن لا يكون الواقع من وراء حجاب وحيا غير مسلم لأنه إن أراد أن لا يكون وحيا مطلقا فغير صحيح لأن قوله تعالى بعده :فيوحى بأذنه قرينة على أن المراد بالوحى السابق وحى مخصوص كالذى بعده وإن أراد أنه لا يكون من الوحى المخصوص السابق فلا يضره لأنه عين ماعناه، نعم الحصر على ما ذهب اليه القاضى غير ظاهر الا بعد ملاحظة أنه مخصوص بما كان بالكلام فتدبر، والظاهر أن عائشة رضى الله تعالى عنها حملت الآية على نحو ما حملها المعتزلة، أخرج البخارى ومسلم . والترمذى عنها أنها قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت (لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير . وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب) وأنت تعلم أن أكثر العلماء على أن النبي ﷺ رأى ربه سبحانه ليلة الاسراء لكثرة الروايات المصرحة بالرؤية نعم ليس فيها التصريح بأنها بالعين لكن الظاهر من الرؤية كونها بها، والمروى عن الاشعرى وجمع من المتكلمين أنه جل شأنه كلمه عليه الصلاة والسلام تلك الليلة بغير واسطة ويعزى ذلك الى جعفر بن محمد الباقر . وابن عباس . وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم وهو الظاهر للاحاديث الصحاح فى مراداة الصلاة واستقرار الخمسين على الخمس وغير ذلك، وعائشة رضى الله تعالى عنها لم تنف الرؤية الا اعتمادا على الاستنباط من الآيات ولو كان معها خبر لذكرته، واحتجاجها بما ذكر من الآيات غير تام، أما عدم تمامية احتجاجها بآية لا تدركه الابصار فمشهور، وأما عدم تمامية الاحتجاج بالآية الثانية فلما سمعت عن صاحب الكشف قدس سره، وقال الخفاجى بعد تقرير الاحتجاج بأنه تعالى حصر تكليمه سبحانه للبشر فى الثلاثة : فاذا لم يره جل وعلا من يكلمه سبحانه فى وقت الكلام لم يره عز وجل فى غيره بالطريق الاولى واذا لم يره تعالى هو أصلا لم يره سبحانه غيره اذ لا قائل بالفصل، وقد أجيب عنه فى الاصول بأنه يحتمل أن يكون المراد حصر التكليم فى الدنيا فى هذه الثلاثة أو نقول يجوز أن تقع الرؤية حال التكليم وحيا اذ الوحى كلام بسرعة وهو لا ينافى الرؤية انتهى ، ولا يخفى عليك أن الجواب الأول لا ينفع فيما نحن بصدده الا بالتزام أن ما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام تلك الليلة لا يعد تكليما فى الدنيا على ماذكره الشرنبلالى فى اكرام أولى الالباب لأنه كان فى الملكوت الاعلى وأنه يستفاد من كلام صاحب الكشف منع ظاهر للشرطية فى وجه الاستدلال الذى قرره، وبعضهم أجاب بأن العام مخصص بغير ما دليل وفى البحر قيل وقالت قريش: ألا تكلم الله تعالى وتنظر اليه إن كنت نبيا صادقا كما كلم جل وعلا موسى ونظر اليه تعالى فقال لهم الرسول ﷺ: «لم ينظر موسى عليه السلام الى الله عز وجل فنزلت (وما كان لبشر) الآية» وهذا ظاهر فى أن الآية لم تتضمن التكليم الشفاهى مع الرؤية وكذا ما فيه ايضا كان من الكفار خوض فى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام فذهبت قريش واليهود فى ذلك الى التجسيم فنزلت فان عدم تضمنها ذلك أدفع لتوهم التجسيم، وبالجملة الذى يترجح عندى ماقاله صاحب الكشف قدس سره أن الآية لا تنفع منكر الرؤية ولا مثبتها وماذكر من سبب النزول ليس بمتيقن الثبوت، ويفهم من كلام بعضهم أن الوحى كما يكون بالالقاء فى الروع يكون بالخط فقد قال النخعى كان فى الانبياء عليهم السلام من يخط له فى الارض، ومعناه اللغوى يشمل ذلك، فقد قال الامام أبو عبد الله التيمى الاصبهانى: الوحى أصله التفهيم وكل مافهم به شىء من الالهام والاشارة والكتب فهو وحى، وقال الراغب : أصل الوحى الاشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحى وذلك يكون بالكلام على الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وباشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى: (فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة) فقد

قيل رمز وقيل اعتبار وقيل كتب وجعل التسخير من الوحى أيضا وحمل عليه قوله تعالى: (وأوحى ربك الى النحل) وسيأتى ان شاء الله تعالى ما للصوفية قدست اسرارهم من الكلام فى هذه الآية، و «وحيا» على ما قال الزمخشرى مصدر واقع موقع الحال وكذا أن يرسل لأنه بتأويل ارسالا، و (من وراء حجاب) ظرف واقع موقع الحال أيضا كقوله تعالى: (وعلى جنوبهم) والتقدير وماصح أن يكلم احدا فى حال من الاحوال إلا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا. وتعقبه أبو حيان فقال: وقوع المصدر حالا لا ينقاس فلا يجوز جاء زيد بكاء تريد باكيا، وقاس منه المبرد ما كان نوعا للفعل نحو جاء زيد مشيا أو سرعة ومنع سيبويه من وقوع أن مع الفعل موقع الحال فلا يجوز جاء زيد أن يضحك فى معنى ضحكا الواقع موقع ضاحكا ٭

وأجيب عن الاول بان القرآن يقاس عليه ولا يلزم ان يقاس على غيره مع انه قد يقال: يكتفى بقياس المبرد، وعن الثانى بانه علل المنع بكون الحاصل بالسبك معرفة وهى لا تقع حالا، وفى ذلك نظر لأنه غير مطرد ففى شرح التسهيل انه قد يكون نكرة أيضا الا تراهم فسروا (أن يفترى) بمفترى، وقد عرض ابن جنى ذلك على ابى على فاستحسنه، وعلى تسليم الاطراد فالمعرفة قد تكون حالا لكونها فى معنى النكرة كوحده، والاقتصار على المنع أولى لمكان التعسف فى هذا، واختار غير واحد ان وحيا بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأنه نوع من الكلام أو بتقدير الا كلام وحى و (من وراء حجاب) صفة كلام أو سماع محذوف وصفة المصدر تسد مسده والارسال نوع من الكلام أيضا بحسب المآل والاستثناء عليه مفرغ من اعم المصادر، وقال الزجاج: قال سيبويه سألت الخليل عن قوله تعالى: (أو يرسل رسولا) بالنصب فقال: هو محمول على أن سوى هذه التى فى قوله تعالى: أن يكلمه الله لما يلزم منه أن يقال: ما كان لبشر أن يرسل الله رسولا وذلك غير جائز، والمعنى ما كان لبشر (أن يكلمه الله) الا بان يوحى أو أن يرسل، وعليه أن يقدر فى قوله تعالى: (أو من وراء حجاب) نحو أو أن يسمع من وراء حجاب وأى داع إلى ذلك مع ما سمعت؟ واختلف فى الاستثناء هل هو متصل أو منقطع وأبو البقاء على الانقطاع. وتعقبه بعضهم بان المفرغ لا يتصف بذلك والبحث شهير. وقرأ ابن أبى عبلة (أو من وراء حجب) بالجمع. وقرأ نافع وأهل المدينة (أو يرسل رسولا فيوحى) برفع الفعلين ووجهوا ذلك بأنه على اضمار مبتدأ اى هو يرسل أو هو معطوف على «وحيا» أو على ما يتعلق به (من وراء) بناء على أن تقديره أو يسمع من وراء حجاب، وقال العلامة الثانى: إن التوجيه الثانى وما بعده ظاهر وهو عطف الجملة الفعلية الحالية على الحال المفردة، وأما اضمار المبتدأ فان حمل على هذا فتقدير المبتدأ لغو، وان أريد انها مستأنفة فلا يظهر ما يعطف عليه سوى « ماكان لبشر» الخ وليس بحسن الانتظام. وتعقب بانه يجوز أن يكون تقدير المبتدأ مع اعتبار الحالية بناء على أن الجملة الاسمية التى الخبر فيها جملة فعلية تفيد ما لا تفيده الفعلية الصرفة مما يناسب حال ارسال الرسول، أو يقال: لا نسلم أن العطف على «ماكان لبشر» ليس بحسن الانتظام، وفيه دغدغة لا تخفى، وفى الآية على ما قال ابن عطية دليل على أن من حلف أن لا يكلم فلانا فارسله حنث لاستثنائه تعالى الارسال من الكلام، ونقله الجلال السيوطى فى احكام القرآن عن مالك وفيه بحث والله تعالى الهادى ٭

﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ ﴾ متعال عن صفات المخلوقين ﴿ حَكِيمٌ ٥١ ﴾ يجرى سبحانه أفعاله على سنن الحكمة فيكلم

تارة بواسطة وأخرى بدونها اما الهاما و إما خطابا أو إما عيانا وإما خطابا من وراء حجاب على ماية تضيه الاختلاف السابق فى تفسير الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى ومثل هذا الايحاء البديع على أن الاشارة لما بعد ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وهو ما أوحى اليه عليه الصلاة والسلام أو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للابدان حيث يحييها حياة أبدية ، وقيل : أى ومثل الايحاء المشهور لغيرك أوحينا اليك ،وقيل: أى ومثل ذلك الايحاء المفصل أوحينا اليك إذ كان عليه الصلاة والسلام اجتمعت له الطرق الثلاث سواء فسر الوحى بالالقاء أم فسر بالكلام الشفاهى، وقد ذكر أنه عليه الصلاة والسلام قد ألقى اليه فى المنام كما ألقى إلى إبراهيم عليه السلام والقى اليه عليه الصلاة والسلام فى اليقظة على نحو القاء الزبور إلى داود عليه السلام *

فنى الكبريت الأحمر للشعرانى نقلا عن الباب الثانى من الفتوحات المكية أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى القرآن مجملا قبل جبريل عليه السلام من غير تفصيل الآيات والسور. وعن ابن عباس تفسير الروح بالنبوة *

وقال الربيع : هو جبريل عليه السلام، وعليه فأوحينا مضمن معنى ارسلنا، والمعنى أرسلناه بالوحى اليك لأنه لا يقال : أوحى الملك بل أرسله *

ونقل الطبرسى عن أبى جعفر . وأبى عبد الله رضى الله تعالى عنهما أن المراد بهذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يصعد إلى السماء ، وهذا القول فى غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الامامين، وتنوين (روحا) للتعظيم أى روحا عظيما ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ الظاهر أن ما الأولى نافية والثانية استفهامية فى محل رفع على الابتداء و (الكتاب) خبر ، والجملة فى موضع نصب بتدرى وجملة (ما كنت) الخ حالية من ضمير (أوحينا) أوهى مستأنفة والمضى بالنسبة إلى زمان الوحى *

واستشكلت الآية بأن ظاهرها يستدعى عدم الاتصاف بالايمان قبل الوحى ولا يصح ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام جميعا قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر باجماع من يعتد به، وأجيب بعدة أجوبة، الأول أن الايمان هنا ليس المراد به التصديق المجرد بل مجموع التصديق والاقرار والاعمال فانه كما يطلق على ذلك يطلق على هذا شرعا، ومنه قوله تعالى : (وما كان الله ليضيع ايمانكم) والاعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركب والمركب ينتفى بانتفاء بعض أجزائه فلا يلزم من انتفاء الايمان المركب بانتفاء الأعمال انتفاء الايمان بالمعنى الآخر أعنى التصديق وهو الذى أجمع العلماء على اتصاف الانبياء عليهم السلام به قبل البعثة، ولذا عبر بتدرى دون أن يقال: لم تكن مؤمنا وهو جواب حسن ولا يلزمه نفى الايمان عمن لا يعمل الطاعات ليكون القول به اعتزالا كما لا يخفى *

الثانى أن الايمان إنما يعنى به التصديق بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام دون التصديق بالله عزوجل ودون ما يدخل فيه الأعمال والنبى ﷺ مخاطب بالايمان برسالة نفسه كما أن أمته صلى الله تعالى عليه وسلم مخاطبون بذلك، ولا شك أنه قبل الوحى لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسول الله وما علم ذلك إلا بالوحى فاذا كان الايمان هو التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموع ثابتا قبل الوحى بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة المجمع على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة استقام نفى الايمان قبل الوحى وإلى هذا ذهب ابن المنير. الثالث أن المراد شرائع الايمان ومعالمه مما لا طريق اليه إلا السمع واليه ذهب محيى السنة البغوى وقال : إن النبى ﷺ كان قبل الوحى على دين إبراهيم عليه السلام ولم تتبين له عليه الصلاة

والسلام شرائع دينه، ولا يخفى أنه إذا لم يعتبر كون الكلام على حذف مضاف يلزمه إطلاق الايمان على الأعمال وحدها وهو خلاف المعروف. الرابع أن الكلام على تقدير مضاف فقيل التقدير دعوة الايمان أى ما كنت تدرى كيف تدعو الخلق إلى الايمان واليه يشير كلام أبى العالية .

وقال الحسين بن الفضل : أى أهل الايمان أى لا تدرى من الذى يؤمن، وأنت تدرى أنه لا يرتضى هذا إلا من لا يدرى. الخامس المراد نفى دراية المجموع أى ما كنت تدرى قبل الوحى مجموع الكتاب والايمان فلا ينافى كونه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدرى الايمان وحده ويأباه اعادة (لا) السادس أن المراد ما كنت تدرى ذلك اذ كنت فى المهد واليه ذهب على بن عيسى وهو خلاف الظاهر، والظاهر أن المراد استمرار النفى إلى زمن الوحى، وظاهر كلام الكشف يميل إلى اعتبار نحو ذلك القيد قال : لعل الأشبه أن الايمان على ظاهره والآية واردة فى معرض الامتنان والايحاء يشمل الالقاء فى الروع و إرسال الرسول فالايمان عرفه بالأول والكتاب بالثانى على أن الآية تدل على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم عرفهما بعد أن لم يكن عارفا وهو كذلك أما أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحى فلا فجاز أن يعرفهما به وجاز أن يعرف واحدا منهما معينا به. وقد دل الدليل على أن المعرف به هو الكتاب والايمان بعد العقل وقبل الوحى ، والتمسك به على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن متعبداً بشرع من قبله ضعيف لأن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد بل يلزمه سقوط الاثم إن لم يكن تقصيرا انتهى .

وأنت تعلم أن المتبادر أنه عليه الصلاة والسلام عرفهما بعد الوحى، وأما قوله قدس سره فى تضعيف التمسك بذلك على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن متعبدا بشرع من قبله أن عدم الدراية لا يلزمه عدم التعبد فقد قيل عليه :إنه ساقط لأنه عليه الصلاة والسلام اذا لم يدر شرعا فكيف يتعبد به، وقد يجاب بأن مراد المدقق أن الدراية المنفية الدراية بمعنى العلم الجازم الثابت المطابق للواقع وعدمها لا يلزمه عدم التعبد اذ يكفى فى التعبد بشرع من قبله عليه الصلاة والسلام الظن الراجح ثبوته فلعله كان حاصلا له صلى الله تعالى عليه وسلم.

ومثل هذا الظن يكفى المتعبدين اليوم بشرع نبينا عليه الصلاة والسلام فان أكثر الفروع ظنية، ومن يتتبع الاخبار يعلم أن العرب لم يزالوا على بقايا من دين ابراهيم عليه السلام من الحج والختان وايقاع الطلاق والغسل من الجنابة وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر وغير ذلك وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان أحرص الناس على اتباع دين ابراهيم عليه السلام. وفى الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان أى قبل البعثة يتحنث بغار حراء، وفسر التحنث بالتحنف أى اتباع الحنيفية وهى دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام، والفاء تبدل ثاء فى كثير من كلامهم وفى رواية ابن هشام فى السير يتحنف بالفاء بدل الثاء، نعم فسر أيضا بالتعبد كما فى صحيح البخارى وباتقاء الحنث أى الاثم كالتحرج والتأثم وكل ذلك مما ذكره الحافظ القسطلانى فى شرح الصحيح .

ثم إن الظاهر أن من قال :انه صلى الله تعالى عليه وسلم كان متعبدا بشرع من قبله ليس مراده أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبدا بجميع شرع من قبله بل بما ترجح عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ثبوته. والذى ينبغى أن يرجح كون ذلك من شرع ابراهيم عليه السلام لأنه من ذريته عليهما الصلاة والسلام وقد كافت العرب بدينه .

وقال بعضهم: إن عبادته صلى الله تعالى عليه وسلم التفكر والاعتبار، ولعله أيضا مما ترجح عنده عليه الصلاة والسلام كونه من شريعته عليه السلام وربما يقال: بما علمه صلى الله تعالى عليه وسلم لا على ذلك الوجه من

شرع من قبله أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يزل موحى اليه وأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بما يوحى اليه الا أن الوحى السابق على البعثة كان القاء ونفثا فى الروع وما عمل بما كان من شرائع أبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام الا بواسطة ذلك الالقاء. واذا كان بعض اخوانه من الانبياء عليهم السلام قد أوتى الحكم صبيا ابن سنتين أو ثلاث فهو عليه الصلاة والسلام أولى بأن يوحى اليه ذلك النوع من الايحاء صبيا أيضا* ومن علم مقامه صلى الله تعالى عليه وسلم وصدق بأنه الحبيب الذى كان نبيا وآدم بين الماء والطين لم يستبعد ذلك فتامل *

﴿ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى الروح الذى أوحيناه اليك، وقال ابن عطية. الضمير للكتاب، وقيل: للايمان ورجح بالقرب، وقيل: للكتاب والايمان ووحد لأن مقصدهما واحد فهو نظير (والله ورسوله أحق أن يرضوه)*

﴿ نُوراً ﴾ عظيما ﴿ نَّهدى به مَنْ نَشاءُ ﴾ هدايته ﴿مِنْ عبادنا﴾ وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به والجملة أما مستأنفة أو صفة (نورا) وقوله تعالى: ﴿وَانَّكَ لَتَهْدى﴾ تقرير لهدايته، وبيان لكيفيتها، ومفعول (لتهدى) محذوف ثقة بغاية الظهور أى وإنك لتهدى بذلك النور من تشاء هدايته ﴿ الَىٰ صرَاط مُّسْتَقيم ٥٢ ﴾ هو الاسلام وسائر الشرائع والاحكام، وقرأ ابن السميقع (لتهدى) بضم التاء وكسر الدال من أهدى، وقرأ حوشب (لتهدى) مبنيا للمفعول أى ليهديك الله وقرئ لتدعو ﴿ صرَاط الله ﴾ بدل من الأول واضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى: ﴿ الَّذى لَهُ مَا فى السَّمَوات وَمَا فى الْأَرْض ﴾ لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فان كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم ايجاب*

﴿ أَلَا إِلَى الله تَصيرُ الْأُمُورُ ٥٣ ﴾ أى امور من فيهما قاطبة لا الى غيره تعالى وذلك بارتفاع الوسائط يوم القيامة ففيه من الوعد للمهتدين الى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه مالا يخفى، وصيغة المضارع على ما قررنا على ظاهرها من الاستقبال، وقال فى البحر: المراد بها الاستمرار كما فى زيد يعطى أى من شأنه ذلك، والاول أظهر والله تعالى أعلم *

﴿ ومما قاله أرباب الاشارات فى بعض الآيات ﴾ قال سبحانه: «ولتنذر أم القرى ومن حولها» قيل يشير ذلك الى انذار نفسه الشريفة لأنها أم قرى نفوس آدم وأولاده لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أول العالمين خلقا ومنه عليه الصلاة والسلام نشأت الارواح والنفوس ومن هذا كان آدم ومن دونه تحت لوائه صلى الله تعالى عليه وسلم، وقد أشار الى ذلك سلطان العاشقين عمر بن الفارض بقوله على لسان الحقيقة المحمدية:

وانى وإن كنت ابن آدم صورة فلى منه معنى شاهد بأبوتى

وقوله سبحانه: (ومن حولها) يشير إلى نفوس أهل العالم وقد أنذر ﷺ كلا حسب استعداده، وقيل: فى قوله تعالى: (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) انه يشير إلى التنزيه والتشبيه، وقرر ذلك الشيخ الاكبر قدس سره بما يطول (له مقاليد السموات والأرض) أى مفاتيح سموات القلوب وفيها خزائن لطفه تعالى ورحمته عز وجل وأرض النفوس وفيها خزائن قهره سبحانه وعزته جل جلاله فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه كالمعرفة والمحبة والشوق والتوحيد والهيبة والانس والرضا إلى غير ذلك، وقد يجتمع فى القلب خزائن وكل نفس مخزن لنوع من آثار قهره كالنكرة والجحود والانكار والشرك والنفاق والحرص والكبر والبخل والشره وغير ذلك، وقد

يجتمع فى النفس خزائن، وفائدة الاخبار بأن له سبحانه مقاليد ذلك قطع أفكار العباد عمن سواه سبحانه فى جلب مايريدونه ودفع مايكرهونه (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) يشير إلى مقامى المجذوب والسالك فالمجذوب من الخواص اجتباه ربه سبحانه فى الازل وسلكه فى سلك من يحبهم واصطنعه سبحانه لنفسه جل شأنه وجذبه تعالى عن الدارين بجذبة توازى عمل الثقلين فهو فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، والسالك من العوام سلكه فى سلك من يحبونه بالتوفيق للهداية والقيام على قدمى الجهد والانابة إلى سبيل الرشاد من طريق العناد (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له) يشير إلى الذين يجادلون فى معرفة الله تعالى بشبه العقل الذى استجاب له تعالى حين دعاه فوصل الى الحضرة فهو فى كشف وعيان وأولئك من وراء مايزعمون انه برهان (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) يشير الى كفار النفوس فانهم شرعوا عند استيلائهم للارواح والقلوب مالم يرض به الله تعالى من مخالفات الشريعة وموافقات الطبيعة « الله لطيف بعباده » يشير الى عموم لطفه تعالى وهو أنواع لاتحصى ومراتب لا تستقصى ،

وروى السلمى عن سيد الطائفة قدس سره اللطيف من نور قلبك بالهدى وربى جسمك بالغذا ويخرجك من الدنيا بالايمان ويحرسك من نار لظى ويمكنك حتى تنظر وترى هذا لطف اللطيف بالعبد الضعيف (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) استعملوا تكاليف الشرع لقمع الطبع وكسر الهوى وتزكية النفس وتصفية القلب وجلاء الروح « فى روضات الجنات » فى الدنيا جنات الوصلة والمعارف وطيب الانس فى الخلوة والآخرة فى روضات الجنة « لهم ما يشاؤن عند ربهم » حسب مراتبهم فى القربات والوصلات والمكاشفات ونيل الدرجات وعلى قدر هممهم « قل لا أسئلكم عليه أجراً الا المودة فى القربى » وهم أقاربه صلى الله تعالى عليه وسلم الذين خلقوا من عنصره الشريف وتحلوا بحلاه المنيف كأئمة أهل البيت ومودتهم يعود نفعها الى من يودهم لأنها سبب للفيض وهم رضى الله تعالى عنهم أبوابه وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أنا مدينة العلم وعلى بابها » رمز الى ذلك فافهم الاشارة « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » لمزيد كرمه جل شأنه فمتى وفق عبدا للتوبة قبلها جودا وكرما وعن بعضهم أنه قال لبعض المشايخ : إن تبت فهل يقبلنى الله تعالى؟ فقال: ان يقبلك الله تعالى تتب اليه سبحانه فقبول الله تعالى سابق على التوبة « ويزيدهم من فضله » اشارة الى الرؤية فان الجنان ونعيمها مخلوقة تقع فى مقابلة مخلوق وهو عمل العمال والرؤية مما تتعلق بالقديم فلا تقع الا فضلا ربانيا، وفى بعض الاخبار أن هذه الزيادة أن يشفعهم فى اخوان اخوانهم « استجيبوا لربكم » الاستجابة للعوام بالوفاء بعهده تعالى والقيام بحقه سبحانه والرجوع عن مخالفته جل شأنه الى موافقته عز وجل، وللخواص بالاستسلام للاحكام الازلية والاعراض عن الدنيا وزينتها وشهواتها، ولأخص الخواص من أهل المحبة بصدق الطلب بالاعراض عن الدارين والتوجه لحضرة الجلال يبذل الوجود فى نيل الوصول والوصال « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما » قيل فيه اشارة الى أحوال المشايخ من حيث المريدين فمنهم من يهب الله تعالى له ومنهم من لا تصرف له فى غيره بالتخريج والتسليك وهو أشبه شىء بالانثى من حيث عدم التصرف ومنهم من يهب سبحانه له من له قدرة التصرف بالتخريج والتسليك وهو أشبه شىء بالذكر ومنهم من يهب له تعالى هذا وهذا ومنهم من يجعله جل وعلا عقيما لا مريدله أصلا « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء انه علي حكيم » قال سيدى الشيخ

عبدالوهاب الشعرانى فى تفسيره الآية المذكورة: اعلم أن المانع من سماع كلام الحق انما هو البشرية فاذا ارتفع العبدعنها كلمه الله تعالى من حيث كلم سبحانه الارواح المجردة عن المواد، والبشر ماسمى بشرا إلا لمباشرته الامور التى تعوقه عن اللحوق بدرجة الروح فلما لم يلحق كلمه الله تعالى فى الاشياء وتجلى سبحانه له فيها بخلاف من لحق كالانبياء عليهم السلام فلا يتجلى الحق سبحانه لغيرهم الا فى حجاب الصور ولولا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربه، واعلم أن الحقيقة تأبى أن يكلم الله تعالى غير نفسه أو يسمع غير نفسه فلا بد اذا خاطب عبدا على قصد اسماعه أن يكون جميع قواه لأنه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحق سبحانه قواه عند النجوى ولذلك خر موسى عليه السلام صعقا اذ لم يكن له استعداد يقبل به التجلى اللائق بمقامه وثبت نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ولما لم يكن للجبل درجة المحبة التى يكون بها الحق سمع عبده وبصره وجميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب فدك، واعلم أن حديث الحق سبحانه للخلق لايزال أبدا غير أن من الناس من يفهم أنه حديث كعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ومن ورثه من الاولياء ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول: ظهرلى كذا وكذا ولايعرف أن ذلك من حديث الحق سبحانه معه وكان شيخنا يقول: كان عمر من أهل السماع المطلق الذى يحدثهم الله تعالى فى كل شىء ولكن له ألقاب وهو انه ان أجابوه به تعالى فهو حديث وان أجابوه بهم فهى محادثة وان سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث فى حقهم وانما هو خطاب أو كلام، وقد ورد فى المتهجدين انهم اهل المسامرة فقد علمت أن الوحى ما يلقيه الله تعالى فى قلوب خواص عباده على جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بامر ما فان لم يكن كذلك فليس بوحى ولا خطاب فان بعض الناس يجدون فى قلوبهم علما بامر ما مثل العلوم الضرورية عند الناس فهو علم صحيح لكن ليس صادرا عن خطاب وكلامنا انما هو فى الخطاب الالهى المسمى وحيا فان الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحى كلاما يستفيد به العلم من جاءله *

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء من وحى الالهام إلا دقائق ممتدة من الأرواح الملكية لا نفس الملائكة لأن الملك لا ينزل بوحى على غير نبي أصلا ولا يامر بامر إلهى قطعا لأن الشريعة قد استقرت فلم يبق إلا وحى المبشرات وهو الوحى الأعم ويكون من الحق إلى العبد من غير واسطة ويكون أيضا بواسطة والنبوة من شأنها الواسطة فلابد من واسطة الملك فيها لكن الملك لايكون حال القائه ظاهرا بخلاف الأنبياء عليهم السلام فانهم يرون الملك حال الكلام والولى لا يشهد الملك إلا فى غير حال الالقاء فان سمع كلامه لم يره وإن رآه لا يكلمه فالعارفون لاينالون مافاتهم من النبوة مع بقاء المبشرات عليهم الا أن الناس يتفاضلون فمنهم من لايبرح فى بشارة الواسطة ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد فان لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وماالهم النبوات ولهذا ينكر عليهم الاحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعملون بما يرونه من تعريفات الحق لهم كأنه شريعة مستقلة فى الظاهر وليس ذلك بشريعة إنما هو بيان لها فالمنقطع إنما هو وحى التشريع لا غير أما التعريف لأمور مجملة فى السنة فهو باق لهذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس اليه لأنه خبر إلهى وأخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب على هذا الملهم، ولايكون الالهام إلا فى الخير و(ألهمها) فجورها على معنى إلهامها اياه لتجتنبه كما أن إلهامها تقواها لتعمل بها، وأكمل الالهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر فى الكتب الالهية ويقف عند حدودها وأوامرها حتي يزول صدي طبيعته وتنتقش فيها صور العالم، وأما قوله تعالى: (أو من وراء

حجاب) فهو خطاب الهى يلقيه على السمع لا على القلب فيدركه من ألقى اليه فيفهم منه ما قصده من يسمعه ذلك وقد يحصل له ذلك فى صورة التجلى فتخاطبه تلك الصورة وهى عين الحجاب فيفهم من ذلك الخطاب علم مايدل عليه ويعلم أن ذلك حجاب وأن المتكلم من وراء ذلك الحجاب وكل من أدرك صورة التجلى الالهى يعلم أن ذلك هو الله تعالى فما يزيد صاحب هذا الحال على غيره الا بمعرفته أن المخاطب لهمن وراء الحجاب ه

وأما قوله تعالى : (أو يرسل رسولا) فهو ماينزل به الملك أو مايجىء به الرسول البشرى الينا اذا نقلا كلام الله تعالى خاصة كالتالين فان نقلا علما وجداه فى أنفسهما وأفصحا عنه فذلك ليس بكلام الهى، ومن الأولياء من يعطى الترجمة عن الله سبحانه فى حال الالقاء والوحى الخاص بكل انسان فيكون المترجم موجدا لصور الحروف اللفظية أو المرقومة ويكون روح تلك الصور كلام الله عز وجل لاغير، وقد يقول الولى : حدثنى قلبى عن ربى يعنى به من الوجه الخاص فاعلم ذلك وتأمل ماقررته لك فانه نفيس والله تعالى يتولى هداك ، وله قدس سره كلام كثير فى هذا المقام تركناه خوف الاطالة، ولعل فيما ذكرناه كفاية لذوى الافهام (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) وهو مابه الحياة الطيبة الأبدية « ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان » قبل الايحاء ه

قيل : أشير بهذا الايحاء الى الايحاء فى هذه النشأة وكان له صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل حال من أحواله فيها نوع من الوحى والدراية المنفية اذ كان عليه الصلاة والسلام فى كينونته قبل اخراجه منها بتجلى كينونته عز وجل والا فهو صلى الله تعالى عليه وسلم نبى ولا آدم ولا ماء ولا طين ولا يعقل نبى بدون ايحاء (وانك لتهدى الى صراط مستقيم) وهو التوحيد السليم من زوايا الأغيار ويشير الى ذلك قوله تعالى :(ألا الى الله تصير الأمور) تمت السورة بتوفيق الله عز وجل والصلاة والسلام على أول نور أشرق من شمس الأزل وبها والحمد لله تعالى ه

﴿ سورة الزخرف ٤٣ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس وحكى ابن عطية اجماع أهل العلم على ذلك ولم ينقل استثناء ، وقال مقاتل: الا قوله تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) فانها نزلت ببيت المقدس كذا فى مجمع البيان ، وفى الاتقان نزلت بالسماء ، وقيل : بالمدينة، وعدد آيها ثمان وثمانون فى الشامى وتسع وثمانون فى غيره، ووجه مناسبة مفتتحها لمختتم ماقبلها ظاهر ه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم ١ ﴾ الكلام فيه على نحو مامر فى مفتتح يس ﴿ والكتٰب ﴾ أى القرآن والمراد به جميعه، وجوز ارادة جنسه الصادق ببعضه وكله ، وقيل : يجوز أن يراد به جنس الكتب المنزلة أو المكتوب فى اللوح أو المعنى المصدرى وهو الكتابة والخط ، وأقسم سبحانه بها لما فيها من عظيم المنافع ولا يخفى مافى ذلك، والأولى على تقدير اسمية (حم) كونه اسما للقرآن وأن يراد ذلك أيضا بالكتاب وهو مقسم به اما ابتداء أو عطفا على (حم) على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة فى العنوان لكن يلزم على هذا حذف حرف الجر وابقاء عمله كما فى ه أشارت كليب بالأكف الأصابع ه ومنع أن يقسم بشيئين بحرف واحد لا يلتفت اليه ومناط تكرير القسم المبالغة فى تأكيد الجملة القسمية ﴿ المُبين ٢ ﴾ أى المبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليب كلامهم على أنه من أبان اللازم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لأصول مايحتاج اليه فى أبواب الديانة على أنه من أبان المتعدى ه

﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ جواب للقسم، والجعل بمعنى التصيير المعدى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدى لواحد لا لأنه ينافى تعظيم القرآن بل لأنه يأباه ذوق المقام المتكلم فيه لأن الكلام لم يسبق لتأكيد كونه مخلوقا وما كان إنكارهم متوجها عليه بل هو مسوق لإثبات كونه قرآنا عربيا مفصلا واردا على أساليبهم لا يعسر عليهم فهم ما فيه ودرك كونه معجزا كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٣ ﴾ أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظر الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة فى ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية والقسم بالقرآن على ذلك من الايمان الحسنة البديعة لما فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لا شىء أعلى منه فيقسم به ولا أهم من وصفه فيقسم عليه كما قال أبو تمام:

وثناياك إنهـــا اغريض ولآل توم وبرق وميض

بناء على أن جواب القسم قوله: إنها اغريض، واستدل بالآية على أن القرآن مخلوق وأطالوا الكلام فى ذلك، وأجيب بأنه ان دل على المخلوقية فلا يدل على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظى ولا نزاع فيها *

وأنت تعلم أن الحنابلة ينازعون فى ذلك ولهم عن الاستدلال أجوبة مذكورة فى كتبهم، وأخرج ابن مردويه عن طاوس قال: جاء رجل الى ابن عباس من حضرموت فقال له: يا ابن عباس أخبرنى عن القرآن أكلام من كلام الله تعالى أم خلق من خلق الله سبحانه قال: بل كلام من كلام الله تعالى أو ما سمعت الله سبحانه يقول: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فقال له الرجل أفرأيت قوله تعالى: (إنا جعلناه قرآنا عربيا قال: كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ بالعربية أما سمعت الله تعالى يقول: (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) فتأمل فيه ﴿ وَإِنَّهُ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ على ما ذهب اليه جمع فانه أم الكتب السماوية أى أصلها لأنها كلها منقولة منه، وقيل: (أم الكتاب) العلم الازلى، وقيل: الآيات المحكمات والضمير لحم أو للكتاب بمعنى السورة أى أنها واقعة فى الآيات المحكمات التى هى الام وهو كما ترى *

وقرأ الاخوان (إم) بكسر الهمزة لإتباع الميم أو (الكتاب) فلا تكسر فى عدم الوصل ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ رفيع الشان بين الكتب لاعجازه واشتماله على عظيم الاسرار ﴿ حَكِيمٌ ٤ ﴾ ذو حكمة بالغة أو محكم لا ينسخه غيره أو حاكم على غيره من الكتب وهما خبران لإن، وفى (أم الكتاب) قيل متعلق بعلى واللام لما فارقت محلها وتغيرت عن أصلها بطلت صدارتها فجاز تقديم ما فى حيزها عليها أو حال منه لأنه صفة نكرة تقدمتها أو من ضميره المستتر و(لدينا) بدل من (أم الكتاب) وهما وان كانا متغايرين بالنظر الى المعنى متوافقان بالنظر الى الحاصل أو حال منه أو من الكتاب فان المضاف فى حكم الجزء لصحة سقوطه، ولعل المختار كون الظرفين فى موضع الخبر لمبتدا محذوف والجملة مستأنفة لبيان محل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا فى أم الكتاب ولدينا، ولم يجوزوا كونهما فى موضع الخبر لإن لدخول اللام فى غيرهما *

وأياما كان فالجملة المؤكدة إما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة فى حكمها وإما مستأنفة مقررة لعلو شأن القرآن

الذى أنبأ الاقسام به على منهاج الاعتراض فى قوله تعالى: «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» وبعد ما بين سبحانه علو شأن القرآن العظيم وحقق جل وعلا ان انزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب سبحانه ذلك بانكار أن يكون الامر بخلافه فقال جل شأنه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ﴾ الذكر أى أفننحيه ونبعده عنكم على سبيل الاستعارة التمثيلية من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض شبه حال الذكر وتنحيته بحال غرائب الابل وذودها عن الحوض اذا دخلت مع غيرها عند الورد ثم استعمل ما كان فى تلك القصة ههنا، وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم، ولو جعل استعارة فى المفرد بجعل التنحية ضربا جاز ومن ذلك قول طرفة:

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

وقول الحجاج فى خطبته يهدد أهل العراق: لأضربنكم ضرب غرائب الابل. و(الذكر) قيل المراد به القرآن ويروى ذلك عن الضحاك وأبى صالح والكلام على تقدير مضاف أى انزال الذكر وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر تفخيما، وقيل: بل هو ذكر العباد بما فيه صلاحهم فهو بمعنى المصدر حقيقة، وعن ابن عباس. ومجاهد ما يقتضيه، والهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين فى مثل هذا التركيب أى أنهملكم فننحى الذكر عنكم، وقال ابن الحاجب: الفاء لبيان أن ما قبلها وهو جعل القرآن عربيا سبب لما بعدها وهو انكار ان يضرب سبحانه الذكر عنهم ﴿صَفْحًا﴾ أى اعراضا، وهو مصدر لنضرب من غير لفظه فان تنحية الذكر اعراض فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج قعدت جلوسا كأنه قيل: أفنصفح عنكم صفحا أو هو منصوب على أنه مفعول له أو حال مؤول بصافحين بمعنى معرضين، وأصل الصفح أن تولى الشئ صفحة عنقك، وقيل: إنه بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أى افننحيه عنكم جانبا، ويؤيده قراءة حسان بن عبدالرحمن الضبعى. والسميط ابن عمير. وشبيل بن عذرة (صفحا) بضم الصاد وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح كرسل جمع صفوح بمعنى صافحين، وابو حيان اختار ان يكون مفردا بمعنى المفتوح كالسد والسد *

وحكى عن ابن عطية ان انتصاب صفحا على انه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة فيكون العامل فيه محذوفا، ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك، وأياما كان فالمراد انكار أن يكون الأمر خلاف ما ذكر من انزال كتاب على لغتهم ليفهموه ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ أى لأن كنتم منهمكين فى الاسراف مصرين عليه على معنى أن الحكمة تقتضى ذكركم وانزال القرآن عليكم فلا نترك ذلك لأجل انكم مسرفون لا تلتفتون اليه بل نفعل التفتم أم لا، وقيل: هو على معنى أن حالكم وان اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا فى العذاب الخالد لكننا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم الى الحق بارسال الرسول الامين وانزال الكتاب المبين *

وقرأ نافع. والاخوان (إن كنتم) بكسر الهمزة على أن الجملة شرطية، وإن وإن كانت تستعمل للشكوك وإسرافهم أمر محقق لكن جىء بها هنا بناء على جعل المخاطب كأنه متردد فى ثبوت الشرط شاك فيه قصدا إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الاسراف لتصويره بصورة ما يفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقل، وقيل: لا حاجة إلى هذا لأن الشرط الاسراف فى المستقبل وهو ليس بمتحقق، ورد بأن إن الداخلة على كان لا تقلبه للاستقبال

عند الاكثر ، ولذا قيل : (ان) هنا بمعنى إذ ، وأيد بأن على بن زيد قرأ به وأنه يدل على التعليل فتوافق قراءة الفتح معنى ، ولو سلم فالظاهر من حال المسرف المصر على اسرافه بقاؤه على ماهو عليه فيكون محققا فى المستقبل أيضا على القول بأنها تقلب كان كغيرها من الافعال وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ماقبل عليه ، وجوز أن يكون الشرط فى موقع الحال أى مفروضا اسرافكم على أنه من الكلام المنصف فلايحتاج إلى تقدير جواب *

وتعقب بأنه إنما يتأتى على القول بأن إن الوصلية ترد فى كلامهم بدون الواو والمعروف فى العربية خلافه *

وقوله عزوجل : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ ﴾ تقرير لماقبله ببيان أن اسراف الامم السالفة لم يمنعه تعالى من ارسال الانبياء اليهم وتسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام ، فقد قيل : البلية إذا عمت طابت ، و(كم) مفعول (أرسلنا) و(فى الاولين) متعلق به أو صفة (نبى) ومايأتيهم الخ للاستمرار وضميره للاولين ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ نوع آخر من التسلية له ﷺ ، وضمير «منهم» يرجع إلى المسرفين المخاطبين لا إلى مايرجع اليه ضمير «مايأتيهم» لقوله تعالى : ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨ ﴾ أى سلف فى القرآن غير مرة ذكر قصتهم التى حقها أن تسير مسير المثل ، ونصب «بطشا» على التمييز وجوز كونه على الحال من فاعل «أهلكنا» أى باطشين ، والأول احسن ، ووصف أولئك بالاشدية لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الاولوية ، وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩ ﴾ عطف على الخطاب السابق والآيتان أعنى قوله تعالى : «وكم أرسلنا» اعتراض لافادة التقرير والتسلية كما سمعت ، والمراد ولئن سألتهم من خلق العالم ليسندن خلقه الى من هو متصف بهذه الصفات فى نفس الامر لأنهم يقولون هذه الالفاظ ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات ذكره الزمخشرى فيما نسب اليه ، وهذا حسن وله نظير عرفاوهو أن واحداً لوأخبرك أن الشيخ قال كذا وعنى بالشيخ شمس الائمة ثم لقيت شمس الائمة فقلت : إن فلانا أخبرنى أن شمس الائمة قال : كذا مع أن فلانا لم يجر على لسانه الا الشيخ ولكنك تذكر ألقابه وأوصافه فكذا ههنا الكفار يقولون : خلقهن الله لاينكرون ثم أن الله عز وجل ذكر صفاته أى أن الله تعالى الذى يحيلون عليه خلق السموات والارض من صفته سبحانه كيت وكيت ، وقال ابن المنير : إن (العزيز العليم) من كلام المسؤلين وما بعد من كلامه سبحانه . وفى الكشف لافرق بين ذلك الوجه وهذا فى الحاصل فانه حكاية كلام عنهم متصل به كلامه تعالى على أنه من تتمته وان لم يكن قد تفوهوا به ، وهذا كما يقول مخاطبك : أكرمنى زيد فتقول : الذى أكرمك وحياك أو لجماعة آخرين حاضرين الذى أكرمكم وحياكم فانك تصل كلامك بكلامه على أنه من تتمته ولكن لاتجعله من مقوله ، والاظهر من حيث اللفظ ماذكره ابن المنير وحينئذ يقع الالتفات فى (فأنشرنا) بعد موقعه ، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : (لايضل ربى ولا ينسى) الى قوله تعالى : «فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى» وفى اعادة الفعل فى الجواب اعتناء بشأنه ومطابقته للسؤال من حيث المعنى على مازعم أبو حيان لامن حيث اللفظ قال : لأن من مبتدأ فلو طابق فى اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل بأن يقال : العزيز العليم خلقهن ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ مكانا ممهدا أى موطأ ومآله بسطها لكم تستقرون فيها

ولا ينافى ذلك كريتها لمكان العظم، وعن عاصم أنه قرأ (مهدا) بدون ألف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ طرقا تسلكونها فى أسفاركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ ﴾ أى لكى تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم أو بالتفكر فيها إلى التوحيد الذى هو المقصد الاصلى ﴿ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ أى بمقدار تقتضيه المشيئة المبنية على الحكم والمصالح ولا يعلم مقدار ما ينزل من ذلك فى كل سنة على التحقيق الا الله عز وجل، والآلة التى صنعها الفلاسفة فى هذه الاعصار المسماة بالاودوميتر يزعمون أنه يعرف بها مقدار المطر النازل فى كل بلد من البلاد فى جميع السنة لا تفيد تحقيقا فى البقعة الواحدة الصغيرة فضلا عن غيرها كما لا يخفى على المنصف. وفى البحر بقدر أى بقضاء وحتم فى الأزل، والأول أولى ﴿ فَأَنْشَرْنَا بِهِ ﴾ أى أحيينا بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ خالية عن النماء والنبات بالكلية *

وقرأ أبو جعفر. وعيسى (ميتا) بالتشديد، وتذكيره لأن البلدة فى معنى البلد والمكان، قال الجلبى: لا يبعد والله تعالى أعلم أن يكون تأنيث البلد وتذكير (ميتا) اشارة إلى بلوغ ضعف حاله الغاية، وفى الكلام استعارة مكنية أو تصريحية *

والالتفات فى (أنشرنا) إلى نون العظمة لاظهار كمال العناية بامر الاحياء والاشعار بعظم خطره ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك الانشار الذى هو فى الحقيقة اخراج النبات من الارض وهو صفة مصدر محذوف أى انشارا كذلك ﴿ تُخْرَجُونَ ١١ ﴾ أى تبعثون من قبوركم أحياء، وفى التعبير عن اخراج النبات بالانشار الذى هو احياء الموتى وعن إحيائهم بالاخراج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لأمر البعث، وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه *

وقرأ ابن وثاب. وعبد الله بن جبير. وعيسى. وابن عامر. والاخوان (تخرجون) مبنيا للفاعل *

﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى أصناف المخلوقات فالزوج هنا بمعنى الصنف لا بمعناه المشهور، وعن ابن عباس الأزواج الضروب والانواع كالحلو. والحامض. والأبيض. والأسود. والذكر. والأنثى، وقيل: كل ماسوى الله سبحانه زوج لأنه لا يخلو من المقابل كفوق وتحت ويمين وشمال وماض ومستقبل إلى غير ذلك والفرد المنزه عن المقابل هو الله عز وجل، وتعقب بأن دعوى اطراده فى الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر *

ولعل من قال: كل ما سوى الله سبحانه زوج لم يبن الأمر على ما ذكر وإنما بناه على أن الواجب جل شأنه واحد من جميع الجهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلا ولا خارجا ولا كذلك شىء من الممكنات مادية كانت أو مجردة ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ ﴾ أى ما تركبونه، فما موصولة والعائد محذوف، والركوب بالنظر إلى الفلك يتعدى بواسطة الحرف وهو فى كما قال تعالى: (وإذا ركبوا فى الفلك) بخلافه لا بالنظر اليه فانه يتعدى بنفسه كما قال سبحانه: (لتركبوها) إلا أنه غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة فالتجوز الذى يقتضيه التغليب بالنسبة إلى المتعلق أو غلب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوع الخالق القدير أو الغالب على النادر فالتجوز فى (ما) وضميره الذى تعدى الركوب اليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول ولتغليب ما ركب من الحيوان على الفلك ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ حيث عبر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظهور المخصوص بالدواب والضمير لما تركبون وأفرد رعاية للفظ، وجمع ظهور مع إضافته اليه رعاية لمعناه، والظاهر أن لام (لتستووا) لام كى، وقال الحوفى: من أثبت لام الصيرورة جاز له

أن يقول به هنا ، وقال ابن عطية : هى لام الأمر ، وفيه بعد من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب ، وقد اختلف فى أمره فقيل: إنه لغة رديئة قليلة لاتكاد تحفظ إلا فى قراءة شاذة نحو (فبذلك فلتفرحوا) أو شعر نحو قوله : ﴿ لتقم أنت يابن خير قريش ﴾ وماذكره المحدثون من قوله عليه الصلاة والسلام : لتأخذوا مصافكم يحتمل أنه من المروى بالمعنى ، وقال الزجاج : إنها لغة جيدة ، وأبو حيان على الأول وحكاه عن جمهور النحويين ﴿

﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم وهذا هو معنى ذكر نعمة الله تعالى عليهم على ماقال الزمخشرى ، وحاصله ان الذكر يتضمن شعور القلب والمرور على اللسان فنزل على أكمل أحواله وهو أن يكون ذكرا باللسان مع شعور من القلب ، وأما الاعتراف والاستعظام فمن نعمة ربكم لاقتضائه الاحضار فى القلب لذلك وهذا عين الحمد الذى هو شكر فى هذا المقام لا أنه يوجبه وإن كان ذلك التقرير سديدا أيضا ، ومنه يظهر إيثاره على ثم تحمدوا إذا استويتم ، ومن جوز استعمال المشترك فى معنييه جوز هنا أن يراد بالذكر الذكر القلبى والذكر اللسانى وهو كما ترى ﴿

ولما كانت تلك النعمة متضمنة لأمر عجيب قال سبحانه : ﴿ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ أى وتقولوا سبحان الذى ذلله وجعله منقادا لنا متعجبين من ذلك ، وليس الاشارة للتحقير بل لتصوير الحال وفيها مزيد تقرير لمعنى التعجب ، والكلام وإن كان إخبارا على ماسمعت أولا يشعر بالطلب ﴿

أخرج عبد بن حميد . وابن جرير . وابن المنذر عن أبى مجاز قال : رأى الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما وكرم وجههما رجلا ركب دابة فقال: سبحان الذى سخر لنا هذا فقال: أو بذلك أمرت؟ فقال: فكيف أقول ؟ قال : الحمد لله الذى هدانا للاسلام الحمد لله الذى من علينا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحمد لله الذى جعلنى فى خير أمة أخرجت للناس ثم تقول : (سبحان الذى سخر لنا هذا ـ إلى ـ مقرنين) وهذا يومى إلى أن ليس المراد من النعمة نعمة التسخير ، وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الاسلام ﴿

وأخرج أحمد . وأبو داود . والترمذى وصححه . والنسائى . وجماعة عن على كرم الله تعالى وجهه أنه أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ثلاثا والله أكبر ثلاثا سبحان الذى سخر لنا هذا إلى لمنقلبون سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ثم ضحك فقيل له : مم ضحكت ياأمير المؤمنين ؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل كما فعلت ثم ضحك فقلت : يارسول الله مم ضحكت ؟ فقال : يتعجب الرب من عبده إذا قال: رب اغفر لى ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى ، وفى حديث أخرجه مسلم . والترمذى . وأبو داود . والدارمى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر حمد الله تعالى وسبح وكبر ثلاثا ثم قال : سبحان الذى سخر لنا هذا إلى لمنقلبون ، وفى حديث أخرجه أحمد . وغيره عن رسول الله ﷺ قال : ما من بعير إلا فى ذروته شيطان فاذكروا اسم الله تعالى إذا ركبتموه كما أمركم ، وظاهر النظم الجليل أن تذكر النعمة والقول المذكور لا يخصان ركوب الانعام بل يعمانها والفلك ، وذكر بعضهم أنه يقال : إذا ركبت السفينة (بسم الله مجراها ومرساها ـ إلى ـ رحيم) ويقال : عند النزول منها « اللهم

أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣ ﴾ أى مطيقين ، وأنشد قطرب لعمرو ابن معدى كرب : لقد علم القبائل ماعقيل لنا فى النائبات بمقرنينا

وهو من أقرن الشيء إذا أطاقه، قال ابن هرمة :

واقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصد يادعد والهجر

وحقيقة أقرنه وجده قرينته ومايقرن به لأن الصعب لا يكون قرينة للضعيف ألا ترى إلى قولهم فى الضعيف لا تقرن به الصعبة ، والقرن الحبل الذى يقرن به ، قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وحاصل المعنى أنه ليس لنا من القوه ما يضبط به الدابة والفلك ، انما الله تعالى هو الذى سخر ذلك وضبطه لنا *

أخرج عبد بن حميد . وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوما كانوا فى سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وكان فيهم رجل له ناقة رزام فقال : أما أنا فلهذه مقرن فقمصت به فصرعته فاندقت عنقه ، وقرىء (مقرّنين) بتشديد الراء مع فتحها وكسرها وهما بمعنى المخفف *

﴿ وَإِنَّا الَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤ ﴾ أى راجعون، وفيه إيذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من السير ويتذكر منه المسافرة العظمى التى هى الانقلاب الى الله تعالى فيبنى أموره فى مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولا يأتى بما ينافيها ، ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبه لأمر مشروع، وفيه اشارة الى أن الركوب مخطرة فلا ينبغى أن يغفل فيه عن تذكر الآخرة *

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ متصل بقوله تعالى: «ولئن سألتهم» الى آخره فهو حال من فاعل «ليقولن» بتقدير قد أو بدونه، والمراد بيان أنهم مناقضون مكابرون حيث اعترفوا بأنه عز وجل خالق السموات والأرض ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يناقض كونه تعالى خالقا لهما فجعلوا له سبحانه جزأ وقالوا: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيراً، وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن هو ولد له كما قيل: أولادنا أكبادنا، وفيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذى لا يضاف اليه انقسام حقيقة ولا فرضا ولا خارجا ولا ذهنا جل شأنه وعلا، ولتأكيد أمر المناقضة لم يكتف بقوله تعالى: «جزأ» وقيل «من عباده» لأنه يلزمهم على موجب اعترافهم أن يكون ما فيهما مخلوقه تعالى وعبده سبحانه اذ هو حادث بعدهما محتاج اليهما ضرورة *

وقيل: الجزء اسم الاناث يقال: أجزأت المرأة اذ ولدت أنثى، وأنشد قول الشاعر :

ان أجزأت حرة يوما فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكار احيانا

وقوله: زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن فى ابياتها زجل

وجعل ذلك الزمخشرى من بدع التفاسير وذكر ان ادعاء ان الجزء فى لغة العرب اسم للاناث كذب عليهم ووضع مستحدث منحول وأن البيتين مصنوعان ، وقال الزجاج: فى البيت الاول لا ادرى قديم أم مصنوع *

ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم عليه السلام فاستعير لكل الاناث *

وقرأ أبو بكر عن عاصم «جزأ» بضمتين، ثم الكلام وإن سيق للغرض المذكور يفهم منه كفرهم لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جل وعلا حيث جعلوا له سبحانه أخس النوعين بل اثبات ذلك يستدعي الامكان

المؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون الها ولا بارئا ولا خالقا تعالى عما يقولون وسبحانه عما يصفون، وليس الكلام مساقا لتعديد الكفران كما قيل. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ١٥﴾ لا يقتضيه فان المراد المبالغة فى كفران النعمة وهى فى انكار الصانع أشد من المبالغة فى كفرهم به كما أشير اليه، و«مبين» من أبان اللازم أى ظاهر الكفران، وجوز أن يكون من المتعدى أى مظهر كفرانه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ (أم) مقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال والهمزة للانكار والتعجيب من شأنهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ١٦﴾ إما عطف على «اتخذ» داخل فى حكم الانكار والتعجيب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه، والالتفات الى خطابهم لتشديد الانكار أى بل اتخذ سبحانه من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أن اضافة اتخاذ الولد اليه سبحانه جائزة فرضا أما تفطنتم لما ارتكبتم من الشطط فى القسمة وقبح ما ادعيتم من أنه سبحانه آثركم على نفسه بخير الجزئين وأعلاهما وترك له جل شأنه شرهما وأدناهما فما انتم الا فى غاية الجهل والحماقة، وتنكير بنات وتعريف البنين لقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ قيل: حال وارتضاه العلامة الثانى على معنى أنهم نسبوا اليه تعالى ما ذكروا من حالهم أن أحدهم إذا بشر به اغتم، وقيل: استئناف مقرر لما قبله، وجوز عطفه على ما قبله وليس بذاك. والالتفات للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيبا، والجملة الأسمية فى موضع الحال أى اذا أخبر أحدهم بجنس ما جعله مثلا للرحمن جل شأنه وهو جنس الاناث لأن الولد لابد أن يجانس الولد ويماثله صار وجهه أسود فى الغاية لسوء ما بشر به عنده والحال هو مملوء من الكرب والكآبة، وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت.

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا وليس لنا من أمرنا ماشينا
وانما نأخذ ما أعطينا

وقرئ «مسود» بالرفع و«مسواد» بصيغة المبالغة من اسواد كاحمار مع الرفع أيضا على أن فى «ظل» ضمير المبشر ووجهه مسود أو مسواد جملة واقعة موقع الخبر، والمعنى صار المبشر مسود الوجه وقيل: الضمير المستتر فى «ظل» ضمير الشأن والجملة خبرها، وقيل: الفعل تام والجملة حالية والوجه ما تقدم، وقوله تعالى:

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ تكرير للانكار و«من» منصوبة المحل بمضمر مطعوف على «جعلوا» وهناك مفعول محذوف أيضا أى أو جعلوا له تعالى من شأنه أن يتربى فى الزينة وهن البنات كما قال ابن عباس: ومجاهد وقتادة. والسدى: ولدا فالهمزة لانكار الواقع واستقباحه.

وجوز انتصاب «من» بمضمر معطوف على «اتخذ» فالهمزة حينئذ لانكار الوقوع واستبعاده، واقحامها بين المعطوفين لتذكير ما فى أم المنقطعة من الانكار، والعطف للتغاير العنوانى أى أو اتخذ سبحانه من هذه الصفة الذميمة ولدا ﴿وَهُوَ﴾ مع ماذكر من القصور ﴿فِي الْخِصَامِ﴾ أى الجدال الذى لا يكاد يخلو عنه انسان فى العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ غير قادر على تقرير دعواه واقامته حجته لنقصان عقله وضعف رأيه، والجار متعلق

بمبين، وإضافة (غير) لا تمنع عمل مابعدها فيه لأنه بمعنى النفى فلاحاجة لجعله متعلقا بمقدر ، وجوز كون من مبتدأ محذوف الخبر أى أومن حاله كيت وكيت ولده عزوجل، وجعل بعضهم خبره جعلوه ولدا لله سبحانه وتعالى أواتخذه جل وعلا ولدا ، وعن ابن زيد أن المراد بمن ينشأ فى الحلية الاصنام قال: وكانوا يتخذون كثيرا منها من الذهب والفضة ويجعلون الحلى على كثير منها ، وتعقب بأنه يبعد هذا القول قوله تعالى : (وهو فى الخصام غير مبين) إلا إن اريد بنفى الابانة نفى الخصام أى لا يكون منها خصام فابانة كقوله * على لاحب لايهتدى بمناره *

وعندى أن هذا القول بعيد فى نفسه وأن الكلام أعنى قوله سبحانه: (أم اتخذ) إلى هنا وارد لمزيد الانكار فى أنهم قوم من عادتهم المناقضة ورمى القول من غير علم، وفى المجىء بأم المنقطعة ومافى ضمنها من الاضراب دليل على أن معتمد الكلام اثبات جهلهم ومناقضتهم لا اثبات كفرهم لكنه يفهم منه كما سمعت وتسمع إن شاء الله تعالى ، وقرأ الجحدرى فى رواية (ينشأ) مبنيا للمفعول مخففا ، وقرأ الحسن فى رواية أيضا (يناشأ) على وزن يفاعل مبنيا للمفعول، والمناشاة بمعنى الانشاء كالمغالاة بمعنى الاغلاء ، وقرأ الجمهور (ينشأ) مبنيا للفاعل، والآية ظاهرة فى أن النشوء فى الزينة والنعومة من المعايب والمذام وأنه من صفات ربات الحجال فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ويربأ بنفسه عنه ويعيش كما قال عمر رضى الله تعالى عنه اخشوشنوا فى اللباس واخشوشبوا فى الطعام وتمعددوا وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى، وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَٰئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ أى سموا وقالوا :إنهم أناث، قال الزجاج: الجعل فى مثله بمعنى القول والحكم على الشىء تقول: جعلت زيدا اعلم الناس أى وصفته بذلك وحكمت به، واختار أبو حيان أن المعنى صيروهم فى اعتقادهم اناثا اعتراض وارد لإثبات مناقضتهم أيضا وادعاء مالاعلم لهم به المؤيد لجعله معتمد الكلام على ماسبق آنفا فانهم أنثوهم فى هذا المعتقد من غير استناد إلى علم فارشد الى أن ماهم عليه من اثبات الولد مثل ماهم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام فى أنهما سخف وجهل كانا كفرين أولا، نعم هما فى نفس الامر كفران، أما الأول فظاهر، وأما الثانى فللاستخفاف برسله سبحانه أعنى الملائكة وجعلهم أنقص العباد رأيا وأخسهم صنفا وهم العباد المكرمون المبرأون من الذكورة والانوثة فانهما من عوارض الحيوان المتغذى المحتاج الى بقاء نوعه لعدم جريان حكمة الله تعالى ببقاء شخصه وليس ذلك عطفا على قوله سبحانه: (وجعلوا له من عباده جزأ) لما علمت من أن الجملة فى موضع الحال من فاعل (ليقولن) ولا يحسن بحسب الظاهر أن يقال. (ليقولن خلقهن العزيز العليم) وقد جعلوا الملائكة اناثا ، وقرىء عبيد جمع عبد وكذا (عباد) وقيل: عباد جمع عابد كصائم وصيام وقائم وقيام ، وقرأ عمر بن الخطاب . والحسن . وأبو رجاء . وقتادة . وأبو جعفر . وشيبة . والاعرج . والابنان. ونافع (عندالرحمن) ظرفا وهو أدل على رفع المنزلة وقرب المكانة، والكلام على الاستعارة فى المشهور لاستحالة العندية المكانية فى حقه سبحانه ، وقرأ أبى عبدالرحمن بالباء مفرد عباد، والمعنى على الجمع بارادة الجنس *

وقرأ الاعمش (عباد) بالجمع والنصب حكاها ابن خالويه وقال: هى فى مصحف ابن مسعود كذلك، وخرج أبو حيان النصب على اضمار فعل أى الذين هم خلقوا عباد الرحمن ، وقرأ زيد بن على (أنثا) بضمتين ككتب جمع اناثا فهو جمع الجمع ، وعلى جميع القراءات الحصر إذا سلم اضافى فلايتم الاستدلال به على أفضلية الملك على البشر *

﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى أحضروا خلق الله تعالى إياهم فشاهدوهم اناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فان ذلك مما يعلم

بالمشاهدة، وهذا كقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون) وفيه تجهيل لهم وتهكم بهم، وإنما لم يتعرض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المطلب مفرعة على القول بالنبوة وهم الكفرة الذين لا يقولون بها ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها والنفي المذكور أظهر في التهكم فافهم، وقرأ نافع (أأشهدوا) بهمزة داخلة على أشهد الرباعي المبني للمفعول، وفي رواية أنه سهل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو وهي رواية عن أبي عمرو، وروى ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس. ومجاهد، وفي أخرى أنه سهلها وأدخل بينها وبين الاولى ألفا كراهة اجتماع همزتين ونسبت الى جماعة، والاكتفاء بالتسهيل أوجه، وقرأ الزهري وناس (اشهدوا) بغير استفهام مبنيا للمفعول رباعيا فقيل المعنى على الاستفهام نحو قوله: * قالوا تحبها قلت بهرا * وهو الظاهر، وقيل: على الاخبار، والجملة صفة (اناثا) وهم وإن لم يشهدوا خلقهم لكن نزلوا لجراءتهم على ذلك منزلة من أشهد أو المراد أنهم أطلقوا عليهم الاناث المعروفات لهم اللاتي اشهدوا خلقهن لا صنفا آخر من الاناث؛ ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلف ﴿ سَتُكْتَبُ ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿ شَهَادَتُهُمْ ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة عليهم السلام، وقيل: سألهم الرسول ﷺ ما يدريكم أنهم اناث فقالوا: سمعنا ذلك من آبائنا ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا فقال الله تعالى: (ستكتب شهادتهم) ﴿ وَيُسْأَلُونَ ١٩ ﴾ عنها يوم القيامة، والكلام وعيد لهم بالعقاب والمجازاة على ذلك والسين للتأكيد، وقيل: يجوز أن تحمل على ظاهرها من الاستقبال ويكون ذلك اشارة الى تأخير كتابة السيآت لرجاء التوبة والرجوع كما ورد في الحديث إن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيآت فاذا أراد أن يكتبها قال له: توقف فيتوقف سبع ساعات فان استغفر وتاب لم يكتب فلما كان ذلك من شأن الكتابة قرنت بالسين، وكونهم كفارا مصرين على الكفر لا يأباه. وقرأ الزهري (سيكتب) بالياء التحتية مبنيا للمفعول، وقرأ الحسن كالجمهور الا أنه قرأ (شهاداتهم) بالجمع وهي قولهم: ان لله سبحانه جزأ وان له بنات وانها الملائكة، وقيل: المراد ما أريد بالمفرد والجمع باعتبار التكرار، وقرأ ابن عباس. وزيد بن علي. وأبو جعفر. وأبو حيوة. وابن أبي عبلة. والجحدري. والاعرج (سنكتب) بالنون مبنيا للفاعل (شهادتهم) بالنصب والافراد *

وقرأت فرقة (سيكتب) بالياء التحتية مبنيا للفاعل وبافراد (شهادتهم) ونصبها أي سيكتب الله تعالى شهادتهم *

وقرئ (يساءلون) من المفاعلة للمبالغة ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ عطف على قوله سبحانه: (وجعلوا الملائكة) الخ اشارة الى أنه من جنس ادعائهم أنوثة الملائكة في أنهم قالوه من غير علم، ومرادهم بهذا القول على ما قاله بعض الاجلة الاستدلال بنفي مشيئة الله تعالى ترك عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها أو على حسنها فكأنهم قالوا: ان الله تعالى لم يشأ ترك عبادتنا الملائكة ولو شاء سبحانه ذلك لتحقق بل شاء جل شأنه العبادة لأنها المتحققة فتكون مأمورا بها أو حسنة ويمتنع كونها منهيا عنها أو قبيحة، وهو استدلال باطل لأن المشيئة لا تستلزم الأمر أو الحسن لأنها ترجيح بعض الممكنات على بعض حسنا كان أو قبيحا فلذلك جهلوا بقوله سبحانه: ﴿ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ القول على الوجه الذي قصدوه منه، وحاصله يرجع الى الاشارة الى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباق الأمر لها أو حسن ما تعلقت به ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ يستند الى سند ما *

﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠ ﴾ أي يكذبون كما فسره به غير واحد، ويطلق الخرص على الحزر وهو شائع

بل قيل: إنه الاصل وعلى كل هو قول عن ظن وتخمين، وقوله تعالى:

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١ ﴾ اضراب عن نفي أن يكون لهم بذلك علم من طريق العقل الى ابطال أن يكون لهم سند من جهة النقل، فأم منقطعة لا متصلة معادلة لقوله تعالى: (أشهدوا) كما قيل لبعده وضمير (قبله) للقرآن لعلمه من السياق أو الرسول عليه الصلاة والسلام، وسين مستمسكون للتأكيد لا للطلب أي بل آتيناهم كتابا من قبل القرآن أو من قبل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ينطق بصحة ما يدعونه فهم بذلك الكتاب متمسكون وعليه معولون، وقوله جل وعلا:

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ٢٢ ﴾ ابطال لأن يكون لهم حجة أصلا أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية وانما جنحوا فيه الى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم، والامة الدين والطريقة التي تؤم أي كالرحلة للرجل العظيم الذي يقصد في المهمات يقال: فلان لا أمة له أي لا دين ولا نحلة، قال الشاعر: * وهل يستوي ذو أمة وكفور * وقال قيس بن الخطيم:

كنا على امة آبائنا ويقتدي بالأول الآخر

وقال الجبائي: الامة الجماعة والمراد وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك، والجمهور على الأول وعليه المعول، ويقال فيها إمة بكسر الهمزة أيضا وبها قرأ عمر بن عبد العزيز. ومجاهد. وقتادة. والجحدري،

وقرأ ابن عياش (أمة) بفتح الهمزة، قال في البحر: أي على قصد وحال، و(على اثارهم مهتدون) قيل خبران لان، وقيل: على آثارهم صلة «مهتدون» ومهتدون هو الخبر، هذا وجعل الزمخشري الآية دليلا على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر وانما شاء سبحانه الايمان، وكفر أهل السنة القائلين بأن المقدورات كلها بمشيئة الله تعالى، ووجه ذلك بأن الكفار لما ادعوا أنه تعالى شاء منهم الكفر حيث قالوا: (لو شاء الرحمن) الخ أي لو شاء جل جلاله منا أن نترك عبادة الاصنام تركناها رد (الله) تعالى ذلك عليهم وأبطل اعتقادهم بقوله سبحانه: (مالهم بذلك من علم) الخ فازم حقيقة خلافه وهو عين ما ذهب اليه، والجملة عطف على قوله تعالى: (وجعلوا له من عباده جزأ) أو على (جعلوا الملائكة) الخ فيكون ما تضمنته كفرا آخر ويلزمه كفر القائلين بأن الكل بمشيئته عز وجل، وبما سمعت يعلم رده، وقيل: في رده أيضا: يجوز أن يكون ذلك اشارة الى أصل الدعوى وهو جعل الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا دون ما قصدوه من قولهم: (لو شاء) الخ وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمتها فانه حكاية شبهتهم المزيفة لأن العبادة للملائكة وان كانت بمشيئته تعالى لكن ذلك لا ينافي كونها من أقبح القبائح المنهي عنها وهذا خلاف الظاهر

وقال بعض الأجلة: إن كفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء، ورده الزمخشري بأن السياق لا يدل على أنهم قالوه مستهزئين، على الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذم والشهادة بالكفر أنهم جعلوا له سبحانه جزأ وأنه جل وعلا اتخذ بنات واصطفاهم بالبنين وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين اناثا وأنهم عبدوهم وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء لكان النطق بالمحكيات قبل هذا المحكي الذي هو ايمان عنده لوجدوا بالنطق به مدحا لهم من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء فبقي أن يكونوا

جادين ويشترك كلها فى أنها كلمات كفر ، فان جعلوا الاخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ماقبله فما بهم الا تعويج كتاب الله تعالى ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزأ لم يكن لقوله سبحانه : (مالهم بذلك من علم) الخ معنى لأن الواجب فيمن تكلم بالحق استهزاء أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، ولايخفى أن رده بأنه لايدل عليه السياق صحيح ، وأما ما ذكر من حكاية الله سبحانه والتعويج فلا لأنه تعالى ما حكى عنهم قولا أولا بل أثبت لهم اعتقادا يتضمن قولا أوفعلا وقد بين أنهم مستخفون فى ذلك العقد كما أنهم مستخفون فى هذا القول فقوله : لو نطقوا الخ لامدخل له فى السابق وليس فيه تعويج البتة من هذا الوجه وكذلك قوله: لم يكن لقوله تعالى : (ما لهم) الخ معنى مردود لأن الاستهزاء باب من الجهل كما يدل عليه قول موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وقد تقدم فى البقرة ، وأما الكذب فراجع الى مضمونه والمراد منه كما سمعت فمن قال لا اله الا الله استهزاء مكذب فيما يلزم من أنه اخبار عن اثبات التعدد لأنه اخبار عن التوحيد فافهم كذا فى الكشف *

وفيه أيضا أن قولهم : (لو شاء الرحمن) الخ فهم منه كونه كفرا من أوجه . احدها أنه اعتذار عن عبادتهم الملائكة عليهم السلام التى هى كفر والزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن منكرا *

والثانى أن الكفر والايمان بتصديق ما هو مضطر الى العلم بثبوته بديهة أواستدلالا متعلقا بالمبدأ والمعاد وتكذيبه لا بايقاع الفعل على وفق المشيئة وعدمه *

والثالث أنهم دفعوا قول الرسل بدعوتهم الى عبادته تعالى ونهيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المقالة ثم انهم ملزمون على مساق هذا القول لأنه اذا استند الكل الى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء ارسال الرسل وشاء دعوتهم للعباد وشاء سبحانه جحودهم وشاء جل وعلا دخولهم النار فالانكار والدفع بعد هذا القول دليل على أنهم قالوه لاعن اعتقاد بل مجازفة ، واليه الاشارة بقوله تعالى فى مثله : (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) وفيه أنهم يعجزون الخالق باثبات التمانع بين المشيئة وضد المأمور به فيلزم أن لايريد الا ما أمر سبحانه به ولا ينهى جل شأنه الا وهو سبحانه لايريده وهذا تعجيز من وجهين . اخراج بعض المقدورات عن أن يصير محلها وتضييق محل أمره ونهيه ، وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القدرية ، ولهذه النكتة جعل قولهم : (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم) معتمد الكلام ولم يقل: وعبدوا الملائكة وقالوا: لوشاء ، ونظير قولهم فى أنه انما أتى به لدفع ما علم ضرورة قوله تعالى عنهم : (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) فالدفع كفر والتعجيز كفر فى كفر ، وقوله تعالى : (مالهم بذلك من علم) يحتمل أن يرجع الى جميع ماسبق من قوله تعالى (وجعلوا له من عباده) الى هذا المقام ويحتمل أن يرجع الى الاخير فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم وهو الاظهر للقرب وتعقيب كل بانكار مستقل وطباقه لما فى الانعام ، وقوله سبحانه: (ان هم الا يخرصون) على هذا التكذيب المفهوم منه راجع الى استنتاج المقصود من هذه اللزومية فقد سبق أنها عليهم لالهم ولوح الى طرف منه فى سورة الانعام أو الى الحكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاك حال حكمه فان ذلك يدل على كذبه وان كان ذلك الحكم فى نفسه حقا صحيحا يحق أن يعلم كما تقول زيد قائم قطعا أو البتة وعندك احتمال نقيضه *

وليس هذا رجوعا الى مذهب من جعل الصدق بطباقه للمعتقد فافهم ، على أنه لما كان اعتذارا على ما مر صح أن يرجع التكذيب الى أنه لايصلح اعتذارا أى أنهم كاذبون فى أن المشيئة تقتضى طباق الأمر لها ، وهذا ما آثره

الامام. والعلامة. والقاضى، والظاهر ما قدمناه. وتعقيب الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى: (مالهم بذلك من علم) وقوله تعالى: (إن يتبعون الا الظن) فى سورة الانعام دليل على ما أشرنا فقد لاح للمسترشد أن الآية تصلح حجة لأهل السنة لا للمعتزلة، وقال فى آية سورة الانعام: إن قولهم هذا إما لدعوى المشروعية رد للرسل أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذارا بأنهم مجبورون، والأول باطل لأن المشيئة تتعلق بفعلهم المشروع وغيره فما شاء الله تعالى أن يقع منهم مشروعا وقع كذلك وما شاء الله تعالى أن يقع لا كذلك وقع لا كذلك .

ولاشك أن من توهم أن كون الفعل بمشيئته تعالى ينافى مجىء الرسل عليهم السلام بخلاف ماعليه المباشر من الكفر والضلال فقد كذب التكذيب كله وهو كاذب فى استنتاج المقصود من هذه اللزومية، وظاهر الآية مسوق لهذا المعنى، والثانى على ما فيه من حصول المقصود وهو الاعتراف بالبطلان باطل أيضا إذ لاجبر لأن المشيئة تعلقت بأن يشركوا اختيارا منهم والعلم تعلق كذلك فهو يؤكد دفع القدر لأنه يحققه وإليه الاشارة بقوله تعالى: (قل فلله الحجة البالغة) ثم إنهم كاذبون فى هذا القول لجزمهم حيث لاظن مطلقا فضلا عن العلم وذلك لأن من المعلوم أن العلم بصفات الله سبحانه فرع العلم بذاته جل وعلا والايمان بها كذلك والمحتجون به كفرة مشركون مجسمون، ونقل العلامة الطيبى نحوا من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة فى الارشاد اهـ .

وقد أطال العلماء الأعلام الكلام فى هذا المقام وأرى الرجل سقى الله تعالى مرقده صيب الرضوان قد مخض كل ذلك وأتى بزبده بل لم يترك من التحقيق شيئا لمن أتى من بعده فتأمل والله عز وجل هو الموفق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة مطلقا وتشبثهم بذيل التقليد، وقوله سبحانه: ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣ ﴾ استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم لأسلافهم وأن متقدميهم أيضا لم يكن لهم سند منظور إليه وتخصيص المترفين بتلك المقالة للايذان بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد ﴿ قَالَ ﴾ حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أى قال: كل نذير من أولئك المنذرين لأمته ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم ﴾ أى أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿ بِأَهْدَىٰ ﴾ بدين أهدى ﴿ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ من الضلالة التى ليست من الهداية فى شىء، وإنما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على مسلك الانصاف .

وقرأ الأكثرون (قل) على أنه حكاية أمر ماض أوحى إلى كل نذير أى فقيل أو قلنا للنذير قل الخ، واستظهر فى البحر كونه خطابا لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم، والظاهر هو ما تقدم لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ٢٤ ﴾ فانه ظاهر جدا فى أنه حكاية عن الأمم السالفة أى قال كل أمة لنذيرها إنا بما أرسلتم به الخ وقد أجمل عند الحكاية للايجاز كما قرر فى قوله تعالى: (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات) .

وجعله حكاية عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه صلى الله تعالى عليه وسلم على سائر المنذرين وتوجيه كفرهم إلى ما أرسل به الكل من التوحيد لاجماعهم عليهم السلام عليه كما فى نحو قوله تعالى: (كذبت عاد المرسلين) تمحل بعيد، وأيضا يأباه ظاهر قوله سبحانه ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ٢٥ ﴾

فان ظاهره كون الانتقام بعذاب الاستئصال وصاحب البحر يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجلاء *

وقرأ أبي . وأبو جعفر . وشيبة . وابن مقسم . والزعفراني . وغيرهم (أولو جئناكم) بنون المتكلمين وهي تؤيد ماذهبنا اليه والأمر بالنظر فيما انتهى اليه حال المكذبين تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم وإرشاد إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ المكبين على التقليد كيف تبرأ مما هم فيه بقوله :

﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ ﴾ وتمسك بالبرهان، والكلام تمهيد لما أهل مكة فيه من العناد والحسد والاباء عن تدبر الآيات وأنهم لو قلدوا آباءهم لكان الأولى أن يقلدوا أباهم الأفضل الأعلم الذي هم يفتخرون بالانتماء اليه وهو إبراهيم عليه السلام فكأنه بعد تعييرهم على التقليد يعيرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضا *

وبراء مصدر كالطلاق نعت به مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث *

وقرأ الزعفراني . والقورصي عن أبي جعفر . وابن المناذري . عن نافع (براء) بضم الباء وهو اسم مفرد كطوال وكرام بضم الكاف، وقرأ الأعمش (بري) وهو وصف كطويل وكريم وقراءة العامة لغة العالية وهذه لغة نجد

وقرأ الأعمش أيضا (اني) بنون مشددة دون نون الوقاية ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استثناء متصل ان قلنا ان ماعامة لذوي العلم وغيرهم وانهم كانوا يعبدون الله تعالى والاصنام وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابه لما فيه من ايهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا لظهور مايدل على خلاف ذلك في الكلام أو منقطع بناء على أن ماختصة بغير ذوي العلم وانه لايناسب التغليب أصلا وانهم لم يكونوا يعبدونه تعالى أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل الا أن عبادته سبحانه مع الشرك في حكم العدم، وعلى الوجهين محل الموصول النصب ، وأجاز الزمخشري أن يكون في محل جر على أنه بدل من ماالمجرور بمن، وفيه بحث لأنه يصير استثناء من الموجب ولم يجوزوا فيه البدل، ووجهه أنه في معنى النفي لأن معنى (انني براء مما تعبدون) لا أعبد ماتعبدون فهو نظير قوله تعالى : (ويأبى الله الا أن يتم نوره) الا أن ذلك في المفرغ وهذا فيما ذكر فيه المستثنى منه وهم لايخصونه بالمفرغ ولا بألفاظ مخصوصة أيضا كأبى وقلما، نعم ان أباحيان يأبى الا أنه موجب ولا يعتبر النفي معنى ، وأجاز أيضا أن تكون (الا) صفة بمعنى غير على أن (ما) في ما(تبعدون) نكرة موصوفة والتقدير إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني فهو نظير قوله تعالى : (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) واعتبار مانكرة موصوفة بناء على أن الا لاتكون صفة الا لنكرة وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناء على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك ، والمسألة خلافية، فمن النحويين من قال إن الا يوصف بها المعرفة والنكرة مطلقا وعليه لايحتاج الى اعتبار كون مانكرة بمعنى آلهة، وفي جعل الصلة (فطرني) تنبيه على أنه لا يستحق العبادة الا الخالق للعابد ﴿ فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ٢٧ ﴾ يثبتني على الهداية فالسين للتأكيد لا للاستقبال لأنه جاء في الشعراء يهدين بدونها والقصة واحدة، والمضارع في الموضعين للاستمرار ، وقيل : المراد (سيهدين) إلى وراء ما هداني اليه أولا فالسين على ظاهرها والتغاير في الحكاية والمحكي بناء على تكرر القصة ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ الضمير المرفوع المستتر لابراهيم عليه السلام أو لله عز وجل والضمير المنصوب لكلمة التوحيد أعني لا إله

إلا الله كما روى عن قتادة . ومجاهد . والسدى ويشعر بها قوله : (إننى براء مما تعبدون) الخ ، وجوز أن يعود على هذا القول نفسه وهو أيضا كلمة لغة ﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ فى ذريته عليه السلام فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيده عز وجل *

وقرأ حميد بن قيس (كلمة) بكسر الكاف وسكون اللام وهى لغة فيها، وقرىء «فى عقبه» بسكون القاف تخفيفا و(فى عاقبه) أى من عقبه أى خلفه ومنه تسمية النبي ﷺ بالعاقب لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام *

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٨ ﴾ تعليل للجعل أى جعلها باقية فى عقبه كى يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد أو بسبب بقائها فيهم، والضميران للعقب وهو بمعنى الجمع، والأكثرون على أن الكلام بتقدير مضاف أى لعل مشركيهم أو الاسناد من اسناد ماللبعض الى الكل وأولوا لعل بناء على أن الترجى من الله سبحانه وهو لا يصح فى حقه تعالى أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء فى حكم المتحقق ويجوز ترك التأويل كما لا يخفى بل هو الأظهر اذا كان ذلك من ابراهيم عليه السلام *

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ﴾ أى أهل مكة المعاصرين للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ وَآبَاءَهُمْ ﴾ بالمد فى العمر والنعمة ﴿ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ دعوة التوحيد أو القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ٢٩ ﴾ ظاهر الرسالة بماله من المعجزات الباهرات أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج القاطعات ، والمراد بالتمتيع ماهو سبب له من استمتاعهم بما متعوا واشتغالهم بذلك عن شكر المنعم وطاعته والغاية لذلك فكأنه قيل اشتغلوا حتى جاء الحق وهى غاية له فى نفس الأمر لأن مجىء الرسول بما ينبه عن سنة الغفلة ويزجر عن الاشتغال بالملاذ لكنهم عكسوا فجعلوا ماهو سبب للتنصل سببا للتوغل فهو على أسلوب قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا) الى قوله سبحانه : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) ، و(بل متعت) اضراب عن قوله جل شأنه « لعلهم يرجعون » كأنه قيل بل متعت مشركى مكة وأشغلتهم بالملاهى والملاذ فاشتغلوا فلم يرجعوا أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشرك ، وهو فى الحقيقة اضراب عن التمهيد الذى سمعت وشروع فى المقصود لكن روعى فيه المناسبة بما قرب من جملة الاضراب أعنى «لعلهم يرجعون» وفى الحواشى الشهابية أنه اضراب عن قوله تعالى: (وجعلها) الخ أى لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أعطيتهم نعما أخر غير الكلمة الباقية لأجل أن يشكروا منعمها ويوحدوه فلم يفعلوا بل زاد طغيانهم لاغترارهم أو التقدير ما اكتفيت فى هدايتهم بجعل الكلمة باقية فيهم بل متعتهم وأرسلت رسولا . وقرأ قتادة . والاعمش «بل متعت» بتاء الخطاب ورواها يعقوب عن نافع وهو من كلامه تعالى على سبيل التجريد لا الالتفات وإن قيل به فى مثله أيضا كأنه تعالى اعترض بذلك على نفسه جل شأنه فى قوله سبحانه: «وجعلها» الخ لا لتقبيح فعله سبحانه بل لقصد زيادة توبيخ المشركين كما إذا قال المحسن على من أساء مخاطبا لنفسه: أنت الداعى لاساءته بالاحسان اليه ورعايته فيبرز كلامه فى صورة من يعترض على نفسه ويوبخها حتى كأنه مستحق لذلك وفى ذلك من توبيخ المسيء مافيه ، وقال صاحب اللوامح: هو من كلام ابراهيم عليه السلام ومناجاته ربه عز وجل ، وقال فى البحر: الظاهر أنه من مناجاة الرسول ﷺ على معنى قل يارب متعت ، والأول أولى وهو الموافق للاصل المشهور ، وقرأ الاعمش «متعنا» بنون العظمة *

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ لينبههم عماهم فيه من الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ٣٠ ﴾

زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحقروا رسول الله ﷺ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي من احدى القريتين مكة والطائف أو من رجالهما فمن ابتدائية أو تبعيضية، وقرىء (رجل) بسكون الجيم ﴿عَظِيمٍ ٣١﴾ بالجاه والمال قال ابن عباس: الذى من مكة الوليد بن المغيرة المخزومى والذى من الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى، وقال مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل، وقال قتادة: الوليد بن المغيرة. وعروة بن مسعود الثقفى، وكان الوليد بن المغيرة يسمى ريحانة قريش وكان يقول: لو كان مايقول محمد ﷺ حقا لنزل على أو على أبى مسعود يعنى عروة بن مسعود وكان يكنى بذلك، وهذا باب آخر من إنكارهم للنبوة وذلك أنهم أنكروا أولا أن يكون النبى بشرا ثم لما بكتوا بتكرير الحجج ولم يبق عندهم تصور ورواج لذلك جاؤا بالانكار من وجه آخر فتحكموا على الله سبحانه أن يكون الرسول أحد هذين وقولهم هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة لأنهم لم يقولوا هذه المقالة تسليما بل إنكاراً كأنه قيل: هذا الكذب الذى يدعيه لو كان حقا لكان الحقيق به رجل من القريتين عظيم وهذا منهم لجهلهم بأن رتبة الرسالة إنما تستدعى عظيم النفس بالتخلى عن الرذائل الدنية والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية، وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل وتعجيب من تحكمهم بنزول القرآن العظيم على من ارادوا، والرحمة يجوز أن يكون المراد بها ظاهرها وهو ظاهر كلام البحر ونزل تعيينهم لمن ينزل عليه الوحى منزلة التقسيم لها وتدخل النبوة فيها، ويجوز أن يكون المراد بها النبوة وهو الانسب لماقبل وعليه اكثر المفسرين، وفى اضافة الرب إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام مافيه، وفى اضافة الرحمة إلى الرب اشارة إلى أنها من صفات الربوبية ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ أسباب معيشتهم *

وقرأ عبد الله. وابن عباس. والاعمش. وسفيان (معايشهم) على الجمع ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها اليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية واطلاق المعيشة يقتضى أن يكون حلالها وحرامها من الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فى الرزق وسائر مبادى المعاش ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة بحسب القرب والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوى وغنى وفقير وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعمل بعضهم بعضا فى مصالحهم ويستخدموهم فى مهنهم ويسخروهم فى أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم لالكمال فى الموسع عليه ولالنقص فى المقتر عليه ولو فوضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فاذا كانوا فى تدبير خويصة أمرهم ومايصلحهم من متاع الدنيا الدنية وهو على طرف التمام بهذه الحالة فما ظنهم بانفسهم فى تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بامرها، والسخرى على ماسمعت نسبة إلى السخرة وهى التذليل والتكليف، وقال الراغب: السخرى هو الذى يقهر أن يتسخر بارادته، وزعم بعضهم أنه هنا من السخر بمعنى الهزء أى ليهزأ الغنى بالفقير واستبعده أبو حيان، وقال السمين: إنه غير مناسب للمقام *

وقرأ عمرو بن ميمون. وابن محيصن. وابن أبى ليلى. وأبو رجاء. والوليد بن مسلم (سخريا) بكسر السين والمراد به ماذكرنا أيضا، وفى قوله تعالى: (نحن قسمنا) الخ مايزهد فى الانكباب على طلب الدنيا ويعين على التوكل

على الله عز وجل والانقطاع اليه جل جلاله *

فاعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقا وبالحق نزل

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي النبوة ومايتبعها من سعادة الدارين ، وقيل : الهداية والايمان ، وقال قتادة . والسدى : الجنة ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢ ﴾ من حطام الدنيا الدنية فالعظيم من رزق تلك الرحمة دون ذلك الحطام الدنىء الفانى *

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ٣٣ ﴾ استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل ، والمعنى ان حقارة شأنه بحيث لولا كراهة أن يجتمع الناس على الكفر ويطبقوا عليه لأعطيناه على أتم وجه من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة ، فكراهة الاجتماع على الكفر هى المانعة من تمتيع كل كافر والبسط عليه لاان المانع كون متاع الدنيا له قدر عندنا ، والكراهة المذكورة هى وجه الحكمة فى ترك تنعيم كل كافر وبسط الرزق عليه فلامحذور فى تقديرها ، وليس ذلك مبنيا على وجوب رعاية المصلحة وارادة الايمان من الخلق ليكون اعتزالا كما ظن . وكأن وجه كون البسط على الكفار سببا للاجتماع على الكفر مزيد حب الناس للدنيا فاذا رأوا ذلك كفروا لينالوها ، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه علم أنه لو فعل ذلك لدعا الناس إذ ذاك حبهم للدنيا إلى الكفر ، فلا يقال : إن كثيرا من الناس اليوم يتحقق الغنى التام لو كفر ولايكفر ولو أكره عليه بالقتل ، وكون المراد بالامر الواحد الذى يقتضيه كونهم أمة واحدة فانه بمعنى اجتماعهم على أمر واحد الكفر بقرينة الجواب ، و(لبيوتهم) بدل اشتمال من قوله تعالى: (لمن يكفر) واللام فيهما للاختصاص أوهما متعلقان بالفعل لاعلى البدلية ولام لمن صلة الفعل لتعديه باللام فهو بمنزلة المفعول به ولام (لبيوتهم) للتعليل فهو بمنزلة المفعول له ، ويجوز أن تكون الاولى للملك والثانية للاختصاص كما فى قولك: وهبت الحبل لزيد لدابته واليه ذهب ابن عطية، ولايجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية إذ مقتضى اعادة العامل فى البدل الاتحاد فى المعنى وإلى هذا ذهب ابو حيان ، وقال الخفاجى: لامانع من أن يبدل المجموع من المجموع بدون اعتبار اعادة، والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن، وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن جمع سفينة، والمعارج جمع معرج وهو عطف على (سقفا) أى ولجعلنا لهم مصاعد عليها يعلون السطوح والعلالى وكأن المراد معارج من فضة بناء على أن العطف ظاهر فى التشريك فى القيد وإن تقدم، وقال أبو حيان: لايتعين ذلك ، وقرأ ابو رجاء (سقفا) بضم السين وسكون القاف تخفيفا وفى البحر هى لغة تميم *

وقرأ ابن كثير. وأبو عمرو بفتح السين والسكون على الافراد لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وما فوقه وهو المراد بقرينة البيوت، وقرىء بفتح السين والقاف وهى لغة فى سقف وليس ذلك تحريك ساكن لانه لاوجه له *

وقرىء (سقوفا) وهو جمع سقف كفلوس جمع فلس، وقرأ طلحة (معاريج) جمع معراج * ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ ﴾ أى ولجعلنا لبيوتهم، وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير ولانه ابتداء آية ﴿ أَبْوَابًا وَسُرُرًا ﴾ أى من فضة على ماسمعت، وقرىء (سررا) بفتح السين والراء وهى لغة لبنى تميم وبعض كلب وذلك فى جمع فعيل المضعف إذا كان اسما باتفاق وصفة نحو ثوب جديد وثياب جدد باختلاف بين النحاة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ يَتَّكِئُونَ ٣٤ ﴾

كما هو شأن الملوك لايهمهم شئ ﴿ وَزُخْرُفاً ﴾ قال الحسن: أي نقوشا وتزاويق ، وقال ابن زيد: الزخرف أثاث البيت وتجملاته وهو عليهما عطف على (سقفا) ، وقال ابن عباس. وقتادة . والشعبي . والسدي . والحسن أيضا في رواية الزخرف الذهب، وأكثر اللغويين ذكروا له معنيين هذا والزينة فقيل الظاهر أنه حقيقة فيهما ، وقيل: إنه حقيقة في الزينة ولكون كمالها بالذهب استعمل فيه أيضا، ويشير اليه كلام الراغب قال. الزخرف الزينة المزوقة ومنه قيل للذهب زخرف، وفي البحر جاء في الحديث اياكم والحمرة فانها من أحب الزينة إلى الشيطان ، وقال ابن عطية: الحسن أحمر والشهوات تتبعه، ولبعض شعراء المغرب :

وصبغت درعك من دماء كماتهم لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وهو على هذا عطف على محل (من فضة) كأن الاصل سقفا من فضة وزخرف يعني بعضها من فضة وبعضها من ذهب فنصب عطفا على المحل، وجوز عطفه على (سقفا) أيضا ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي وما كل ماذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة الاشئ يتمتع به في الحياة الدنيا وفي معناه ماقرىء (وماكل ذلك الامتاع الدنيا) وقرأ الجمهور (لما) بفتح اللام والتخفيف على أن (إن) هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المخففة وغيرها وما زائدة أو موصولة بتقدير لما هو متاع كما في قوله تعالى: «تماما على الذي أحسن» في قراءة من رفع النون ، وقرأ رجاء وفي التحرير أبو حيوة (لما) بكسر اللام والتخفيف على أن (إن) هي المخففة واللام حرف جر وما موصولة في محل جر بها والجار والمجرور في موضع الخبر لكل وصدر الصلة محذوف كما سمعت آنفا ، وحق التركيب في مثله الاتيان باللام الفارقة فيقال: للمامتاع لكنها حذفت لظهور ارادة الاثبات كما في قوله :

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

بل لايجوز في البيت ادخال اللام كما لايخفى على النحوي ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾ أي بما فيها من فنون النعيم التي لايحيط بها نطاق البيان ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥ ﴾ خاصة لهم، والمراد بهم من اتقى الشرك ، وقال غير واحد: من اتقى ذلك والمعاصي، وفي الآية من الدلالة على التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى مافيها ، وقد أخرج الترمذي وصححه. وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ماسقى منها كافرا شربة ماء» وعن علي كرم الله تعالى وجهه الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب في يد مجذوم، هذا واستدل بعضهم بقوله تعالى: (لبيوتهم سقفا) على أن السقف لرب البيت الاسفل لا لصاحب العلو لأنه منسوب إلى البيت ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ أي يتعام ويعرض ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ وهو القرآن، واضافته إلى الرحمن للايذان بنزوله رحمة للعالمين، وجوز أن يكون مصدرا أضيف إلى المفعول أي من يعش عن أن يذكر الرحمن. وأن يكون مصدرا أضيف إلى الفاعل أي عن تذكير الرحمن عباده سبحانه ، وقرأ يحيى بن سلام البصري (يعش) بفتح الشين كيرض أي يعم يقال: عشي كرضي إذا حصلت الآفة في بصره وعشا كغزا إذا نظر نظر العشي لعارض قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

أي تنظر اليها نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء ولو لم يكن كذلك لم يكن لكلمة

الغاية موقع وأظهر منه فى المقصود قول حاتم :

أعشو إذا ماجارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر

لأنه قيد بالوقت وأتى بالغاية وماهو خلقى لايزول، وقال بعضهم: لم أر احدا يجيز عشوت عنه إذا اعرضت وإنما يقال تعاشيت وتعاميت عن الشىء إذا تغافلت عنه كأنك لم تره ويقال: عشوت إلى النار إذا استدللت عليها ببصر ضعيف، وهو مالا يلتفت اليه ومثله عشى وعشا عرج بكسر الراء لمن به الآفة وعرج بفتحها لمن مشى مشية العرجان من غير عرج على مافى الكشاف، وفيه خلاف لأهل اللغة فى القاموس يقال: عرج أى بالفتح إذا أصابه شىء فى رجله وليس بخلقة فاذا كان خلقة فعرج كفرح أو يثلث فى غير الخلقة ، وقرأ زيد بن على (يعشو) باثبات الواو وخرج ذلك الزمخشرى على أن من موصولة لاشرطية جازمة ، وجوز أن تكون شرطية والمدة إما للاشباع أو على لغة من يجزم المعتل الآخر بحذف الحركة على ماحكاه الاخفش ، وجوز كون الفعل مجزوما بحذف النون والواو ضمير الجمع ، وقد روعى فيه معنى من، وتخريج الزمخشرى مبنى على الفصيح المطرد المتبادر *

﴿ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ أى نتح له شيطانا ليستولى عليه استيلاء القيض على البيض وهو القشر الاعلى ﴿ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ٣٦ ﴾ دائما لايفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بمزيد اكتساب السيآت ، وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. والسلمى. والاعمش ويعقوب. وأبو عمرو بخلاف عنه. وحماد عن عاصم. وعصمة عن الاعمش وعن عاصم. والعليمى عن أبى بكر (يقيض) بالياء على اسناده إلى ضمير (الرحمن) ، وقرأ ابن عباس يقيض بالياء والبناء للمفعول (شيطان) بالرفع والفعل فى جميع القراءات مجزوم ولم نسمع أنه قرىء بالرفع ، وفى الكشاف حق من قرأ (من يعشو) بالواو أن يرفعه أى بناء على تخريجه ذلك على أن من موصولة، وجوز على ذلك أيضا أن يكون (يقيض) مرفوعا لكنه سكن تخفيفا *

وفى البحر يجوز أن تكون (من) موصولة وجزم (نقيض) تشبيها للموصول باسم الشرط وإذا كان ذلك مسموعا فى الذى وهو لم يكن اسم شرط قط فالاولى أن يكون فيما استعمل موصولا وشرطا ، قال الشاعر:

لا تحفرن بئرا تريد اخا بها فانك فيها أنت من دونه تقع

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما تصبه على رغم عواقب ماصنع

انشدهما ابن الاعرابى وهو مذهب للكوفيين، وله وجه من القياس وهو أنه كما شبه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء فى خبره فكذلك يشبه به فينجزم الخبر إلا أن دخول الفاء منقاس إذا كان الخبر مسببا عن الصلة بشروطه المذكورة فى النحو وهذا لا يقيسه البصريون ﴿ وَإِنَّهُمْ ﴾ أى الشياطين الذين قيض وقدر كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ أى ليصدون قرناءهم وهم الكفار المعبر عنهم بمن يعش ، وجمع ضمير الشيطان لأن المراد به الجنس ، وجمع ضمير من رعاية للمعنى كما أفرد أولا رعاية للفظ . وفى الانتصاف أن فى هذه الآية نكتتين بديعتين الأولى الدلالة على أن النكرة الواقعة فى سياق الشرط تفيد العموم وهى مسئلة أضطرب فيها الاصوليون وإمام الحرمين من القائلين بافادتها العموم حتى استدرك على الأئمة اطلاقهم القول بأن النكرة فى سياق الاثبات تخص ، وقال إن الشرط يعم والنكرة فى سياقه تعم وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن

على الابيارى شارح كتابه ردا عنيفا، وفى هذه الآية للامام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا فى سياق شرط ونحن نعلم أنه انما اريد عموم الشياطين لا واحد لوجهين. احدهما أنه قد ثبت أن لكل احد شيطانا فكيف بالعاشى عن ذكر الله تعالى والآخر من الآية وهو أنه اعيد عليه الضمير مجموعا فى قوله تعالى: (وانهم) فانه عائد الى الشيطان قولا واحدا ولولا افادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا اشكال، فهذه نكتة تجد عند سماعها لمخالفى هذا الرأى سكتة. النكتة الثانية أن فيها ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك واحتج لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة وقد نقض ذلك الكندى وغيره بآيات، واستخرج جدى من هذه الآية نقض ذلك أيضا لأنه أعيد الضمير على اللفظ فى (يعش. وله) وعلى المعنى فى (ليصدونهم) ثم على اللفظ فى (حتى اذا جاءنا) وقد قدمت أن الذى منع قد يكون اقتصر بمنعه على مجىء ذلك فى جملة واحدة وأما اذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك انتهى *

وفى كون ضمير (انهم) عائدا على الشيطان قولا واحدا نظر، فقد قال أبو حيان: الظاهر أن ضمير النصب فى (انهم ليصدونهم) عائد على من على المعنى وهو أولى من عود ضمير (انهم) على الشيطان كما ذهب اليه ابن عطية لتناسق الضمائر فى (انهم) وما بعده فلا تغفل ﴿ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ المستبين الذى يدعو اليه ذكر الرحمن ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ أى العاشون ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أى الشياطين ﴿ مُهْتَدُونَ ٣٧ ﴾ أى الى ذلك السبيل الحق والالما اتبعوهم أو ويحسب العاشون ان أنفسهم مهتدون فان اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما، والظاهر أن أبا حيان يختار هذا الوجه للتناسق أيضا، والجملة حال من مفعول (يصدون) بتقدير المبتدا أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أى وانهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم يحسبون أنهم مهتدون اليه *

وصيغة المضارع فى الافعال الاربعة للدلالة على الاستمرار التجددى لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَنَا ﴾ فان (حتى) وان كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضى حتما أن تكون غاية لامر ممتد وأفرد الضمير فى جاء ومابعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد من العاشين لقرينه لتهويل الامر وتفظيع الحال والمعنى يستمر أمر العاشين على ما ذكر حتى اذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿ قَالَ ﴾ مخاطبا له: ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ أى فى الدنيا، وقيل: فى الآخرة ﴿ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أى بعد كل منهما من الآخر، والمراد بهما المشرق والمغرب كما اختاره الزجاج والفراء وغيرهما لكن غلب المشرق على المغرب وثنيا كالموصلين للموصل والجزيرة وأضيف البعد اليهما، والاصل بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق وإنما اختصر هذا المبسوط لعدم الالباس إذ لاخفاء أنه لايراد بعدهما من شىء واحد لأن البعد من احدهما قرب من الآخر ولأنهما متقابلان فبعد أحدهما من الآخر مثل فى غاية البعد لابعدهما عن شىء آخر، واشعار السياق بالمبالغة لا ينكر فلا لبس من هذا الوجه أيضا، وقال ابن السائب: لاتغايب، والمراد مشرق الشمس فى أقصر يوم من السنة ومشرقها فى أطول يوم منها ﴿ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ٣٨ ﴾ أى أنت، وقيل: أى هو على أنه من كلامه تعالى وهو كما ترى *

وقرأ أبو جعفر. وشيبة. وأبو بكر. والحرميان. وقتادة. والزهرى. والجحدرى (جاءانا) على التثنية أى العاشى والقرين

وقوله تعالى: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ ﴾ الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخا وتقريعا، وفاعل (ينفعكم) ضمير مستتر يعود على ما يفهم مما قبل أي لن ينفعكم هو أي تمنيكم لمباعدتهم أو الندم أو القول المذكور ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إِذْ ظَلَمْتُمْ ﴾ بدل من (اليوم) أي اذ تبين انكم ظلمتم في الدنيا قاله غير واحد، وفسر ذلك بالتبين قيل لئلا يشكل جعله وهو ماض بدلا من (اليوم) وهو مستقبل لأن تبين كونهم ظالمين عند أنفسهم انما يكون يوم القيامة فاليوم وزمان التبين متحدان وهذا كقوله ۞ اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ۞ وأورد عليه أن السؤال عائد لأن (اذ) ظرف للمضى من الزمان ولا يخرج عن ذلك باعتبار التبين وتفصى بعضهم عن الاشكال بأن اذ قد تخرج من المضى الى الاستقبال على ما ذهب اليه جماعة منهم ابن مالك محتجا بقوله تعالى: (فسوف يعلمون اذ الاغلال) والى الحال كما ذهب اليه بعضهم محتجا بقوله سبحانه: (ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه) فلتكن هنا للاستقبال، وأهل العربية يضعفون دعوى خروجها من المضى ۞

وقال الجلبي: لعل الاظهر حملها على التعليل فيتعلق بالنفي، فقد قال سيبويه: إنها بمعنى التعليل حرف بمنزلة لام العلة، نعم أنكر الجمهور هذا القسم لكن اثبات سيبويه اياه يكفي حجة ۞ فان القول ما قالت حذام ۞ وتعقب بأنه لا يكفي في تخريج كلام الله سبحانه اثبات سيبويه وحده مع اطباق جميع أئمة العربية على خلافه، وأيضا تعليل النفي بعد يبعده وقال أبو حيان: لا يجوز البدل على بقاء اذ على موضوعها من كونها ظرفا لما مضى من الزمان فان جعلت لمطلق الوقت جاز، ولا يخفى أن ذلك مجاز فهل تكفي البدلية قرينة له فان كفت فذاك، وقال ابن جنى: راجعت أبا علي في هذه المسئلة يعني الابدال المذكور مرارا وآخر ما تحصل منه أن الدنيا والآخرة متصلتان وهما سواء في حكم الله سبحانه وعلمه جل شأنه اذ لا يجري عليه عز وجل زمان فكأن (اذ) مستقبل أو (اليوم) ماض فصح ذلك، ورد بأن المعتبر حال الحكاية والكلام فيها وارد على ما تعارفه العرب ولولاه لسد باب النكات ولغت الاعتبارات في العبارات ومثله غني عن البيان، وقال أبو البقاء: التقدير بعد اذ ظلمتم فحذف المضاف للعلم به، وقال الحوفي: (اذ) متعلقة بما دل عليه المعنى كأنه قيل ولن ينفعكم اليوم اجتماعكم اذ ظلمتم مثلا ۞

ومن الناس من استشكل الآية من حيث أن فيها إعمال (ينفعكم) الدال على الاستقبال لاقترانه بلن في اليوم وهو الزمان الحاضر واذ وهو للزمان الماضي، وأجيب بانه يدفع الثاني بما قدروه من التبين لأن تبين الحال يكون في الاستقبال والاول بأن (اليوم) تعريفه للعهد وهو يوم القيامة لا للحضور كتعريف الآن وان كان نوعا منه ۞

وقيل: يدفع بان الاستقبال بالنسبة الى وقت الخطاب وهو بعض أوقات اليوم وهو كما ترى فتأمل ولا تغفل ۞

وقوله تعالى: ﴿ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٩ ﴾ تعليل لنفي النفع أي لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا ۞

وجوز أن يكون الفعل مسندا اليه أي لن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه لتعاونهم في تحمل اعبائه وتقسمهم لشدته وعنائه وذلك أن كل واحد منكم به من العذاب مالا تبلغه طاقته أو لن ينفعكم ذلك من حيث التأسي فان المكروب يتأسى ويتروح بوجدان المشارك وهو الذي عنته الخنساء بقولها:

يذكرني طلوع الشمس صخرا   وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن اعزى النفس عنه بالتأسى

فهؤلاء يؤسيهم اشتراكهم ولا يروحهم لعظم ماهم فيه أولن ينفعكم ذلك من حيث التشفى أى لن يحصل لكم التشفى بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم: (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وقولكم: (فآتهم عذابا ضعفا من النار) لتتشفوا بذلك، واعترض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأن الانتفاع بالتعاون فى تحمل أعباء العذاب ليس مايخطر ببالهم حتى يردعليهم بنفيه، وأجيب بأنه غير بعيد أن يخطر ذلك ببالهم لمكان المقارنة والصحبة والغريق يتشبث بالحشيش والظمآن يحسب السراب شرابا *

وقرأ ابن عامر (إنكم) بكسر الهمزة وهو تقوى ماذكر أولا من إضمار الفاعل وتقدير اللام فى أنكم معنى ولفظا لأنه لايمكن أن يكون فاعلا فيتعين الاضمار، ولأن الجملة عليها تكون استئنافا تعليليا فيناسب تقدير اللام لتتوافق القراءتان، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا فى الكفر واعتادوه واستغرقوا فى الضلال بحيث صار ماهم من العشى عمى مقرونا بالصمم ﴿وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٤٠﴾ عطف على العمى باعتبار تغاير الوصفين أعنى العمى والضلال بحسب المفهوم وإن اتحدا مآلا، ومدار الانكار هو التمكن والاستقرار فى الضلال المفرط الذى لا يخفى لاتوهم القصور منه عليه الصلاة والسلام ففيه رمز إلى أنه لايقدر على ذلك إلا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم يبالغ فى المجاهدة فى دعاء قومه وهم لايزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزلت (أفأنت) الخ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فان قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّنْتَقِمُونَ ٤١﴾ لامحالة فى الدنيا والآخرة واقتصر بعضهم على عذاب الآخرة لقوله تعالى فى آية أخرى: (أو نتوفينك فالينا يرجعون) والقرآن يفسر بعضه بعضا، وما ذكرنا أتم فائدة وأوفق باطلاق الانتقام، وأما تلك الآية فلدس فيها ذكره، ومامزيدة للتأكيد وهى بمنزلة لام القسم فى استجلاب النون المؤكدة *

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ أى أو أردنا أن نريك العذاب الذى وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ٤٢﴾ بحيث لامناص لهم من تحت ملكنا وقهرنا واعتبار الارادة لأنها أنسب بذكر الاقتدار بعد، وفى التعبير بالوعد وهو سبحانه لا يخلف الميعاد إشارة إلى أنه هو الواقع، وهكذا كان إذ لم يفلت أحد من صناديدهم فى بدر وغيرها إلا من تحصن بالايمان، وقرىء (نرينك) بالنون الخفيفة ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٤٣﴾ تسلية له صلى الله تعالى عليه وسلم وأمر له عليه الصلاة والسلام أو لأمته بالدوام على التمسك بالآيات والعمل بها، والفاء فى جواب شرط مقدر أى إذا كان أحد هذين الأمرين واقعا لامحالة فاستمسك بالذى أوحيناه اليك، وقوله تعالى: (إنك) الخ تعليل للاستمساك أو للامر به *

وقرأ بعض قراء الشام (أوحى) باسكان اللام، وقرأ الضحاك (أوحى) مبنيا للفاعل ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى ما أوحى اليك والمراد به القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف عظيم ﴿لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ هم قريش على ماروى عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة. والسدى. وابن زيد *

وأخرج ابن عدى. وابن مردويه عن على كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس رضى الله تعالى عنهما قالا: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل بمكة ويعدهم الظهور فاذا قالوا: لمن الملك بعدك أمسك فلم يجبهم بشىء لأنه عليه الصلاة والسلام لم يؤمر فى ذلك بشىء حتى نزلت (وإنه لذكر لك ولقومك) فكان صلى الله تعالى عليه وسلم بعد إذا سئل قال لقريش: فلا يجيبونه حتى قبلته الأنصار على ذلك *

وأخرج الطبرانى. وابن مردويه. عن عدى بن حاتم قال: «كنت قاعدا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: ألا إن الله تعالى علم مافى قلبى من حبى لقومى فبشرنى فيهم فقال سبحانه: (وإنه لذكر لك ولقومك) الآية فجعل الذكر والشرف لقومى فى كتابه» الحديث، وفيه «فالحمد لله الذى جعل الصديق من قومى والشهيد من قومى إن الله تعالى قلب العباد ظهرا وبطنا فكان خير العرب قريش وهى الشجرة المباركة إلى أن قال عدى: ما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر عنده قريش بخير قط إلا سره حتى يتبين ذلك السرور فى وجهه للناس كلهم وكان عليه الصلاة والسلام كثيرا مايتلو هذه الآية (وإنه لذكر لك ولقومك) الخ، وقيل هم العرب مطلقا لما أن القرآن نزل بلغتهم ثم يختص بذلك الشرف الأخص فالأخص منهم حتى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثم لبنى هاشم أكثر مما يكون لسائر قريش، وفى رواية عن قتادة هم من اتبعه صلى الله تعالى عليه وسلم من أمته *

وقال الحسن: هم الأمة والمعنى وإنه لتذكرة وموعظة لك ولأمتك، والأرجح عندى القول الأول

﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ٤٤﴾ يوم القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه، وقال الحسن. والكلبى. والزجاج: تسئلون عن شكر ما جعله الله تعالى لكم من الشرف، قيل إن هذه الآية تدل على ان الانسان يرغب فى الثناء الحسن والذكر الجميل إذ لو لم يكن ذلك مرغوبا فيه ماأمتن الله تعالى به على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والذكر الجميل قائم مقام الحياة ولذا قيل ذكر الفتى عمره الثانى، وقال ابن دريد:

وإنما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال آخر إنما الدنيا محاسنها * طيب مايبقى من الخبر

ويحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه من الملك؟ فقالوا: له أنت الذى دوخت البلاد وملكت الأرض وطاعتك الملوك وكان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال لا الملك هذا الذى له أزيد من ستمائة سنة قد مات وهو يذكر على المآذن فى كل يوم وليلة خمس مرات يريد محمدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم *

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ٤٥﴾ أى هل حكمنا بعبادة غير الله سبحانه وهل جاءت فى ملة من ملل المرسلين عليهم السلام والمراد الاستشهاد باجماع المرسلين

على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يكذب ويعادى له، والكلام بتقدير مضاف أى واسأل أمم من أرسلنا أو على جعل سؤال الأمم بمنزلة سؤال المرسلين اليهم *

قال الفراء: هم إنما يخبرون عن كتب الرسل فاذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المرسلين عليهم السلام، وعلى الوجهين المسئول الأمم، وروى ذلك عن الحسن. ومجاهد. وقتادة. والسدى. وعطاء وهو رواية عن ابن عباس أيضاً *

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال فى بعض القراءات واسأل من أرسلنا اليهم رسلنا قبلك *

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال: كان عبد الله يقرأ واسأل الذين ارسلنا اليهم قبلك من رسلنا، وعن ابن مسعود أنه قرأ واسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبل مؤمنى أهل الكتاب، وجعل بعضهم السؤال مجازا عن النظر والفحص عن مللهم فى سؤال الديار والاطلال ونحوها من قولهم: سل الارض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك *

وروى عن ابن عباس أيضا. وابن جبير. والزهرى. وابن زيد أن الكلام على ظاهره وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلة الاسراء حين جمع له الانبياء فى البيت المقدس فامهم ولم يسألهم عليه الصلاة والسلام اذ لم يكن فى شك. وفى بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام: هل سأل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك؟ فقال: هو أعظم يقينا وأوثق ايمانا من أن يسال. وتعقب هذا القول بان المراد بهذا السؤال الزام المشركين وهم منكرون الاسراء، وللبحث فيه مجال، والخطاب على جميع ما سمعت لنبينا عليه الصلاة والسلام *

وفى البحر الذى يظهر أنه خطاب للسامع الذى يريد أن يفحص عن الديانات قيل له اسال أيها الناظر أتباع الرسل أجاءت رسلهم بعبادة غير الله عز وجل فانهم يخبرونك أن ذلك لم يقع ولا يمكن أن يأتوا به ولعمرى أنه خلاف الظاهر جداً، ومما يقضى منه العجب ما قيل: إن المعنى وأسالنى أو وأسالنا عمن أرسلنا وعلق اسال فارتفع من وهو اسم استفهام على الابتداء وأرسلنا خبره والجملة فى موضع نصب باسال بعد اسقاط الخافض كأن سؤاله من أرسلت يارب قبلى من رسلك أجعلت فى رسالته آلهة تعبد ثم ساق السؤال فحكى المعنى فرد الخطاب الى النبى ﷺ فى قوله تعالى (من قبلك) انتهى، واسأل من قرأ أبا جاد أيرضى بهذا الكلام ويستحسن تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ ملتبسا بها ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ أشراف قومه وخصوا بالذكر لأن غيرهم تبع ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٦ ﴾ اليكم. وأريد باقتصاص ذلك تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابطال قولهم: (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) لأن موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه كان له مع فرعون وهو ملك جبار ما كان وقد أيده الله سبحانه بوحيه وما أنزل عليه، والاستشهاد بدعوته عليه السلام الى التوحيد اثر ما أشير اليه من اجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه ويعلم من ذلك وجه مناسبة الآيات لما قبلها، وقال أبو حيان: مناسبتها من وجهين. الاول أنه ذكر فيما قبل قول المشركين: (لولا نزل) الخ وفيه زعم أن العظم بالجاه والمال وأشير فى هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق اليه فرعون فى قوله: «أليس لى ملك مصر» الخ فهو قدوتهم فى ذلك وقد انتقم منه فكذلك ينتقم منهم، الثانى أنه سبحانه لما قال: (واسأل) الخ ذكر جل وعلا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر أتباعا ممن سبق

من الأنبياء وكل جاء بالتوحيد فلم يكن فيما جاءبه اباحة اتخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتخذت قريش فناسب ذكر قصتهما الآية التى قبلهاه

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ٤٧﴾ أى فاجأهم الضحك منها أى استهزؤا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها ، وفى الكشاف جاز أن تجاب لما باذا المفاجاة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو عامل النصب فى محلها كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم، فالجواب عنده ذلك الفعل وهو العامل فى لما، وقدر ماضيا لأنه المعروف فى جوابها، وإذا مفعول به لا ظرف ، وقال أبو حيان: لا نعلم نحويا ذهب إلى ماذهب اليه هذا الرجل من أن إذا الفجائية تكون منصوبة بفعل مقدر تقديره فاجأ بل المذاهب فيها ثلاثة. الاول انها حرف فلا تحتاج الى عامل. الثانى أنها ظرف مكان فان صرح بعد الاسم بعدها بخبر له كان ذلك الخبر عاملا فيها نحو خرجت فاذا زيد قائم فقائم هو الناصب لها والتقدير خرجت ففى المكان الذى خرجت فيه زيد قائم. الثالث أنها ظرف زمان والعامل فيها الخبر أيضا كأنه قيل: ففى الزمان الذى خرجت فيه زيد قائم، وإذا لم يذكر بعد الاسم خبر أوذكر اسم منصوب على الحال كانت اذا خبرا للمبتدا: فان كان جثة وقلنا: إذا ظرف مكان كان الأمر واضحا وإن قلنا ظرف زمان كان الكلام على حذف مضاف أى ففى الزمان حضور زيد ثم ان المفاجأة التى ادعاها لا يدل المعنى على أنها تكون من الكلام السابق بل يدل على أنها تكون من الكلام التى هى فيه تقول خرجت فاذا الاسد فالمعنى ففاجأنى الاسد دون ففاجأت الاسد انتهى ، وقال الخفاجى ماقيل إن نصبها بفعل المفاجأة المقدر هكذا لم يقله أحد من النحاة لا يلتفت اليه وتفصيله فى شروح المغنى ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ من الآيات : ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أى من آية مثلها فى كونها آية دالة على النبوة واستشكل بأنه يلزم كون كل واحدة من الآيات فاضلة ومفضولة معا وهو يؤدى إلى التناقض وتفضيل الشىء على نفسه لعموم آية فى النفى ، وأجيب بأن الغرض من هذا الكلام انهن موصوفات بالكبر لا يكدن يتفاوتن فيه على معنى أن كل واحدة لكمالها فى نفسها إذا نظر اليها قيل هى أكبر من البواقى لاستقلالها بافادة المقصود على التمام كما قال الحماسى :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وإذا لوحظ الكل توقف عن التفضيل بينهن، ولقد فاضلت فاطمة بنت خرشب الانمارية بين أولادها الكملة ربيعة الحفاظ. وعمارة الوهاب. وأنس الفوارس ثم قالت: أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت ثكلتهم أن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، وقال بعض الاجلة: المراد بأفعل الزيادة من وجه أى ما نريهم من آية الا هى مختصة بنوع من الاعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار، ولا ضير فى كون الشىء الواحد فاضلا ومفضولا باعتبارين ، وقد أطال الكلام فى ذلك جلال الدين الدوانى فى حواشيه على الشرح الجديد للتجريد فليراجع ذلك من أراده ، وفى البحر قيل: كانت آياته عليه السلام من كبار الآيات وكانت كل واحدة أكبر من التى قبلها فعلى هذا يكون ثم صفة محذوفة أى من أختها السابقة عليها ولا يبقى فى الكلام تعارض، ولا يكون ذلك الحكم فى الآية الاولى لأنه لم يسبقها شىء فتكون اكبر منه، وذكر بعضهم فى الاكبرية أن الأولى تقتضى علما والثانية تقتضى علما منضما إلى علم الأولى فيزداد الرجوع انتهى، والأولى ماتقدم لشيوع ارادة ذلك المعنى من مثل هذا التركيب ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والجراد والقمل وغيرها :

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤٨﴾ لكي يرجعوا ويتوبوا عماهم عليه من الكفر ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ قال الجمهور: وهو خطاب تعظيم فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر، وحكاه فى مجمع البيان عن الكلبي والجبائى، وقيل: المعنى ياغالب السحرة من ساحره فسحره كخاصمه فخصمه فهو خطاب تعظيم أيضا، وقيل: الساحر على المعنى المعروف فيه وقد تعودوا دعاءه عليه السلام بذلك قبل، ومقتضى مقام طلب الدعاء منه عليه السلام أن لايدعوه به إلا أنهم لفرط حسرتهم سبق لسانهم إلى ماتعودوا به، وقيل: هو خطاب استهزاء وانتقاص دعاهم اليه شدة شكيمتهم ومزيد حماقتهم وروى ذلك عن الحسن *

ودفع الزمخشرى المنافاة بين هذا الخطاب وقولهم الآتى: «أننا لمهتدون» بأن ذلك القول وعد منوى إخلافه وعهد معزوم على نكثه معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب وفيه أن الوعد وإن كان منوى الاخلاف لكن إظهار الاخلاف حال التضرع اليه عليه السلام ينافيه لأنهم فى استلانة قلبه عليه السلام *

وقيل الأظهر أنهم قالوا ياموسى كما فى الأعراف لكن حكى الله تعالى كلامهم هنا على حسب حالهم ووفق مافى قلوبهم تقبيحا لذلك وتسلية لحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ويكون ذلك على عكس قوله سبحانه (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وجعل على هذا قولهم الآتى مجمل مافصل هنالك من الايمان وإرسال بنى إسرائيل فلا يحتاج إلى التزام كون القولين فى مجلسين للجمع بين ماهنا وماهناك، ولا يخلو عن بعد والالتزام المذكور لاأرى ضررا فيه. وقرئ ياأيه بضم الهاء ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أى بعهده عندك، والمراد به النبوة وسميت عهدا إما لأن الله تعالى عاهد نبيه عليه السلام أن يكرمه بها وعاهد النبى ربه سبحانه على أن يستقل بأعبائها أو لما فيها من الكلفة بالقيام بأعبائها ومن الاختصاص كما بين المتوافقين أو لأن لها حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد أو من العهد الذى يكتب للولاة كأن النبوة منشور من الله تعالى بتولية من أكرمه بها والباء إما صلة ـ لادع ـ أو متعلق بمحذوف وقع حالا من الضمير فيه أى متوسلا إليه تعالى بما عهد أو بمحذوف دل عليه التماسهم مثل اسعفنا إلى مانطلب، وإما أن تكون للقسم والجواب مايأتى، وهى على هذا للقسم حقيقة وعلى ماقبله للقسم الاستعطافى وعلى الوجه الأول للسببية، وإدخال ذلك فى الاستعطاف خروج عن الاصطلاح، وجوز أن يراد بالعهد عهد استجابة الدعوة كأنه قيل: بما عاهدك الله تعالى مكرما لك من استجابة دعوتك أو عهد كشف العذاب عمن اهتدى، وأمر الباء فى الوجهين على مامر؛ وأن يراد بالعهد الايمان والطاعة أى بما عهد عندك فوفيت به على أنه من عهد اليه أن يفعل كذا أى أخذ منه العهد على فعله ومنه العهد الذى يكتب للولاة، و(عندك) يغنى عن ذكر الصلة مع إفادة أنه محفوظ مخزون عند المخاطب، والأولى على هذا أن تكون ماموصولة، وهذا الوجه فيه كما فى الكشف نبو لفظا ومعنى وسياقا على مالا يخفى على الفطن *

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ٤٩﴾ لمؤمنون ثابتون على الايمان وهو اما معلق بشرط كشف العذاب كما فى قولهم المحكى فى سورة الاعراف لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك أو غير معلق ويجب حينئذ أن يكون هذا منهم فى مجلس آخر، وإن قلنا: لم يصدر منهم طلب الدعاء إلا مرة أو أكثر منها لكن على طرز واحد قيل هنا: أرادوا من الاهتداء الايمان وإرسال بنى إسرائيل كما سمعت آنفا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾ أى بدعوته فى الكلام

حذف أى فدعانا بكشف العذاب فكشفناه فلما كشفناه عنهم ﴿اذَا هُمْ يَنكُثُونَ ٥٠﴾ فاجأهم نكث عهدهم بالاهتداء أو فاجؤا وقت نكث عهدهم. وقرأ أبو حيوة (ينكثون) بكسر الكاف *

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى﴾ أى رفع صوته بنفسه فيما بين قومه بذلك القول، ولعله جمع عظماء القبط فى محله الذى هو فيه بعد أن كشف العذاب فنادى فيما بينهم بذلك لتنتشر مقالته فى جميع القبط ويعظم فى نفوسهم مخافة أن يؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه *

ويجوز أن يكون إسناد النداء اليه مجازا والمراد أمر بالنداء بذلك فى الأسواق والأزقة ومجامع الناس وهذا كما يقال بنى الأمير المدينة، (ونادى) قيل معطوف على فاجأ المقدر ونزل منزلة اللازم وعدى بفى كقوله: يجرح فى عراقيبها نصلى * للدلالة على تمكين النداء فيهم، وعنى بملك مصر ضبطها والتصرف فيها بالحكم ولم يرد مصر نفسها بل هى وما يتبعها وذلك من اسكندرية إلى أسوان كما فى البحر، والأنهار الخلجان التى تخرج من النيل المبارك كنهر الملك. ونهر دمياط. ونهر تنيس ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك لكنه اندرس فجدده أحمد ابن طولون ملك مصر فى الاسلام وأراد بقوله (من تحتى) من تحت أمرى *

وقال غير واحد كانت أنهار تخرج من النيل وتجرى من تحت قصره وهو مشرف عليها، وقيل: كان له سرير عظيم مرتفع تجرى من تحته أنهار أخرجها من النيل، وقال قتادة: كانت له جنان وبساتين بين يديه تجرى فيها الانهار، وفسر الضحاك الانهار بالقواد والرؤساء الجبابرة، ومعنى كونهم يجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لوائه ويأتمرون بأمره، وقد أبعد جدا وكذا من فسرها بالاموال ومن فسرها بالخيل وقال: كما يسمى الفرس بحرا يسمى نهرا بل التفاسير الثلاثة تقرب من تفاسير الباطنية فلا ينبغى أن يلتفت اليها، والواو فى (وهذه) الخ إما عاطفة لهذه الانهار على الملك فجملة تجرى حال منها أو للحال فهذه مبتدأ و«الانهار» صفة أو عطف بيان وجملة (تجرى) خبر للمبتدا وجملة هذه الخ حال من ضمير التكلم، وجوز أن تكون للعطف «وهذه تجرى» مبتدأ وخبر والجملة عطف على اسم ليس وخبرها، وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١﴾ على تقدير المفعول أى أفلا تبصرون ذلك أى ماذكر، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم والمعنى أليس لكم بصر أو بصيرة، وقرأ عيسى «تبصرونِ» بكسر النون فتكون الياء الواقعة مفعولا محذوفة، وقرأ فهد بن الصقر «يبصرون» بياء الغيبة ذكره فى الكامل للهزلى والساجى عن يعقوب ذكره ابن خالويه، ولا يخفى ما بين افتخار اللعين بملك مصر ودعواه الربوبية من البعد البعيد، وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآية قال: لأولينها ـ يعنى مصر ـ أخس عبيدى فولاها الخصيب وكان على وضوئه، وعن عبدالله ابن طاهر أنه وليها فخرج اليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال: هى القرية التى افتخر بها فرعون حتى قال: (أليس لى ملك مصر) والله لهى أقل عندى من أن أدخلها فثنى عنانه ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه البسطة والسعة فى الملك والمال ﴿مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أى ضعيف حقير أو مبتذل ذليل فهو من المهانة وهى القلة أو الذلة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ أى الكلام، والجمهور أنه عليه السلام كان بلسانه بعض شىء من أثر الجمرة لكن اللعين بالغ *

ومن ذهب إلى أن الله تعالى كان أجاب سؤاله حل عقدة من لسانه فلم يبق فيه منها أثر قال: المعنى ولا يكاد يبين حجته الدالة على صدقه فيما يدعى لا أنه لا قدرة له على الافصاح باللفظ وهو افتراء عليه عليه السلام ألا ترى إلى

مناظرته له ورده عليه وافحامه إياه ، وقيل : عابه بما كان به عليه السلام من الحبسة أيام كان عنده وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة مايعتضد به وهو فى نفسه مخل بماينعت به الرجال من اللسن وإبانة الكلام ، و«أم» على مانقل عن سيبويه والخليل متصلة ، وقد نزل السبب بعدها منزلة المسبب على ماذهب اليه الزمخشرى ، والمعنى افلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع «أم انا خير» موضع ام تبصرون ه

وإيضاح ذلك أن فرعون عليه اللعنة لما قدم اسباب البسطة والرياسة بقوله (أليس لى) الخ وعقبه بقوله افلا تبصرون استقصاراً لهم وتنبيهاً على أنه من الوضوح بمكان لايخفى على ذى عينين قال فى مقابله: «أم انا خير» بمعنى ام تبصرون أنى أنا المقدم المتبوع ، وفى العدول تنبيه على أن هذا الشق هو المسلم لامحالة عندكم فكأنه يحكيه عن لسانهم بعدما أبصروا وهو أسلوب عجيب وفن غريب، وجعله الزمخشرى من انزال السبب مكان المسبب لأن كونه خيراً فى نفسه أى محصلا له أسباب التقدم والملك سبب لأن يقال فيه أنت خير منه وقولهم: أنت خير سبب لكونهم بصراء وسبب السبب قد يقال له سبب فلا يرد مايقال إن السبب قولهم: أنت خير لاقوله: أنا خير ، وقال القاضى البيضاوى: إنه من انزال المسبب منزلة السبب لأن علمهم بأنه خير مستفاد من الابصار ، وفيه أن المذكور أنا خير لا أم تعلمون أنى خير، وله أن يقول: ذلك يغنى غناه لأنه جعله مسلما معلوما ماعندهم فقال: «أم أنا خير» لا أم تعلمون كما سلف، ولايخفى أن ماذكره الزمخشرى أظهر كذا فى الكشف ، وقال العلامة الثانى فى تقرير ذلك: إن قوله: أنا خير سبب لقولهم من جهة بعثه على النظر فى أحواله واستعداده لما ادعاه وقولهم: أنت خير سبب لكونهم بصراء عنده فأنا خير سبب له بالواسطة لكن لايخفى أنه سبب للعلم بذلك والحكم به، وأما بحسب الوجود فالامر بالعكس لأن إبصارهم سبب لقولهم أنت خير فتأمل، وبالجملة إن مابعد «أم» مؤول بجملة فعلية معلولة لفظا ومعنى هى ماسمعت ونحو ذلك من حيث التأويل «أدعوتموهم أم أنتم صامتون» أى أم صمتم، وقوله: ه أمخدج اليدين أم أتمت ه أى أم متما ، وقيل : حذف المعادل لدلالة المعنى عليه ،والتقدير افلا تبصرون أم تبصرون أنا خير الخ ، وتعقب بأن هذا لايجوز إلا إذا كان بعد أم لانحو أيقول زيد أم لاأى أم لايقوم فأما حذفه دون لافليس من كلامهم، وجوز أن يكون فى الكلام طى على نهج الاحتباك والمعنى أهو خير منى فلاتبصرون ماذكرتكم به أم أنا خير منه لأنكم تبصرونه، ولا ينبغى الالتفات اليه، وجوز غير واحد كون «أم» منقطعة مقدرة ببل والهمزة التى للتقرير كأن اللعين قال اثر ماعدد أسباب فضله ومبادى خيريته: أثبت عندكم واستقر لديكم أنى خير وهذه حالى من هذا الخ ، ورجحه بعضهم لما فيه من عدم التكلف فى أمر المعادل اللازم أولا لحسن فى المتصلة ، وقال السدى . وأبو عبيدة: أم بمعنى بل فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى اخباره بأنه خير كقول الشاعر :

بدت مثل قرن الشمس فى رونق الضحى وصورتها أم أنت فى العين أملح

وقال أبو البقاء :إنها منقطعة لفظا متصلة معنى وأراد ماتقدم من التأويل، وليس فيه مخالفة لما أجمع عليه النحاة كما توهم، وجملة «لايكاد يبين» معطوفة على الصلة أو مستأنفة أو حالية. وقرئ «أما أنا خير» بادخال الهمزة على ماالنافية ، وقرأ الباقر رضى الله تعالى عنه « يبين» بفتح الياء من بان إذا ظهر ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ كناية عن تمليكه، قال مجاهد: كانوا إذا سودوا رجلا سوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة لسودده ،

فقال فرعون هلا ألقى رب موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقا، وهذا من اللعين لزعمه أن الرياسة من لوازم الرسالة كما قال كفار قريش فى عظيم القريتين، والاسورة جمع سوار نحو خمار وأخمرة . وقرأ الاعمش (أساور) ورويت عن أبى، وعن أبى عمرو جمع اسورة فهو جمع الجمع ، وقرأ الجمهور (أساورة) جمع أسوار بمعنى السوار والهاء عوض من ياء أساوير فانها تكون فى الجمع المحذوف مدته للعوض عنها كما فى زنادقة جمع زنديق *

وقد قرأ « أساوير » عبدالله وأبى فى الرواية المشهورة، وقرأ الضحاك ألقى مبنيا للفاعل أى الله تعالى أساورة بالنصب

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ٥٣﴾ من قرنته به فاقترن ، وفسر بمقرونين أى به لأنه لازم معناه بناء على هذا ، وفسر أيضا بمتقارنين من اقترن بمعنى تقارن والاقتران مجاز أو كناية عن الاعانة *

ولذا قال ابن عباس : يعينونه على من خالفه ، وقيل: عن التصديق ولولا ذلك لم يكن لذكره بعد قوله معه فائدة، وهو على الأول حسى وعلى الثانى معنوى، وقيل: متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين، وعن قتادة متتابعين *

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة فى مطاوعته على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخفة السرعة لاجابته ومتابعته كما يقال هم خفوف إذا دعوا وهو مجاز مشهور وقال ابن الأعرابى استخف أحلامهم أى وجدهم خفيفة أحلامهم أى قليلة عقولهم فصيغة الاستفعال للوجدان كالافعال كما يقال أحمدته وجدته محمودا وفى نسبته ذلك للقوم تجوز

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٤﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغوى

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أى أسخطونا كما قال على كرم الله تعالى وجهه . وفى معناه ما قيل أى أغضبونا أشد الغضب أى بأعمالهم. والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل *

وقال أبو عبدالله الرضا رضى الله تعالى عنه : إن الله سبحانه لا يأسف كأسفنا ولكن له جل شأنه أولياء يأسفون ويرضون فجعل سبحانه رضاهم رضاه وغضبهم غضبه تعالى، وعلى ذلك قال عز وجل: «من أهان لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة» وقال سبحانه: (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وعليه قيل: المعنى فلما أسفوا موسى عليه السلام ومن معه، والسلف لا يؤولون ويقولون: الغضب فينا انفعال نفسانى وصفاته سبحانه ليست كصفاتنا بوجه من الوجوه، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تفسير الأسف بالحزن وأنه قال هنا أى أحزنوا أولياءنا المؤمنين نحو السحرة وبنى إسرائيل *

وذكر الراغب أن الاسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا ، ولذلك سئل ابن عباس عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا، وبهذا النظر قال الشاعر :

* فحزن كل أخى حزن أخو الغضب * انتهى، وعلى جميع الأقوال آسف منقول بالهمزة من أسف *

﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥﴾ فى اليم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قال ابن عباس . وزيد بن أسلم. وقتادة أى متقدمين إلى النار *

وقال غير واحد: قدوة للكفار الذين بعدهم يقتدون بهم فى استيجاب مثل عقابهم ونزوله بهم ، والكلام

على الاستعارة لأن الخالف يقتدى بالسالف فلما اقتدوا بهم فى الكفر جعلوا كأنهم اقتدوا بهم فى معلول الغضب وهو مصدر نعت به ولذا يصح إطلاقه على القليل والكثير ، وقيل : جمع سالف كحارس وحرس وخادم وخدم وهذا يحتمل أن يراد بالجمع فيه ظاهره ويحتمل أن يراد به اسم الجمع فان فعلا ليس من أبنية الجموع لغلبته فى المفردات، والمشهور فى جمعه أسلاف وجاء سلاف أيضا *

وقرأ أبو عبدالله. وأصحابه. وسعيد بن عياض. والأعمش. والأعرج. وطلحة. وحمزة والكسائى (سلفا) بضمتين جمع سليف كفريق لفظا ومعنى، سمع القاسم بن معن العرب تقول: مضى سليف من الناس يعنون فريقا منهم وقيل: جمع سلف كصبر جمع صابر أو جمع سلف كجنب *

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه. ومجاهد . والأعرج . أيضا سلفا بضم ففتح إما على أنه أبدلت فيه ضمة اللام فتحة تخفيفا كما يقال فى جدد بضم الدال جدد بفتحها أو على أنه جمع سلفة بمعنى الأمة والجماعة من الناس أى فجعلناهم أمة سلفت، والسلف بالضم فالفتح فى غير هذا ولد القبج والجمع سلفان كصردان ويضم *

﴿ وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ٥٦ ﴾ أى عظة لهم، والمراد بهم الكفار بعدهم، والجار متعلق على التنازع بسلفا ومثلا، ويجوز أن يراد بالمثل القصة العجيبة التى تسير مسير الأمثال ؛ ومعنى كونهم مثلا للكفار أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون ، ويجوز تعلق الجار بالثانى وتعميم الآخرين بحيث يشمل المؤمنين ، وكونهم قصة عجيبة للجميع ظاهر ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ الخ بيان لعناد قريش بالباطل والرد عليهم ، فقد روى أن عبدالله ابن الزبعرى قبل إسلامه ، قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سمعه يقول : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) أليست النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبيا وعبدا من عباد الله تعالى صالحا فان كان فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى :

﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ٥٧ ﴾ فالمعنى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وحاجك بعبادة النصارى إياه إذا قومك من ذلك ولأجله يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجدلا ، والحجة لما كانت تسير مسير الأمثال شهرة قيل لها مثل أو المثل بمعنى المثال أى جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام: إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى عليه السلام نفسه مثلا من باب «الحج عرفة» *

وقرأ أبو جعفر . والأعرج . والنخعى . وأبو رجاء . وابن وثاب . وابن عامر . ونافع . والكسائى (يصدون) بضم الصاد من الصدود، وروى ذلك عن على كرم الله تعالى وجهه، وأنكر ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هذه القراءة وهو قبل بلوغه تواترها ، والمعنى عليها إذا قومك من أجل ذلك يعرضون عن الحق بالجدل بحجة داحضة واهية ، وقيل : المراد يثبتون على ما كانوا عليه من الاعراض *

وقال الكسائى. والفراء: يصدون بالكسر ويصدون بالضم لغتان بمعنى واحد مثل يعرشون ويعرشون ومعناهما يضجون ، وجوز أن يكون يعرضون ﴿ وَقَالُوا ﴾ تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل المموه مما يغتر به السفهاء ﴿ ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أى ظاهر عندك أن عيسى عليه السلام خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا وآبائنا فيها ، وحقق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية، وسهل باقى السبعة الثانية بين بين،

وقرأ ورش فى رواية أبى الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر ، والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿ مَاضَرَبُوهُ لَكَ إلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٥٨ ﴾ ابطال لباطلهم اجمالا اكتفاء بما فصل فى قوله تعالى : (إن الذين سبقت) وتنبيها على أنه مما لا يذهب على ذى مسكة بطلانه فكيف على غيره ولكن العناد يعمى ويصم أى ماضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق فانه فى غاية البطلان بل هم قوم لد شداد الخصومة مجبولون على المحك أى سوء الخلق واللجاج ، فجدلا منتصب على أنه مفعول لأجله ، وقيل: هو مصدر فى موضع الحال أى مجادلين ، وقرأ ابن مقسم (جدالا) بكسر الجيم وألف بعد الدال ، وقوله تعالى : ﴿ إنْ هُوَ ﴾ أى ماعيسى ابن مريم ﴿ إلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ بالنبوة وروادفها فهو مرفوع المنزلة على القدر لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب ، كلام حكيم مشتمل على ما اشتمل عليه قوله تعالى :(إن الذين سبقت) ولكن على سبيل الرمز وعلى فساد رأى النصارى فى إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضا بمكان عبادة قريش غيره سبحانه وتعالى ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا ﴾ أى أمراً عجيبا حقيقا بأن يسير ذكره كالامثال السائرة ﴿ لِبَنِى إسْرَائِيلَ ٥٩ ﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلناله من احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ونحو ذلك مالم نجعل لغيره فى زمانه ، كلام أجمل فيه وجه الافتتان به وعليه ، ووجه دلالته على قدرة خالقه تعالى شأنه وبعد استحقاقه عليه السلام عما قرف به افراطا وتفريطا ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا ﴾ الخ تذييل لوجه دلالته على القدرة وأن الافتتان من عدم التأمل وتضمين للانكار على من اتخذ الملائكة آلهة كما اتخذ عيسى عليهم السلام أى ولو نشاء لقدرتنا على عجائب الامور وبدائع الفطر لجعلنا بطريق التوليد وما له لولدنا ﴿ مِنْكُمْ ﴾ يارجال ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ كما ولدنا عيسى من غير أب ﴿ فِى الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ٦٠ ﴾ أى يخلفونكم فى الارض كما يخلفكم اولادكم اويكونون خلفاء ونسلا لكم ليعرف تميزنا بالقدرة الباهرة وليعلم أن الملائكة ذوات ممكنة تخلق توليدا كما تخلق ابداعا فمن أين لهم استحقاق الالوهية والانتساب اليه سبحانه وتعالى بالبنوة ، وجوز أن يكون معنى لجعلنا الخ لحولنا بعضكم ملائكة فمن ابتدائية او تبعيضية و(ملائكة) مفعول ثان أو حال ، وقيل :من للبدل كما فى قوله تعالى : (ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) وقوله : * ولم تذق من البقول الفستقا * أى ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة يكونون مكانكم بعد ذهابكم ، واليه يشير كلام قتادة ومجاهد ، والمراد بيان كمال قدرته تعالى لا التوعد بالاستئصال وإن تضمنه فانه غير ملائم للمقام ، وقيل: لا مانع من قصدهما معا نعم كثير من النحويين لا يثبتون لمن معنى البدلية ويتأولون ماورد مما يوهم ذلك والأظهر ماقرر أولا *

وذكر العلامة الطيبى عليه الرحمة ان قوله تعالى : (ان هو الا عبد) الخ جواب عن جدل الكفرة فى قوله سبحانه : (انكم وما تعبدون) الخ وان تقريره ان جدلكم هذا باطل لأنه عليه السلام مادخل فى ذلك النص الصريح لأن الكلام معكم أيها المشركون وأنتم المخاطبون به وانما المراد ما تعبدون الأصنام التى تنحتونها بأيديكم وأما عيسى عليه السلام فما هو الا عبد مكرم منعم عليه بالنبوة مرفوع المنزلة والذكر مشهور فى بنى اسرائيل كالمثل السائر فمن أين تدخل فى قولنا : (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ثم لا اعتراض علينا أن نجعل قوما أهلا للنار وآخرين أهلا للجنة اذلو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكة أى عبيدا مكرمون مهتدون والى الجنة صائرون كقوله تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل

نفس هداها) اهـ *

وعلى ما ذكرنا أن الكلام فى ابطال قد تم عند قوله تعالى : (خصمون) وما بعد لما سمعت قبل وهو أدق وأولى بماذكره بل ماأشار اليه من أن قوله تعالى: (ولو نشاء) الخ لنفى الاعتراض ليس بشىء . وروى أن ابن الزبعرى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين سمع قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال : خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيرا، وبنو مليح الملائكة ؟ فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت) الآية أو نزلت هذه الآية ، وأنكر بعضهم السكوت ، وذكر أن ابن الزبعرى حين قال للنبى عليه الصلاة والسلام : خصمتك رد عليه ﷺ بقوله ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل ، وروى محيي السنة فى المعالم أن ابن الزبعرى قال له عليه الصلاة والسلام : أنت قلت : (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)؟ قال : نعم قال: أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة ؟ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) وهذا أثبت من الخبر الذى قبله . وتعقب ما تقدم فى الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى أهذا لنا الخ، وقوله عليه الصلاة والسلام : هو لكم الخ بأنه ليس بثبت *

وذكر من أثبته أنه صلى الله تعالى عليه وسلم إنما لم يجب حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملا بما تقتضيه كلمة (ما) لأن إخراج المعهودين عن الحكم عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادتهم فى الجملة وعممه عليه الصلاة والسلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية من دون الله تعالى ثم بين أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء فى خبر محيي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام: بل هم يعبدون الشيطان كما نطق به قوله تعالى : (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) الآية ، وقد تقدم ما ينفعك تذكره فتذكر . وفى الدر المنثور أخرج الامام أحمد . وابن أبى حاتم . والطبرانى . وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لقريش : إنه ليس أحد يعبد من دون الله تعالى فيه خير فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله تعالى صالحا فان كنت صادقا فانه كآلهتنا فأنزل الله سبحانه : (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الخ ، والكلام فى الآيات على هذه الرواية يعلم مما تقدم بأدنى التفات ، وقيل : إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت ، فالمثل ما فى قوله تعالى : (إن مثل عيسى) الآية والضارب هو تعالى شأنه أى ولما بين الله سبحانه حاله العجيبة اتخذه قومك ذريعة إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقا بشرا قد عبد فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكة مطهرين مكرمين عليه وهو الذى عنوه بقولهم : (أآلهتنا خير أم هو) فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مقايسة باطل بباطل وأنهم فى اتخاذهم العبد المنعم عليه إلها مبطلون مثلكم فى اتخاذ الملائكة وهم عباد مكرمون ، ثم قال سبحانه : (ولو نشاء لجعلنا منكم) دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله وأنه سبحانه قادر

على أعجب من خلق عيسى عليه السلام وأنه لافرق فى ذلك بين المخلوق توالدا وإبداعا فلا يصلح القسمان للالهية . وفى رواية عن ابن عباس . وقتادة أنه لما نزل قوله تعال : (لمن مثل عيسى) الآية قالت قريش : ما أراد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى ٭

ومعنى يصدون يضجون ويضجرون، والضمير فى (أم) هو لنبينا عليه الصلاة والسلام، وغرضهم بالموازنة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين آلهتهم الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: (ولو نشاء) الخ ردو تكذيب لهم فى افترائهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان أن عيسى عليه السلام فى الحقيقة وفيما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى صلى الله تعالى عليه وسلم بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه ثم بين جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى وأنه قادر على أبدع منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضا عن درجة المعبودية بقوله سبحانه : (ولو نشاء) الخ وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة، وكذلك رجوع الضمير إلى نبينا عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : (أم هو) مع رجوعه إلى عيسى فى قوله سبحانه: (إن هو إلا عبد) وفيه من فك النظم ما يجب أن يصان الكتاب المعجز عنه، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثانى اليه صلى الله تعالى عليه وسلم، ولعل الرواية عن الحبر غير ثابتة، وجوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم: الملائكة عليهم السلام بنات الله سبحانه ومن عبادتهم إياهم كأنهم قالوا: ماقلنا بدعا من القول ولا فعلنا منكرا من الفعل فان النصارى جعلوا المسيح ابن الله عز وجل فنحن أشف منهم قولا وفعلا حيث نسبنا اليه تعالى الملائكة عليهم السلام وهم نسبوا اليه الأناسى ، وقوله تعالى : (ولو نشاء) الخ عليه كما فى الوجه الثانى ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى عيسى عليه السلام ﴿ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ أى انه بنزوله شرط من أشراطها أو بحدوثه بغير أب أو باحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ماينكره الكفرة من الأمور الواقعة فى الساعة، وأيا ما كان فعلم الساعة مجاز عما تعلم به والتعبير به للمبالغة ٭

وقرأ أبى (لذكر) وهو مجاز كذلك ٭

وقرأ ابن عباس . وأبو هريرة . وأبو مالك الغفارى . وزيد بن على . وقتادة . ومجاهد . والضحاك . ومالك بن دينار . والأعمش . والكلبى قال ابن عطية . وأبو نصرة (لعلم) بفتح العين واللام أى لعلامة ٭

وقرأ عكرمة . قال ابن خالويه . وأبو نصرة (لالعلم) معرفا بفتحتين والحصر إضافى ، وقيل : باعتبار أنه أعظم العلامات ، وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام فقد أخرج البخارى . ومسلم . والترمذى. وأبو داود. وابن ماجه عن أبى هريرة قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينزلن ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلا يسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» ، وفى رواية «وانه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الاسلام» وفيه ويهلك المسيح الدجال» وفى أخرى قال: « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وفى رواية «فأمكم منكم قال ابن أبى ذئب: تدرى ما أمكم منكم ؟ قال : تخبرنى قال : فأمكم بكتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم، والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس فى

صلاة الصبح فيتأخر الامام وهو المهدى فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلى خلفه ويقول: انما أقيمت لك*

وقيل بل يتقدم هو ويؤم الناس والاكثرون على اقتدائه بالمهدى فى تلك الصلاة دفعا لتوهم نزوله ناسخا وأما فى غيرها فيؤم هو الناس لأنه الافضل والشيعة تأبى ذلك ،

وفى بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثنية يقال لها أفيق بفاء وقاف بوزن أمير وهى هنا مكان بالقدس الشريف نفسه ويمكث فى الأرض على ما جاء فى رواية عن ابن عباس أربعين سنة وفى رواية سبع سنين قيل والاربعون انما هى مدة مكثه قبل الرفع وبعده ثم يموت ويدفن فى الحجرة الشريفة النبوية ، وتمام الكلام فى البحور الزاخرة للسفارينى ، وعن الحسن . وقتادة . وابن جبير أن ضمير (إنه) للقرآن لما أن فيه الاعلام بالساعة فجعله عين العلم مبالغة أيضا ، وضعف بانه لم يجر للقرآن ذكر هنا مع عدم مناسبة ذلك للسياق ، وقالت فرقة: يعود على النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وفيه من البعد مافيه *

وكأن هؤلاء يجعلون ضمير «أم هو» وضمير «إنه هو» له ﷺ أيضا وهو كما ترى ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكن فى وقوعها ﴿ وَاتَّبِعُونِ ﴾ أى واتبعوا هداى أو شرعى أو رسولى ، وقيل: هو قول الرسول ﷺ مأمورا من جهته عز وجل فهو بتقدير القول أى وقل اتبعونى ﴿ هَٰذَا ﴾ أى الذى أدعوكم اليه أو القرآن على أن الضمير فى «إنه» له ﴿ صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١ ﴾ موصل إلى الحق ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ عن اتباعى ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢ ﴾ أى بين العداوة أو مظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالامور الواضحات وهى المعجزات أو آيات الانجيل أو الشرائع ولا مانع من ارادة الجميع ﴿ قَالَ ﴾ لبنى اسرائيل ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ ﴾ أى الانجيل كما قال القشيرى . والماوردى . وقال السدى . بالنبوة ، وفى رواية أخرى عنه هى قضايا يحكم بها العقل ، وقال أبو حيان . أى بما تقتضيه الحكمة الالهية من الشرائع ، وقال الضحاك : أى بالموعظة ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم ﴾ متعلق بمقدر أى وجئتكم لأبين لكم ، ولم يترك العاطف ليتعلق بما قبله ليؤذن بالاهتمام بالعلة حيث جعلت كأنها كلام برأسه . وفى الارشاد هو عطف على مقدر ينبىء عنه المجىء بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم اياها ولأبين لكم ﴿ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ وهو امر الديانات وما يتعلق بالتكليف دون الأمور التى لم يتعبدوا بمعرفتها ككيفية نضد الافلاك وأسباب اختلاف تشكلات القمر مثلا فان الأنبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك ومثلها ما يتعلق بامر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلا فان الانبياء عليهم السلام لم يبعثوا لبيانه أيضا كما يشير اليه قوله ﷺ فى قصة تأبير النخل «أنتم أعلم بامور دنياكم» *

وجوز أن يراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلف بها وأريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل وهى لا يمكن بيان جميعها تفصيلا وبعضها مفوض للاجتهاد ، وقال أبو عبيدة: المراد بعض الذى حرم عليهم وقد أحل عليه السلام لهم لحوم الابل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت ، وقال مجاهد: بعض الذى يختلفون فيه من تبديل التوراة ، وقال قتادة: لأبين لكم اختلاف الذين تحزبوا فى امره عليه السلام ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ من

مخالفتى ﴿وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ فيما أبلغه عنه تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿هَٰذَا﴾ اى هذا التوحيد والتعبد بالشرائع ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٦٤﴾ لا يضل سالكه، وهو اما من تتمة كلام عيسى عليه السلام أو استئناف من الله تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام *

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين من بعث اليهم وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته عليه السلام، وقيل: المراد النصارى وهم أمة إجابته عليه السلام، وقد اختلفوا فرقا ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المختلفين وهم الذين لم يقولوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ هو يوم القيامة وأليم صفة عذاب أو يوم على الاسناد المجازى *

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾ الضمير لقريش، وأن تأتيهم بدل من الساعة، والاستثناء مفرغ، وجوز جعل الا بمعنى غير والاستفهام للانكار وينظرون بمعنى ينتظرون أى ما ينتظرون شيئا الا اتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفى ذلك تهكم بهم حيث جعل اتيان الساعة كالمنتظر الذى لابد من وقوعه *

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيد ذلك بقوله سبحانه: (وهم لا يشعرون) لعدم اغناء الأول عنه فلا استدراك، وقيل: يجوز أن يراد بلا يشعرون الاثبات لأن الكلام وارد على الانكار كأنه قيل: هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون أى لا يكون ذلك بل تأتيهم وهم فطنون، وفيه مافيه، وقيل: ضمير (ينظرون) للذين ظلموا، وقيل: للناس مطلقا وأيد بما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد قال: «قال رسول الله ﷺ: تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة والرجلان يطويان الثوب ثم قرأ عليه الصلاة والسلام هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون» ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ الظرف متعلق بعدو والفصل لا يضره، والمراد أن المحبات تنقطع يوم اذ تأتيهم الساعة ولا يبقى الا محبة المتقين وهم المتصادقون فى الله عز وجل لما أنهم يرون ثواب التحاب فى الله تعالى، واعتبار الانقطاع لأن الخل حال كونه خلا محال أن يصير عدوا *

وقيل: المعنى الاخلاء تنقطع خلتهم ذلك اليوم الا المجتنبين اخلاء السوء، والفرق بين الوجهين أن المتقى فى الأول هو المحب لصاحبه فى الله تعالى فاتقى الحب أن يشوبه غرض غير إلهى، وفى الثانى هو من اتقى صحبة الاشرار *

والاستثناء فيهما متصل، وجوز أن يكون يومئذ متعلقا بالاخلاء والمراد به فى الدنيا ومتعلق عدو مقدر أى فى الآخرة، والآية قيل نزلت فى أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله تعالى يومئذ فهو بتقدير قول أى فيقال لهم يا عبادى الخ أو فاقول: لهم بناء على أن المنادى هو الله عز وجل تشريفا لهم، وعن المعتمر بن سليمان أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد الا يفزع فينادى مناد يا عبادى الخ فيرجوها الناس كلهم فيتبعها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ٦٩﴾ فييأس منها الكفار، فيا عباد عام مخصوص اما بالآية السابقة واما باللاحقة، والأول أوفق من أوجه عديدة *

والموصول إما صفة للمنادى أو بدل أو مفعول لمقدر أى أمدح ونحوه، وجملة (وكانوا مسلمين) حال من ضمير (آمنوا) بتقدير قد أو بدونه، وجوز عطفها على الصلة، ورجحت الحالية بأن الكلام عليها أبلغ لأن المراد بالاسلام

هنا الانقياد والاخلاص ليفيد ذكره بعد الايمان فاذا جعل حالا أفاد بعد تلبسهم به فى الماضى اتصاله بزمان الايمان، وكان تدل على الاستمرار أيضا ومن هنا جاء التأكيد والأبلغية بخلاف العطف، وكذا الحال المفردة بأن يقال: الذين آمنوا بآياتنا مخلصين، وقرأ غير واحد من السبعة (ياعبادى) بالياء على الاصل، والحذف كثير شائع وبه قرأ حفص. وحمزة. والكسائى، وقرأ ابن محيصن (لاخوف) بالرفع من غير تنوين، والحسن. والزهرى. وابن أبى اسحق. وعيسى. وابن يعمر. ويعقوب. بفتحها من غير تنوين ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ نساؤكم المؤمنات فالاضافة للاختصاص التام فيخرج من لم يؤمن منهن ﴿ تُحْبَرُونَ ٧٠ ﴾ تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره من النضرة والحسن على وجوهكم كقوله تعالى: (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) أو تزينون من الحبر بفتح الحاء وكسرها وهو الزينة وحسن الهيئة، وهذا متحد بما قبله معنى والفرق فى المشتق منه، وقال الزجاج: أى تكرمون اكراما يبالغ فيه، والحبرة بالفتح المبالغة فى الفعل الموصوف بأنه جميل ومنه الاكرام فهو فى الاصل عام أريد به بعض أفراده هنا ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ ﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما أمروا به ﴿ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ كذلك، والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة، وقيل: أعظم أوانى الاكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم الكيلة *

والاكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له، وهذا معنى قول مجاهد لا اذن له، وهو على ماروى عن قتادة دون الابريق، وقال: بلغنا أنه مدور الرأس ولما كانت أوانى المأكول أكثر بالنسبة لأوانى المشروب عادة جمع الأول جمع كثرة والثانى جمع قلة، وقد تظافرت الاخبار بكثرة الصحاف، اخرج ابن المبارك. وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة. والطبرانى فى الاوسط بسند رجاله ثقات عن انس قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ان اسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم بيد كل واحد صحفتان واحدة من ذهب والاخرى من فضة فى كل واحدة لون ليس فى الاخرى مثله يأكل من آخرها مثل مايأكل من أولها يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل الذى يجد لأولها ثم يكون ذلك كرشح المسك الاذفر لايبولون ولايتغوطون ولايمتخطون اخوانا على سرر متقابلين» وفى حديث رواه عكرمة «إن ادنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لايدخل بعده أحد يفسح له فى بصره مسيرة عام فى قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر الامعمور يغدى عليه كل يوم ويراح بسبعين الف صحفة فى كل صحفة لون ليس فى الاخرى مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها لو نزل عليه جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لاينقص ذلك مما أوتى شيئا» وروى ابن أبى شيبة هذا العدد عن كعب أيضا، وإذا كان ذلك للادنى فما ظنك بالاعلى، رزقنا الله تعالى مايليق بجوده وكرمه *

وأمال أبو الحرث عن الكسائى كما ذكر ابن خالويه بصحاف ﴿ وَفِيهَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ ﴾ من فنون الملاذ ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أى تستلذ وتقر بمشاهدته، وذكر ذلك الشامل لكل لذة ونعيم بعد ذكر الطواف عليهم بأوانى الذهب الذى هو بعض من التنعم والترفه تعميم بعد تخصيص كما أن ذكر لذة العين التى هى جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيص بعد تعميم، وقال بعض الاجلة: إن قوله تعالى: (يطاف عليهم) بصحاف دل على الاطعمة (وأكواب) على الاشربة، ولا يبعد أن يحمل قوله سبحانه: (وفيها ماتشتهيه الانفس) على المنكح والملبس ومايتصل بهما ليتكامل جميع المشتهيات النفسانية فبقيت اللذة الكبرى وهى النظر إلى وجه الله تعالى الكريم

فكنى عنه بقوله عزوجل (وتلذ الاعين) ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي عن أنس: «حبب إلى الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» وقال قيس بن ملوح:

ولقد هممت بقتلها من حبها ... كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا ... وتلذ عيني من لذيذ المنظر

ويوافق هذا قول الامام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: شتان بين ماتشتهي الأنفس وبين ماتلذ الأعين لأن جميع مافي الجنة من النعيم والشهوات في جنب ماتلذ الأعين كأصبع تغمس في البحر لأن شهوات الجنة لها حد ونهاية لأنها مخلوقة ولاتلذ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جل وعز ولا حد لذلك ولا صفة ولا نهاية انتهى، ويعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار وفيها ما تلذ الأعين وعلى ذلك بنى الزمخشري قوله: هذا حصر لأنواع النعم لأنها اما مشتهاة في القلوب أو مستلذة في الاعين، وتعقبه في الكشف فقال: فيه نظر لانتقاضه بمستلذات سائر المشاعر الخمس، فان قيل: انها من القسم الأول قلنا: مستلذ العين كذلك فالوجه أنه ذكر تعظيما لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين وهو الغاية عندهم في المحبوب لأن العين مقدمة القلب، وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد وهو المذكور، وماتقدم هو الذي يقتضيه كلام الاكثرين، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع، ولامانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذ الاعين على ماذكرناه أولا، و(أل) في الأنفس والأعين للاستغراق على ماقيل، ولافرق بين جمع القلة والكثرة،

ولعل من يقول بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ويفرق بين الجمعين في المبدإ والمنتهى يقول: بأن استغراق جمع القلة أشمل من استغراق جمع الكثرة، وقيل: هي للعهد، وقيل: عوض عن المضاف اليه أي ماتشتهيه أنفسهم وتلذأعينهم، وجمع النفس والعين الباصرة على أفعل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان (الاخلاء) وحمل ماتشتهيه النفس على المنكح والملبس ومايتصل بهما خلاف الظاهر.

وفي الأخبار أيضا ماهو ظاهر في العموم، أخرج ابن أبي شيبة. والترمذي. وابن مردويه عن بريدة قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: هل في الجنة خيل فانها تعجبني؟ قال: إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت، فقال له رجل: إن الابل تعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: ياعبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ماتشتهي نفسك ولذت عينك».

وأخرج أيضا نحوه عن عبدالرحمن بن سابط وقال: هو أصح من الاول، وجاء نحوه أيضا في روايات أخر فلا يضره ماقيل من ضعف اسناده، ولايشكل على العموم أن اللواطة (١) مثلا لاتكون في الجنة لأن مالايليق أن يكون فيها لايشتهى بل قيل في خصوص اللواطة أنه لايشتهيها في الدنيا الانفس السليمة.

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا فذهب بعض إلى الاول، فقد أخرج الامام أحمد. وهناد. والدارمي. وعبد بن حميد. وابن ماجه. وابن حبان. والترمذي وحسنه. وابن المنذر. والبيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري قال: «قلنا يارسول الله إن الولد من قرة العين وتمام السرور فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي».

---

(١) وقيل: ان أهل الجنة لادبار لهم اه منه.

وذهب طاوس. وإبراهيم النخعي. ومجاهد. وعطاء. وإسحق بن إبراهيم إلى الثاني. فقد روى عن أبي رزين العقيلي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن أهل الجنة لايكون لهم ولد » وفي حديث لقيط الطويل الذي رواه عبدالله بن الامام أحمد. وأبو بكر بن عمرو. وأبو أحمد محمد بن أحمد بن ابراهيم. والطبراني. وابن حبان. ومحمد بن اسحق ابن منده. وابن مردويه. وأبو نعيم. وجماعة من الحفاظ وتلقاه الائمة بالقبول وقال فيه ابن منده: لاينكر هذا الحديث الا جاحد أوجاهل أومخالف للكتاب والسنة قلت: « يارسول الله أو لنا فيها ـ يعني الجنة ـ ازواج أو منهن مصلحات؟ قال: المصلحات للمصلحين تلذذونهن ويلذذنكم مثل لذاتكم في الدنيا غير أن لاتوالد ».

وقال مجاهد. وعطاء قوله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة) أي مطهرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها، وقال اسحق بن ابراهيم في حديث أبي سعيد السابق: إنه على معنى اذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة كما يشتهي ولكن لايشتهي، وتعقب بأن (اذا) لمتحقق الوقوع ولو أريد ماذكر لقيل. لو اشتهى، وفي حادي الأرواح اسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح فرجاله يحتج بهم فيه ولكنه غريب جدا.

وقال السفاريني في البحور الزاخرة: حديث أبي سعيد أجود أسانيده اسناد الترمذي وقد حكم عليه بالغرابة وأنه لايعرف الا من حديث أبي الصديق الناجي وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه اذا اشتهى الولد وتارة انه يشتهي الولد وتارة ان الرجل ليولد له، واذا قد تستعمل لمجرد التعليق الاعم من المحقق وغيره. ورجح القول بعدم الولادة بعشرة وجوه مذكورة فيها، وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد وقد قال فيه الاستاذ أبو سهل فيما نقله الحاكم: إنه لاينكره الا أهل الزيغ، وفيه غير اسناد، وليس تكون الولد على الوجه المعهود في الدنيا بل يكون كما نطق به الحديث ومتى كان كذلك فلا يستبعد تكونه من نسيم يخرج وقت الجماع، وزعم أن الولد انما يخلق من المني فحيث لامني في الجنة كما جاء في الاخبار لاخلق فيه تعجيز للقدرة. ولاينافي ذلك ما في حديث لقيط لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يشير اليه وقوع غير أن لاتوالد بعد قوله عليه الصلاة والسلام: مثل لذاتكم في الدنيا، ويقال نحو ذلك في حديث أبي رزين جمعا بين الأخبار، ثم ان التوالد ليس على سبيل الاستمرار بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره فالقول بأنه ان استمر لزم وجود أشخاص لانهاية لها وان انقطع لزم انقطاع نوع من لذة أهل الجنة ليس بشيء، وما قيل: إنه قد ثبت في الصحيح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: « يبقى في الجنة فضل فينشئ الله تعالى لها خلقا يسكنهم إياها » ولو كان في الجنة إيلاد لكان الفضل لأولادهم الملازمة فيه ممنوعة لجواز أن يقال من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله، والقول بأن التوالد في الدنيا لحكمة بقاء النوع وهو باق في الجنة بدون توالد فيكون عبثا يرد عليه أنه ما المانع من أن يكون هناك للذة ونحوها كالأكل والشرب فانهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر، وبالجملة ماذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لايخفى حاله على من له ذهن وجيه.

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم (ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين) بحذف الضمير العائد على (ما) من الجملتين المتعاطفتين، وفي مصحف عبدالله (ماتشتهيه الانفس وتلذه الأعين) بالضمير فيهما، والقراءة به في الأول دون الثانية لأبي جعفر. وشيبة. ونافع. وابن عامر. وحفص ﴿ وَأَنتُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة، وقيل: في الملاذ

المهمومة ، اتقدم وهو كما ترى ﴿ خَالِدُونَ ٧١ ﴾ دائمون أبد الآبدين، والجملة داخلة في حيز النداء وهي كالتأكيد لقوله تعالى: (لاخوف عليكم) ونودوا بذلك اتماما للنعمة وإكمالا للسرور فان كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الاحوال، ولله تعالى در القائل:

واذا نظرت فان بؤسا زائلا   للمرء خير من نعيم زائل

وعن النصراباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الانفس ولذة الاعين فالفناء خير من ذلك وان كان لفناء الاوصاف والاتصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فانتم إذاً انتم، وأنت تعلم ان ماذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولا أوليا ، وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات وأنه للتشريف

وقال الطيبي: ذق مع طبعك المستقيم معنى الخطاب والالتفات وتقديم الظرف في (وانتم فيها خالدون) لتقف على مالا يكتنهه الوصف ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ مبتدا وخبر وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾ صفة الجنة وقوله سبحانه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢ ﴾ متعلق بأورثتموها، وقيل: (تلك الجنة) مبتدأ وصفة و(التى أورثتموها) الخبر والجار بعده متعلق به، وقيل: تلك مبتدا والجنة صفتها والتي اورثتموها صفة الجنة وبما كنتم متعلق بمحذوف هو الخبر ٭

والاشارة على الوجه الأول الى الجنة المذكورة في قوله تعالى: «ادخلوا الجنة» وعلى الاخيرين الى الجنة الواقعة صفة على ما قيل ، والباء للسببية أو للمقابلة، وقد شبه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقى لهم بما يخلفه المرء لوارثه من الاملاك والارزاق ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورث اسم فاعل فاستعير الميراث لما استحقوه ثم اشتق اورثتموها فيكون هناك استعارة تبعية، وقال بعض : الاستعارة تمثيلية ٭

وجوز أن تكون مكنية ، وقيل: الارث مجاز مرسل للنيل والاخذ، وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد الا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة وذلك قوله تعالى : (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضا، وأيا ما كان فسببية العمل لايراث الجنة ونيلها ليس الا بفضل الله تعالى ورحمته عز وجل ، والمراد بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» في ادخال العمل الجنة على سبيل الاستقلال والسببية التامة فلا تعارض ٭

وأخرج هناد وعبد بن حميد في الزهد عن ابن مسعود قال: تجوزون الصراط بعفو الله تعالى وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى وتقتسمون المنازل بأعمالكم فتأمل. وقرىء (ورثتموها) ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ بحسب الانواع والاصناف لا بحسب الافراد فقط ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣ ﴾ أي لا تأكلون الا بعضها وأعقابها باقية في أشجارها فهي مزينة بالثمار أبدا موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وفي الحديث «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها الا نبت مكانها مثلاها» فمن تبعيضية وجوز كونها ابتدائية، والتقديم للحصر الاضافي وقيل لرعاية الفاصلة ٭

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كلاشيء بالنسبة إلى سائر انواع نعيم الجنة لما كان بأكثرهم في الدنيا من الشدة والفاقة فهو تسلية لهم ، وقيل : إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عواما نظرهم مقصور على الاكل والشرب. وتعقب بأنه غير تام وللصوفية كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله عز وجل ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ﴾

أى الراسخين فى الاجرام الكاملين فيه وهم الكفار فكأنه قيل: إن الكفار ﴿ فى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٧٤ ﴾ وأيد إرادة ذلك بجعلهم قسيم المؤمنين بالآيات فى قوله تعالى: (الذين آمنوا بآياتنا) فلا تدل الآية على خلود عصاة المؤمنين كما ذهب اليه المعتزلة والخوارج، ولا يضر عدم التعرض لبيان حكمهم بناء على أن المراد بالذين آمنوا المتقون لقوله تعالى: (ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) والقول بأن الذين آمنوا شامل لهم لأن العلة إيمانهم واسلامهم لا يخفى مافيه . والظرف متعلق بخالدون وخالدون خبر إن، وجوز أن يكون الظرف هو الخبر وخالدون فاعله لاعتماده ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ أى لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا، والمادة بأى صيغة كانت تدل على الضعف مطلقا ﴿ وَهُمْ فِيهِ ﴾ أى فى العذاب، وقرأ عبدالله «فيها» أى فى جهنم ﴿ مُبْلِسُونَ ٧٥ ﴾ حزينون من شدة اليأس، قال الراغب: الابلاس الحزن المعترض من شدة البأس ومنه اشتق ابليس فيما قيل ‪*‬

و لما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل أبلس فلان اذا سكت وانقطعت حجته انتهى، وقد فسر الابلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحجة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ٧٦ ﴾ لسوء اختيارهم، و(هم) ضمير فصل فيفيد التخصيص ، وقرأ عبدالله . وأبو زيد (الظالمون) بالرفع على أن هم مبتدأ وهو خبره، وذكر أبو عمر الجرمى أن لغة تميم جعل ماهو فصل عند غيرهم مبتدأ ويرفعون مابعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤن (تجدوه عند الله هو خير وأعظم) برفع خير وأعظم ، وقال قيس بن ذريح:

تحن الى ليلى وأنت تركتها ... وكنت عليها بالملا أنت اقدر

وقال سيبويه : بلغنا ان رؤبة كان يقول اظن زيدا هو خير منك يعنى بالرفع ﴿ وَنَادَوْا ﴾ أى من شدة العذاب ‪*‬ وفى بعض الآثار يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ماهم فيه من العذاب فيقولون: ادعوا مالكا فيدعون ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أى ليميتنا من قضى عليه اذا أماته، ومرادهم سل ربك ان يقضى علينا حتى نستريح، واضافتهم الرب الى ضميره لحثه لا للانكار، وهذا لا ينافى الابلاس على التفسير الاول لأنه صراخ وتمنى للموت من فرط الشدة ، وأما على التفسير الثانى أنه وان نفاه لكن زمان كل غير زمان الآخر فان أزمنة العذاب متطاولة وأحقابه ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لا خلاص لهم ولو بالموت ويغوثون أوقاتا لشدة مابهم . وتعقب بأنه لا يناسب دوام الجملة الاسمية أعنى وهم مبلسون وقيل إن نادوا معطوف بالواو وهى لا تقتضى ترتيبا، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفك عن الخلود ‪*‬

وقرأ على كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود . وابن وثاب . والأعمش «يامال» بالترخيم على لغة من ينتظر وقرأ أبو السوار «يامال» بالترخيم أيضا لكن على لغة من لم ينتظر ‪*‬

قال ابن جنى: وللترخيم فى هذا الموضع سر وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم فكان هذا من موضع الاختصار ضرورة وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ماأشغل أهل النار عن الترخيم مشيرا بذلك إلى إنكارها فان ما للتعجب وفيها معنى الصد يعنى أنهم فى حالة تشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وترك النداء على الوجه الأكثر فى الاستعمال ، وحاصل الجواب أن هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقصد التصرف فى الكلام والتفنن فيه كما فى قوله:

يحيى رفات العظام بالية ٭ والحق يامال غير ماتصف

بل للعجز وضيق المجال عن الاتمام كما يشاهد فى بعض المكر وبين ﴿ قَالَ ﴾ أى مالك ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ٧٧ ﴾ مقيمون فى العذاب أبدا لاخلاص لكم منه بموت ولا غيره ، وهذا تقنيط ونكاية لهم فوق ماهم فيه ولا يضر فى ذلك علمه بيأسهم إن قلنا به ٭

وذكر بعض الأجلة أن فيه استهزاء لأنه أقام المكث مقام الخلود والمكث يشعر بالانقطاع لأنه كما قال الراغب ثبات مع انتظار ، ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بماكثون من حيث أنه يشعر بالاختيار وإجابتهم بذلك بعد مدة ٭

قال ابن عباس يجيبهم بعد مضى ألف سنة، وقال نوف: بعد مائة، وقيل ثمانين، وقيل أربعين ٭

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ٧٨ ﴾ خطاب توبيخ وتقريع من جهته تعالى مقرر لجواب مالك ومبين اسبب مكثهم، ولا مانع من خطابه سبحانه الكفرة تقريعا لهم ، وقيل : هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام وهو كما يقول أحد خدم الملك للرعية أعلمناكم وفعلنا بكم قيل لايجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع ينافيه بل لأن مالكا لايصح منه أن يقوله لأنه لاخدمة له غير خزنه للنار ٭

وفيه بحث ، وقيل: فى (قال) ضميره تعالى فالكل مقوله عز وجل، وقيل: إن قوله تعالى (إنكم ماكثون) خاتمة حال الفريقين، وقوله سبحانه لقد الخ كلام آخر مع قريش والمراد عليه جئناكم فى هذه السورة أو القرآن بالحق، وعلى ماتقدم لقد جئناكم فى الدنيا بالحق وهو التوحيد وسائر مايجب الايمان به وذلك بارسال الرسل وإنزال الكتب ولكن أكثركم للحق أى حق كان كارهون لايقبلونه وينفرون منه وفسر الحق بذلك دون الحق المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان (أكثركم) فان الحق المعهود كلهم كارهون له مشمئزون منه، وقد يقال: الظاهر العهد وعبر بالأكثر لأن من الأتباع من يكفر تقليدا. وقرىء (لقدجئتكم) وقوله تعالى:

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا ﴾ كلام مبتدأ ناع على المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، و(أم) منقطعة وما فيها معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء والهمزة للانكار فان أريد بالابرام الاحكام حقيقة فهى لانكار الوقوع واستبعاده، وإن أريد الاحكام صورة فهى لانكار الواقع واستقباحه أى بل أبرم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩ ﴾ كيدنا حقيقة لاهم أو فانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما أبرموا كيدهم صورة كقوله تعالى (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) والآية إشارة إلى ماكان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وإلى ماكان منه عز وجل من تدميرهم، وقيل: هو من تتمة الكلام السابق، والمعنى أم أبرموا فى تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته فانا مبرمون أمرا فى مجازاتهم ، فان كان ذلك خطابا لأهل النار فابرام الأمر فى مجازاتهم هو تخليدهم فى النار معذبين، وإن كان خطابا لقريش فهو خذلانهم ونصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم فكأنه قيل: فانا مبرمون أمرا فى مجازاتهم وإظهار أمرك ، وفيه إشارة إلى أن ابرامهم لايفيدهم، ولا يغنى عنهم شيئا والعدول عن الخطاب فى أكثركم إلى الغيبة فى أبرموا على هذا

القيل للاشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم.ويؤيده ماذكر أولا على ما قيل قوله تعالى :

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ لأنه يدل على أن ما أبرموه كان أمرا قد أخفوه فيناسب الكيد دون تكذيب الحق لأن الكفرة مجاهرون فيه والمراد بالسر هنا حديث النفس أى بل أيحسبون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك الكيد ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أى تناجيهم وتحادثهم سرا *

وقال غير واحد: السر ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى ﴿بَلَى﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون لهم ﴿يَكْتُبُونَ ٨٠﴾ أى يكتبونهما أو يكتبون كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التى من جملتها ما ذكره والمضارع للاستمرار التجددى، وهو مع فاعله خبر و (لديهم) حال قدم للفاصلة أو خبر أيضا وجملة المبتدا والخبر إما عطف على ما يترجم عنه بلى أو حال أى نسمع ذلك والحال أن رسلنا يكتبونه، وإذا كان المراد بالسر حديث النفس فالآية ظاهرة فى أن السر والكلام المخيل مسموع له تعالى، وكذا هى ظاهرة فى أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة، ولا يبعد ذلك بأن يطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه* ومن خص كتابهم بالأمور الغير القلبية خص السر بما حدث به الغير فى مكان خال ، والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة ولا يستبعد من الكفرة الجهلة، فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال: بينا ثلاثة عند الكعبة وأستارها قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى فقال واحد منهم ترون الله تعالى يسمع كلامنا فقال واحد: إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع فنزلت (أم يحسبون الآية) *

وقيل : إنهم نزلوا فى إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عز وجل منزلة من يحسب أن الله سبحانه لا يسمع سره ونجواه ﴿قُلْ﴾ أى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك ما يعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ٨١﴾ أى لذلك الولد وكان بمعنى صح كما يقال ما كان لك أن تفعل كذا وهو أحد استعمالاتها، و (أول) أفعل تفضيل والمفضل عليه المقول لهم، وجوز اعتبار ذلك مطلقا، والمراد إظهار الرغبة والمسارعة ، والمنساق إلى الذهن الأول *

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز وأحرصهم على مراعاة حقوقه وما توجبه من تعظيم ولده سبحانه فان حق الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده لما أن تعظيم الولد تعظيم الوالد فالمعنى إن كان للرحمن ولد وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له كما يعظم الرجل ولد الملك لعظم أبيه، وهذا نفى لكينونة ولد له سبحانه على أبلغ وجه وهو الطريق البرهانى والمذهب الكلامى، فانه فى الحقيقة قياس استثنائى استدل فيه بنفى اللازم البين انتفاؤه وهو عبادته ﷺ للولد على نفى الملزوم وهو كينونة الولد له سبحانه ، وذلك نظير قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) لكنه جىء بأن دون لو لجعل ما فى حيزها بمنزلة ما لا قطع بعدمه على طريق المساهلة وارخاء العنان للتبكيت والافحام *

وفى الكشف أن فى الآية مبالغة من حيث أنه جعل الممكن فى نفسه أعنى عبادته عليه الصلاة والسلام لما يدعونه ولدا محالا فهو نفى لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مسببا عن محال ثم نفى للولد كذلك من طريق آخر وهو أنه لما لم يعبد ﷺ الولد مع كونه أولى بعبادته لو كان دل على نفيه ، ونحوها ذكر فى الآية مرويا عن قتادة . والسدى . والطبرى *

وأخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن جرير عن مجاهد أن المعنى قل إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول من عبدالله تعالى وحده وكذبكم بما تقولون فالمراد من كونه عليه الصلاة والسلام أول العابدين كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أول من ينكر ذلك عليهم ، والملازمة فى الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد له تعالى تقتضى أن يكذبهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأن يكون أول من ينكره لأنه صاحب الدعوة إلى التوحيد ، وقد خفى ذلك على الامام فنفى صحة هذا الوجه ، وتكلف بعضهم فقال : إن تسبب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية فى العبادة والتوحيد من بينهم فانهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبى ﷺ أولهم فى عبادة الله تعالى وحده لامحالة ، وقيل : ان السببية باعتبار الاخبار والذكر نحو ان تضربنى فأنا لأضربك وهو أولى مما قبله ، والانصاف ان الارتباط خفى لا يظهر الا لمجاهد ، وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يسم أحدا منهم ان (العابدين) من عبد يعبد كفرح يفرح اذا أنف من الشيء ، ومنه قوله :

* وأعبد ان اهجو كليبا بدارم * وقول الآخر :

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ... ويعبد عليه لا محالة ظالما

أى ان كان للرحمن ولد فأنا أول الآنفين من الولد أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عز وجل. وروى نحو هذا عن ابن عباس أخرج الطستى عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرنى عن قوله تعالى (فأنا أول العابدين) فقال:أنا أول من ينفر عن أن يكون لله تعالى ولد، وأيد ذلك بقراءة السلمى. واليمانى (العبدين) جمع عبد كحذر وحذرين وهو المعروف فى معنى أنف وقلما يقال فيه عابد، ومن هنا ضعف ابن عرفة هذا الوجه لما فيه من استعمال ما قل استعماله فى كلامهم ، وذكر الخليل فى كتاب العين أنه قرئ (العبدين) بسكون الباء تخفيف العبدين بكسرها ، وقال أبو حاتم: العبد بكسر الباء الشديد الغضب ، وقال أبو عبيدة : العرب تقول عبدنى حقى أى جحدنى ، وروى عن الحسن . وابن زيد . وزهير بن محمد وهو رواية عن ابن عباس . وقتادة . والسدى أيضا أن (إن) نافية أى ما كان للرحمن ولد فانا أول من قال ذلك وعبد ووحد، و(كان) دالة للاستمرار والمقصود استمرار النفى لا نفى الاستمرار والفاء للسببية. وتعقب بأنه خلاف الظاهر مع خفاء وجه السببية أوحسنها ، وزعم مكى أنه لا يجوز لايهامه نفى الولد فيما مضى وهو كما ترى *

وقرأ عبد الله . وابن وثاب . وطلحة . والأعمش . وحمزة . والكسائى كما قال القاضى (ولد) بضم الواو وسكون اللام جمع ولد بفتحتها *

﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾ اى عن وصفهم أو الذى يصفونه

به من كونه سبحانه له ولد ، وفى إضافة اسم الرب إلى أعظم الاجرام وأقواها تنبيه على أنها وما فيهما من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته تعالى وربوبيته عز وجل كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزأ منه سبحانه وهو ينافى وجوب الوجود ، وفى تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيم لشأن العرش ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فدعهم غير ملتفت اليهم حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلى ﴿ يَخُوضُوا ﴾ فى أباطيلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا ﴾ فى دنياهم فان ماهم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل، والجزم لجواب الأمر ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ٨٣ ﴾ وهو يوم القيامة عند الأكثرين ، وعن عكرمة . وجماعة أنه يوم بدر وقد وعدوا الهلاك فيه ، وقريب منه تفسيره بيوم الموت ، وقيل : ينبغى تفسيره به دون يوم القيامة لأن الغاية للخوض واللعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت ، وانتصر للاكثرين بأن يوم القيامة هو اليوم الموعود وبه سمى فى لسان الشرع وتفسيره بذلك مخالف للمعروف ولما بعد من ذكر الساعة، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوع بان الموت وما بعده فى حكم القيامة ولذا ورد من مات فقد قامت قيامته ومثله قد يراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء فيقال : لايزال فى ضلالة إلى أن تقوم القيامة ٭

وقرأ أبو جعفر . وابن محيصن . وعبيد بن عقيل . عن أبى عمرو (يلقوا) مضارع لقى، والآية قيل منسوخة بآية السيف ﴿ وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ الظرفان متعلقان بإله لأنه صفة بمعنى معبود من أله بمعنى عبد وهو خبر مبتدا محذوف أى هو إله وذلك عائد الموصول وحذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه ٭

وقال غير واحد : الجار متعلق بإله باعتبار ما ينبىء عنه من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق وهذا كتعلق الجار بالعلم المشتهر بصفة نحو قولك : هو حاتم فى طىء حاتم فى تغلب ، وعلى هذا تخرج قراءة عمر . وعلى . وعبد الله . وأبى . والحكم بن أبى العالى . وبلال بن أبى بردة . وابن يعمر . وجابر . وابن زيد . وعمر بن عبد العزيز . وأبو شيخ الهنائى . وحميد . وابن مقسم . وابن السميقع (وهو الذى فى السماء الله وفى الأرض الله) فيعلق الجار بالاسم الجليل باعتبار الوصف المشتهر به، واعتبر بعضهم معنى الاستحقاق للعبادة وعلل ذلك بان العبادة بالفعل لاتلزم ، وجوز كون الجار والمجرور صلة الموصول، و(إله) خبر مبتدا محذوف أيضا على أن الجملة بيان للصلة وأن كونه سبحانه فى السماء على سبيل الالهية لا على معنى الاستقرار ٭

واختير كون (إله) فى هذا الوجه خبر مبتدا محذوف على كونه خبرا آخر للمبتدا المذكور أو بدلا من الموصول أو من ضميره بناء على تجويزه لأن إبدال النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يستفد أولا كما هنا جائز حسن على ما قال أبو على فى الحجة لأن البيان ههنا أتم وأهم فلذا رجح مع ما فيه من التقدير وحينئذ فلا فاصل أجنبى بين المتعاطفين ، ولا يجوز كون الجار والمجرور خبر مقدما وإله مبتدأ مؤخرا للزوم خلو الجملة عن العائد مع فساد المعنى ، وفى الآية نفى الآلهة السماوية والأرضية واختصاص الالهية به عز وجل لما فيها من تعريف طرفى الاسناد ، والموصول فى مثل ذلك كالمعرف بالأداة وللاعتناء بكل من إلهيته تعالى فى السماء وإلهيته عز وجل فى الأرض قيل (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) ولم يقل: وهو الذى فى السماء وفى الأرض إله أو هو الذى فى السماء والأرض إله، وحديث الاعادة قيل مما لايجرى ههنا لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعد العربية ٭

وقال بعض الأفاضل: يجوز إجراء القاعدة فيه والمغايرة بين الشيئين أعم من أن تكون بالذات أو بالوصف

والاعتبار والمراد هنا الثانى ولاشك أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار فاذا كان إله بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبود فى السماء على وجه ومعبود فى الأرض على وجه آخر، وإن كان بمعنى التحير فيه فالتحير فى أهل السماء غير التحير فى أهل الأرض فلاجرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوار أهل الأرض، ومن ذلك اختلاف علومهم فان علوم أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندة إلى الحس وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر فاذا انسد طريق النظر والحس عجزوا وتحيروا ولا كذلك أهل السماء لتنزههم عن الكسب والحس فتحيرهم على نحو آخر، أونقول التحير فى إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قدرته سبحانه ولا شك أن تلك الآثار فى السماء أعظم من الآثار فى الأرض وعليه فيجوز أن يكون الاله بمعنى المتحير فيه ويكون مجازا عن عظيم الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن فى السماء على نحو وعظيم الشأن فى الأرض على نحو آخر اه، ولا يخلو عن شىء كما لايخفى ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ٨٤ ﴾ كالدليل على النفى والاختصاص المشار إليهما فان من لا يتصف بكمال الحكمة والعلم لايستحق الإلهية.

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كالهواء ومخلوقات الجو المشاهدة وغيرها ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى العلم بالساعة أى الزمان الذى تقوم القيامة فيه فالمصدر مضاف لمفعوله، والساعة بمعناها اللغوى وهو مقدار قليل من الزمان، ويجوز أن يراد بها معناها الشرعى وهو يوم القيامة، والمحذور مندفع بادنى تأمل، وفى تقديم الخبر إشارة إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٥ ﴾ للجزاء، والالتفات إلى الخطاب للتهديد، وقرأ الأكثر بياء الغيبة والفعل فى القراءتين مبنى للمفعول، وقرىء بفتح تاء الخطاب والبناء للفاعل، وقرىء (تحشرون) بتاء الخطاب أيضا والبناء للمفعول ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أى ولا يملك آلهتهم الذين يدعونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل، وقرىء (تدعون) بتاء الخطاب والتخفيف، والسلمى. وابن وثاب بها وشد الدال ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الذى هو التوحيد ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦ ﴾ اى يعلمونه، والجملة فى موضع الحال، وقيد بها لأن الشهادة عن غير علم بالمشهود به لا يعول عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد أولا باعتبار لفظه، والمراد به الملائكة. وعيسى وعزير. وأضرابهم صلاة الله تعالى وسلامه عليهم، والاستثناء قيل: متصل إن أريد بالذين يدعون من دونه كل ما يعبد من دون الله عز وجل ومنفصل إن اريد بذلك الاصنام فقط، وقيل: هو منفصل مطلقا وعلل بان المراد نفى ملك الآلهة الباطلة الشفاعة للكفرة ومن شهد بالحق منها لايملك الشفاعة لهم أيضا وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين فكأنه قيل على تقدير التعميم: ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنا ما كانوا الشفاعة لهم لكن من شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين، فالكلام نظير قولك: ماجاء القوم الى الا زيدا جاء الى عمرو فتأمل.

وقال مجاهد. وغيره: المراد بمن شهد بالحق المشفوع فيهم، وجعل الاستثناء عليه متصلا والمستثنى منه محذوفا كأنه قيل: ولا يملك هؤلاء الملائكة واضرابهم الشفاعة فى أحد الإفيمن وحد عن ايقان واخلاص

ومثله فى حذف المستثنى منه قوله :

نجا سالم والنفس منه بشرقة ولم ينج الاجفن سيف ومئزرا

أى ولم ينج شيء الاجفن سيف ، واستدل بالآية على أن العلم مما لابد منه فى الشهادة دون المشاهدة ٭

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ أى سألت العابدين أو المعبودين ﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ لتعذر المكابرة فى ذلك من فرط ظهوره ووجه قول المعبودين ذلك أظهر من أن يخفى ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ٨٧ ﴾ فكيف يصرفون عن عبادته تعالى الى عبادة غيره سبحانه ويشركون معه عز وجل مع اقرارهم بأنه تعالى خالقهم أو مع علمهم باقرار آلهتهم بذلك، والفاء جزائية أى اذا كان الامر كذلك فانى الخ ، والمراد التعجب من اشراكهم مع ذلك، وقيل: المعنى فكيف يكذبون بعد علمهم بذلك فهو تعجب من عبادة غيره تعالى وانكارهم للتوحيد مع أنه مركوز فى فطرتهم، وأيا ما كان فهو متعلق بما قبله من التوحيد والاقرار بأنه تعالى هو الخالق، وأما كون المعنى فكيف أو أين يصرفون عن التصديق بالبعث مع أن الاعادة أهون من الابداء وجعله متعلقا بامر الساعة كما قيل فيأباه السياق ٭

وقرأ عبد الوارث عن أبى عمرو (تؤفكون) بتاء الخطاب ﴿ وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴾ بجر (قيله) وهى قراءة عاصم . وحمزة . والسلمى . وابن وثاب : والأعمش .

وقرأ الاعرج . وأبو قلابة . ومجاهد . والحسن . وقتادة . ومسلم بن جندب برفعه وهى قراءة شاذة ٭

وقرأ الجمهور بنصبه، واختلف فى التخريج فقيل الجر على عطفه على لفظ الساعة فى قوله تعالى (وعنده علم الساعة) أى عنده علم قيله ، والنصب على عطفه على محلها لأنها فى محل نصب بعلم المضاف اليها فانه كما قدمنا مصدر مضاف لمفعوله فكأنه قيل : يعلم الساعة ويعلم قيله، والرفع على عطفه على (علم الساعة) على حذف مضاف والاصل وعلم قيله فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ونسب الوجه الأول لابى على والثالث لابن جنى وجميع الاوجه للزجاج وضمير (قيله) عليها للرسول صلى الله تعالى عليه المفهوم من قوله تعالى (ولئن سألتهم) والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد ، والمنادى ومافى حيزه مقول القول، والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكى من عدم ايمان أولئك القوم ، وفى الاشارة اليهم بهؤلاء دون قوله قومى ونحوه تحقير لهم وتبر منهم لسوء حالهم، والمراد من اخباره تعالى بعلمه ذلك وعيده سبحانه اياهم، وقيل: الجر على اضمار حرف القسم والنصب على حذفه وايصال فعله اليه محذوفا والرفع على نحو لعمرك لأفعلن واليه ذهب الزمخشرى وجعل المقول يارب وقوله سبحانه (إن هؤلاء) الخ جواب القسم على الاوجه الثلاثة وضمير (قيله) كما سبق، والكلام اخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون وإقسامه سبحانه عليه بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : يارب لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيم دعائه والتجائه اليه تعالى، والواو عنده للعطف أعنى عطف الجملة القسمية على الجملة الشرطية لكن لما كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحل عنها معنى العطف ، وفيه أن الحذف الذى تضمنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها فى القسم كعمرك وايمن الله واضح الوجه على الاوجه الثلاثة ، وأما فى غيرها كالقيل هنا فلا يخلو عن ضعف، وقيل: الجر على أن الواو واو القسم والجواب محذوف أى لتنصرنه أو لنفعلن بهم مانشاء حكاه فى البحر وهو كما ترى ، وقيل: النصب على العطف على مفعول يكتبون المحذوف أى يكتبون أقوالهم

وأفعالهم وقيله يارب الخ وليس بشيء، وقيل: هو على العطف على مفعول يعلمون أعنى الحق أى يعلمون الحق وقيل الخ، وهو قول لايكاد يعقل، وعن الاخفش أنه على العطف على (سرهم ونجواهم) ورد بأنه ليس بقوى فى المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضا ومع تنافر النظم. وتعقب أن ماذكر من الفصل ظاهر وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغير مسلم لأن تقديره أم يحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم وانا لانسمع قيله الخ وهو منتظم أتم انتظام، وعنه أيضا أنه على اضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية والتقدير قال قيله ويؤيده قراءة ابن مسعود (وقال الرسول) والجملة معطوفة على ما قبلها. ورد بأنه لايظهر فيه مايحسن عطفه على الجملة قبله وليس التأكيد بالمصدر فى موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى (فاصفح) به، وقال العلامة الطيبي: فى توجيهه إن قوله تعالى: (ولئن سألتهم) تقديره وقلنا لك: ولئن سألتهم الخ وقلت: يارب يأسا من إيمانهم وانما جعل غائبا على طريق الالتفات لأنه كأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فاقد نفسه للتحزن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده، وقيل: الواو على هذا الوجه للحال وقال بتقدير قد والجملة حالية أى فانى يؤفكون وقد قال الرسول يارب الخ، وحاصله فانى يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والسلام اصرارهم على الكفر وهو خلاف الظاهر، وقيل: الرفع على الابتداء والخبر يارب الى لا يؤمنون أو هو محذوف أى مسموع أو متقبل فجملة النداء وما بعده فى موضع نصب بقيله والجملة حال أو معطوفة، ولا يخفى ما فى ذلك، والاوجه عندى ماانسب الى الزجاج، والاعتراض عليه بالفصل هين، وبضعف المعنى والتنافر غير مسلم، فنى الكشف بعد ذكر تخريج الزجاج الجر أن الفاصل أعنى من قوله تعالى (واليه ترجعون - الى - يؤفكون) يصلح اعتراضا لأن قوله سبحانه (وعنده علم الساعة) مرتبط بقوله تعالى: (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) على ما لا يخفى، والكلام مسوق للوعيد البالغ بقوله تعالى: (واليه ترجعون) الى قوله عزوجل: (وهم يعلمون) متصل بقوله تعالى: (وعنده علم الساعة) اتصال العصا بلحاها، وقوله تعالى (ولئن سألتهم) خطاب لمن يتأتى منه السؤال تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ماأوعدوه لعنادهم البالغ، ومنه يظهر وقوع التعجب فى قوله سبحانه (فأنى يؤفكون) وعلى هذا ظهر ارتباط وعلم قيله بقوله تعالى: (وعنده علم الساعة) وأن الفاصل متصل بهما اتصالا يحل موقعه، ومن هذا التقرير يلوح أن ماذهب اليه الزجاج فى الاوجه الثلاثة حسن، ولك أن ترجحه على ماذهب اليه الاخفش بتوافق القراءتين، وأن حمل (ولئن سألتهم) على الخطاب المتروك الى غير معين أوفق بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام وسلامته من اضمار القول قبل قوله تعالى: (ولئن سألتهم) مع أن السياق غير ظاهر الدلالة عليه اهـ، وهو أحسن مارأيته للمفسرين فى هذا المقام. وقرأ أبو قلابة (يارب) بفتح الباء ووجه ظاهر ﴿فَٱصْفَحْ﴾ فأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ ولاتطمع فى ايمانهم، وأصل الصفح لى صفحة العنق فكنى به عن الاعراض *

﴿وَقُلْ﴾ لهم ﴿سَلَامٌ﴾ أى امرى سلام تسلم منكم ومتاركة فليس ذلك امرا بالسلام عليهم والتحية وإنما هو امر بالمتاركة، وحاصله إذا أبيتم القبول فأمرى التسلم منكم، واستدل بعضهم بذلك على جواز السلام على الكفار وابتدائهم بالتحية، اخرج ابن أبى شيبة. عن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع على بن عبد الله البارقى فمر علينا يهودى او نصرانى فسلم عليه قال شعيب: فقلت: إنه يهودى او نصرانى فقرأ على آخر سورة الزخرف (وقيله يارب) إلى الآخر، وأخرج ابن أبى شيبة أيضا عن عون بن عبد الله أنه قال قلت لعمر بن عبد العزيز كيف

تقول أنت فى ابتداء أهل الذمة بالسلام؟فقال: ماارى بأساأن نبتدئهم.قلت لم؟ قال:لقوله تعالى:(فاصفح عنهم وقل سلام)وبماذكرنا يعلم ضعفه ، وقال السدى:المعنى قل خيرا بدلا من شرهم ، وقال مقاتل: اردد عليهم معروفا، وحكى الماوردى أى قل ماتسلم به من شرهم والكل كماترى والحق ماقدمنا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٨٩﴾ حالهم السيئة وإن تأخر ذلك وهو وعيد من الله سبحانه لهم وتسلية لرسوله ﷺ ، وقرأ أبو جعفر . والحسن . والاعرج . ونافع .وهشام(تعلمون)بتاءالخطاب على أنه داخل فى حيز(قل)وإن أريد من الآية الكف عن القتال فهى منسوخة وإن أريد الكف عن مقابلاتهم بالكلام فليست بمنسوخة والله تعالى أعلم ٭

﴿ سورة الدخان ٤٤ ﴾

مكية كما روى عن ابن عباس.وابن الزبير رضى الله تعالى عنهم واستثنى بعضهم قوله تعالى:(إنا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون)وآيها كما قال الدانى تسع وخمسون فى الكوفى وسبع فى البصرى وست فى عدد الباقين٭ واختلافها على مافى مجمع البيان أربع آيات(حم وإن هؤلاء ليقولون) كوفى(شجرة الزقوم)عراقى شامى والمدنى الأول فى(البطون)عراقى مكى والمدنى الاخير .ووجه مناسبتها لما قبلها أنه عز وجل ختم ماقبل بالوعيد والتهديد وافتتح هذه بشىء من الانذار الشديد وذكر سبحانه هناك قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم:(يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون)وهنا نظيره فيما حكى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى (فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) وأيضا ذكر فيما تقدم(فاصفح عنهم وقل سلام)وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام(إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون)وهو قريب من قريب إلى غير ذلك،وهى احدى النظائر التى كان يصلى بهن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما أخرج الطبرانى عن ابن مسعود الذاريات والطور والنجم واقتربت والرحمن والواقعة ونون والحاقة والمزمل ولاأقسم بيوم القيامة وهل أتى على الانسان والمرسلات وعم يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطففين وإذا الشمس كورت والدخان ،وورد بفضلها أخبار٭

أخرج الترمذى.ومحمد بن نصر. وابن مردويه.والبيهقى عن أبى هريرة قال:قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك »وأخرج المذكورون عنه أيضا يرفعه من قرأ حم الدخان فى ليلة جمعة أصبح مغفوراً له » وفى رواية للبيهقى.وابن الضريس عنه مرفوعا «من قرأ ليلة الجمعة حم الدخان ويس أصبح مغفوراً له » وأخرج ابن الضريس عن الحسن ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال «من قرأ سورة الدخان فى ليلة غفر له ماتقدم من ذنبه»وأخرج ابن مردويه عن أبى أمامة قال.قال رسول الله ﷺ «من قرأ حم الدخان فى ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله تعالى له بيتا فى الجنة » ٭

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة ٭

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب المبين الذى هو القرآن على القول المعول عليه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هى ليلة القدر على ماروى عن ابن عباس . وقتادة . وابن جبير . ومجاهد . وابن زيد . والحسن . وعليه أكثر المفسرين والظواهر معهم ، وقال عكرمة.وجماعة: هى ليلة النصف من شعبان . وتسمى ليلة الرحمة والليلة المباركة وليلة الصك وليلة البراءة ، ووجه تسميتها بالآخيرين أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة

والصك كذلك أن الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة والصك فى هذه الليلة . وظاهر كلامهم هنا أن البراءة وهى مصدر برئ براءة إذا تخلص تطلق على صك الأعمال والديون وما ضاهاها وأنه ورد فى الآثار ذلك وهو مجاز مشهور وصار بذلك كالمشترك، وفى المغرب برئ من الدين والعيب براءة ، ومنه البراءة لخط الابراء والجمع براءات وبروات عامية اه *

وأكثر أهل اللغة على أنه لم يسمع من العرب وأنه عامى صرف، إن كان من باب المجاز الواسع *

قال ابن السيد فى المقتضب البراءة فى الأصل مصدر برىء براءة ، وأما البراءة المستعملة فى صناعة الكتاب فتسميتها بذلك اما على أنها من برىء من دينه إذا أداه وبرئت من الأمر إذا تخليت منه فكأن المطلوب منه أمر تبرأ إلى الطالب أو تخلى ، وقيل : أصله أن الجانى كان إذا جنى وعفا عنه الملك كتب له كتاب أمان مما خافه فكان يقال: كتب السلطان لفلان براءة ثم عمم ذلك فيما كتب من أولى الأمر وأمثالهم اه *

وذكروا فى فضل هذه الليلة أخبارا كثيرة، منها ما أخرجه ابن ماجه . والبيهقى فى شعب الايمان عن على كرم الله وجهه قال : « قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها فان الله تعالى ينزل فيها لغروب الشمس إلى السماء الدنيا فيقول : ألا مستغفر فأغفر له ألا مسترزق فأرزقه ألا مبتلى فأعافيه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر » وما أخرجه الترمذى . وابن أبى شيبة . والبيهقى . وابن ماجه . عن عائشة قالت : « فقدت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذات ليلة فخرجت أطلبه فاذا هو بالبقيع رافعا رأسه إلى السماء فقال يا عائشة : أكنت تخافين أن يحيف الله تعالى عليك ورسوله؟ قلت: مابى من ذلك ولكنى ظننت أنك أتيت بعض نسائك ، فقال : إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب» وما أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : «يطلع الله تعالى إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحن وقاتل نفس » وذكر بعضهم فيها صلاة مخصوصة وأنها تعدل عشرين حجة مبرورة وصيام عشرين سنة مقبولا، وروى فى ذلك حديثا طويلا عن على كرم الله تعالى وجهه، وقد أخرجه البيهقى ثم قال: يشبه أن يكون هذا الحديث موضوعا وهو منكر وفى رواته مجهولون وأطال الوعاظ الكلام فى هذه الليلة وذكر فضائلها وخواصها ، وذكروا عدة أخبار فى أن الآجال تنسخ فيها . وفى الدر المنثور طرف غير يسير من ذلك وسنذكر بعضا منه إن شاء الله تعالى. وفى البحر قال الحافظ أبو بكر بن العربى : لا يصح فيها شىء ولا نسخ الآجال فيها ولا يخلو من مجازفة والله تعالى أعلم . والمراد بانزاله فى تلك الليلة إنزاله فيها جملة إلى السماء الدنيا من اللوح فالانزال المنجم فى ثلاث وعشرين سنة أو أقل كان من السماء الدنيا وروى هذا عن ابن جرير وغيره، وذكر أن المحل الذى أنزل فيه من تلك السماء البيت المعمور وهو مسامت للكعبة بحيث لو نزل لنزل عليها *

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النخعى أنه قال: نزل القرآن جملة على جبريل عليه السلام وكان جبريل عليه السلام يجىء به بعد إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *

وقال غير واحد: المراد ابتداء إنزاله فى تلك الليلة على التجوز فى الطرف أو النسبة واستشكل ذلك بأن

ابتداء السنة المحرم أو شهر ربيع الأول لأنه ولد فيه صلى الله تعالى عليه وسلم ومنه اعتبر التاريخ فى حياته عليه الصلاة والسلام إلى خلافة عمر رضى الله تعالى عنه وهو الأصح، وقد كان الوحى اليه صلى الله تعالى عليه وسلم على رأس الأربعين سنة من مدة عمره عليه الصلاة والسلام على المشهور من عدة أقوال فكيف يكون ابتداء الانزال فى ليلة القدر من شهر رمضان أو فى ليلة البراءة من شعبان *

وأجيب بأن ابتداء الوحى كان مناما فى شهر ربيع الأول ولم يكن بانزال شىء من القرآن والوحى يقظة مع الانزال كان فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وقيل لسبع منه ، وقيل لأربع وعشرين ليلة منه ، وأنت تعلم كثرة اختلاف الأقوال فى هذا المقام فمن يقول بابتداء انزاله فى شهر يلتزم منها مالا يأباه *

واختلف فى أول ما نزل منه، ففى صحيح مسلم أنه (يأأيها المدثر) وتعقبه النووى فى شرحه فقال: إنه ضعيف بل باطل والصواب أن أول ما نزل على الاطلاق (اقرأ باسم ربك) كما صرح به فى حديث عائشة، وأما (يأأيها المدثر) فكان نزولها بعد فترة الوحى كما صرح به فى رواية الزهرى عن أبى سلمة . عن جابر *

وأما قول من قال من المفسرين اول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر اه والكلام فى ذلك مستوفى فى الاتقان فليرجع اليه من أراده *

ووصف الليلة بالبركة لما أن إنزال القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها أو لما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وفضيلة العبادة أو لما فيها من ذلك وتقدير الأرزاق وفصل الأقضية كالآجال وغيرها وإعطاء تمام الشفاعة له عليه الصلاة والسلام ، وهذا بناء على أنها ليلة البراءة، فقد روى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى أمته فأعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع إلا من شرد على الله تعالى شراد البعير، وأياما كان فقد قيل: إن التعليل إنما يحتاج اليه بناء على القول بما اختاره العز بن عبدالسلام من أن الأمكنة والأزمنة كلها متساوية فى حد ذاتها لا يفضل بعضها بعضا إلا بما يقع فيها من الأعمال ونحوها، وزاد بعضهم أو يحل لتدخل البقعة التى ضمته صلى الله تعالى عليه وسلم فانها أفضل البقاع الأرضية والسماوية حتى قيل وبه أقول إنها افضل من العرش *

والحق أنه لا يبعد أن يخص الله سبحانه بعضها بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيا إلى إقدام المكلف على الأعمال فيها أو لحكمة أخرى ، وجملة (إنا أنزلناه) جواب القسم، وفى ذلك مبالغة نحو ما فى قوله: * وثناياك أنها إغريض *

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ استئناف يبين المقتضى للانزال، وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ استئناف أيضا لبيان التخصيص بالليلة المباركة فكأنه قيل: أنزلناه لأن من شأننا الانذار والتحذير من العقاب وكان انزاله فى تلك الليلة المباركة لأنه من الامور الدالة على الحكم البالغة وهى ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ففى الكلام لف ونشر ، واشتراط أن يكون كل منهما بجملتين مستقلتين مما لا داعى اليه، وقيل: إن جملة (فيها يفرق) الخ صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض لا يضر الفصل به بل لا يعد الفصل به فصلا، وقيل إن قوله تعالى (انا كنا منذرين) هو جواب القسم وما بينهما اعتراض واليه ذهب ابن عطية زاعما أنه لا يجوز جعل (إنا أنزلناه) جوابا له لما فيه من القسم بالشىء على نفسه *

واعترض بأن قوله تعالى: (فيها يفرق كل أمر حكيم) يكون حينئذ من تتمة الاعتراض فلا يحسن تأخره عن

المقسم عليه ولا يدفعه أن هذه الجملة مستأنفة لاصفة أخرى لأنه استئناف بيانى متعلق بما قبل كما سمعت آنفا فلا يليق الفصل أيضا كما لايخفى على من له ذوق سليم، وماذكر من حديث القسم بالشيء على نفسه فقد أشرنا الى جوابه، وقيل أن قوله سبحانه: (انا كنا منذرين) جواب آخر للقسم وفيه تعدد المقسم عليه من غير عطف ولم نر من تعرض له، ومعنى يفرق يفصل ويلخص، والحكيم بمعنى المحكم لأنه لايبدل ولايغير بعد ابرازه للملائكة عليهم السلام بخلافه قبله وهو فى اللوح فان الله تعالى يمحو منه مايشاء ويثبت *

وجوز أن يكون بمعنى المحكوم به ونسبته الى الامر عليها حقيقة، ويجوز أن يكون المعنى كل أمر ملتبس بالحكمة والاصل حكيم صاحبه فتجوز فى النسبة، وقيل: إن حكيم للنسبة كتامر ولابن وقد أبهم سبحانه هذا الامر *

وأخرج محمد بن نصر. وابن المنذر. وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال فى ذلك: يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر مايكون فى السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج يحج فلان ويحج فلان *

وأخرج عبد بن حميد. وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنت عند الحسن فقال له رجل: ياأباسعيد ليلة القدر فى كل رمضان هي؟ قال: إي والله إنها لفى كل رمضان وإنها لليلة يفرق فيها كل أمر حكيم فيها يقضى الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها، وروى هذا التعميم عن غير واحد من السلف *

وأخرج البيهقى عن أبى الجوزاء فيها يفرق كل أمر حكيم هى ليلة القدر يجاء بالديوان الأعظم السنة إلى السنة فيغفر الله تعالى شأنه لمن يشاء ألا ترى أنه عز وجل قال (رحمة من ربك) وفيه بحث، وإلى مثل ذلك التعميم ذهب بعض من قال: إن الليلة المباركة هى ليلة البراءة، أخرج ابن جرير. وابن المنذر. وابن أبى حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة أنه قال فى الآية: فى ليلة النصف من شعبان يبرم أمر السنة وينسخ الأحياء من الأموات ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم ولاينقص منهم أحد، وفى كثير من الأخبار الاقتصار على قطع الآجال، أخرج ابن جرير. والبيهقى فى شعب الايمان عن الزهرى عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه فى الموتى، وأخرج الدينورى فى المجالسة عن راشد بن سعد أن النبي ﷺ قال: «فى ليلة النصف من شعبان يوحى الله تعالى إلى ملك الموت بقبض كل نفس يريد قبضها فى تلك السنة» ونحوه كثير، وقيل: يبدأ فى استنساخ كل أمر حكيم من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام ونسخة الحروب إلى جبرائيل عليه السلام وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الأعمال إلى اسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت *

وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تقضى الأقضية كلها ليلة النصف من شعبان وتسلم إلى أربابها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان. واعترض بما ذكر على الاستدلال بالظواهر على أن الليلة المذكورة هى ليلة القدر لاليلة النصف من شعبان ومن تدبر علم أنه لايخدش الظواهر، نعم حكى عن عكرمة أن ليلة النصف من شعبان هى ليلة القدر ويلزمه تأويل مايأبى ظاهره ذلك فتدبر، وسيأتى إن شاء الله عز وجل الكلام فى هذا المقام مستوفى على أتم وجه فى تفسير سورة القدر وهو سبحانه الموفق *

وقرأ الحسن. والأعرج. والأعمش (يفرق) بفتح الياء وضم الراء (كل) بالنصب أى يفرق الله تعالى، وقرأ

زيد بن على فيما ذكر الزمخشرى عنه (نفرق) بالنون (كل) بالنصب وفيما ذكر أبو على الاهوازى عنه بفتح الياء وكسر الراء ونصب (كل) ورفع (حكيم) على أنه الفاعل بيفرق، وقرأ الحسن. وزائدة عن الأعمش (يفرق) بالتشديد وصيغة المفعول وهو للتكثير وفيه رد على قول بعض اللغويين كالحريرى ان الفرق مختص بالمعانى والتفريق بالاجسام *

﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ نصب على الاختصاص وتنكيره للتفخيم، والجار والمجرور فى موضع الصفة له وتعلقه بيفرق ليس بشىء، والمراد بالعندية أنه على وفق الحكمة والتدبير أى أعنى بهذا الأمر أمراً فخيما حاصلا على مقتضى حكمتنا وتدبيرنا وهو بيان لزيادة فخامته ومدحه، وجوز كونه حالا من ضمير أمر السابق المستتر فى حكيم الواقع صفة له أو من (أمر) نفسه، وصح مجىء الحال منه مع أنه نكرة لتخصصه بالوصف على أن عموم النكرة المضاف اليها كل مسوغ للحالية من غير احتياج الوصف، وقول السمين: ان فيه القول بالحال من المضاف اليه فى غير المواضع المذكورة فى النحو صادر عن نظر ضعيف لأنه كالجزء فى جواز الاستغناء عنه بأن يقال: يفرق أمر حكيم على إرادة عموم النكرة فى الاثبات كما فى قوله تعالى: (علمت نفس ما أحضرت) وقيل: حال من (كل) وأياما كان فهو مغاير لذى الحال لوصفه بقوله تعالى: (من عندنا) فيصح وقوعه حالا من غير لغوية فيه، وكونها مؤكدة غير متأت مع الوصفية كما لا يخفى على ذى الذهن السليم، وهو على هذه الاوجه واحد الامور وجوز أن يراد به الامر الذى هو ضد النهى على أنه واحد الاوامر فحينئذ يكون منصوبا على المصدرية لفعل مضمر من لفظه أى أمرنا أمرا من عندنا، والجملة بيان لقوله سبحانه: (يفرق) الخ، وقيل: إما أن يكون نصبا على المصدرية ليفرق لأن كتب الله تعالى للشىء إيجابه وكذلك أمره عز وجل به كأنه قيل: يؤمر بكل شأن مطلوب على وجه الحكمة أمرا فالامر وضع موضع الفرقان المستعمل بمعنى الامر، واما أن يكون على الحالية من فاعل (أنزلنا) أو مفعوله أى إنا أنزلناه آمرين أمرا أو حال كون الكتاب أمرا يجب أن يفعل، وفى جعل الكتاب نفس الامر لاشتماله عليه أيضا تجوز فيه فخامة، وتعقب ذلك فى الكشف فقال: فيه ضعف للفصل بالجملتين بين الحال وصاحبها على الثانى ولعدم اختصاص الاوامر الصادرة منه تعالى بتلك الليلة على الاول، ووجهه أن تخص بالقرآن ولا يجعل قوله تعالى: (فيها يفرق) علة للانزال فى الليلة بل هو تفصيل لما أجمل فى قوله سبحانه: (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) على معنى فيها أنزل الكتاب المبين الذى هو المشتمل على كل مأمور به حكيم كأنه جعل الكتاب كله أمرا أو ما أمر به كل المأمورات وفيه مبالغة حسنة، ولا يخفى أن فى فهمه من الآية تكلفا * وقال الخفاجى فى امر الفصل: إنه لا يضر ذلك الفاصل على الاعتراض وكذا على التعليل لأنه غير أجنبى * وجوز بعضهم على تقدير أن يراد بالامر ضد النهى كونه مفعولا له والعامل فيه (يفرق أو أنزلنا أو منذرين) * وقرأ زيد بن على رضى الله تعالى عنهما (أمر) بالرفع وهى تنصر كون انتصابه فى قراءة الجمهور على الاختصاص لأن الرفع عليه فيها، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ تعليل ليفرق أو لقوله تعالى: (أمرا من عندنا) ورحمة مفعول به لمرسلين وتنوينها للتفخيم، والجار والمجرور فى موضع الصفة لها، وايقاع الارسال عليها هنا كايقاعه عليها فى قوله سبحانه: (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) والمعنى على ما فى الكشاف يفصل فى هذه الليلة كل أمر لأن من عادتنا أن نرسل رحمتنا وفصل كل أمر من قسمة الارزاق وغيرها من باب الرحمة أى أن المقصود الاصلى بالذات من ذلك الرحمة

أو تصدر الأوامر من عندنا لأن من عادتنا ذلك والأوامر الصادرة من جهته تعالى من باب الرحمة أيضا لأن الغاية لتكليف العباد تعريضهم المنافع ، وفيه كما قيل إشارة إلى أن جعله تعليلا لقوله سبحانه: أمراً من عندنا إنما هو على تقدير أن يراد بالأمر مقابل النهى وهو يجرى على تقديرى المصدرية والحالية *

وفى الكشف أن قوله : يفصل الخ أو تصدر الاوامر الخ تبيين لمعنى التعليل على التفسيرين فى (يفرق) لأنه أما بمعنى الفصل على الحقيقة من قسمة الارزاق وغيرها أو بمعنى يؤمر والشأن المطلوب يكون مأمورا به لامحالة فحاصله يرجع الى قوله : أو تصدر الاوامر من عندنا لا لوجهى التعليل من تعلقه بيفرق أو بأمرا فان تعلقه بأمرا إنما يصح اذا نصب على الاختصاص واذ ذاك ليس الأمر ما يقابل النهى لأن الأمر اذا كان المقابل فهو إما مصدر وإنما يعالى فعله وإما حال مؤكدة فيكون راجعا الى تعليل الانزال المخصوص وليس المقصود وانما لم يذكر المعنى على تقدير تعلقه بأمرا لأن المعنى الأول يصلح تفسيرا له أيضا انتهى *

والظاهر كون ذلك تبيينا لوجهى التعليل ، وما ذكر فى نفيه لايخلو عن بحث كما يعرف بالتأمل ، واعتبار العادة فى بيان المعنى جاء من كنافانه يقال : كان يفعل كذا لما تكرر وقوعه وصار عادة كما صرحوا به فى الكتب الحديثية وغيرها ولافادة ذلك عدل عن انا مرسلون الاخصر وقوله سبحانه: (من ربك) وضع فيه الظاهر موضع الضمير والاصل منا نجىء بلفظ الرب مضافا الى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم على وجه تخصيص الخطاب به صلى الله تعالى عليه وسلم تشريفا له عليه الصلاة والسلام ودلالة على أن كونه سبحانه ربك وأنت مبعوث رحمة للعالمين مما يقتضى أن يرسل الرحمة *

وقال الطيبى : خص الخطاب برسوله عليه الصلاة والسلام والمراد العموم، والاصل من ربكم وجىء بلفظ الرب ليؤذن بأن المربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين وليكون تمهيدا يبتنى عليه التعليل الآتى المتضمن للتعريض بواسطة الحصر بأن آلهتهم لاتسمع ولاتبصر ولاتغنى شيئا وتعقب بأنه لو أريد العموم لفاتت النكتة المذكورة ولزم أن يدخل المؤمنون فى قوله تعالى: (ان كنتم موقنين) ومابعده وليس المعنى عليه وفى القلب منه شىء وفسر بعضهم الرحمة المرسلة بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم ولايخفى أن صحة التعليل تأبى ذلك *

وجوز أن يكون قوله تعالى: (إنا كنا مرسلين) بدلا من قوله سبحانه: إنا كنا منذرين الواقع تعليلا لانزال الكتاب بدل كل أو اشتمال باعتبار الارسال والانذار ، ويكون (رحمة) حينئذ مفعولا له أى أنزلنا القرآن لأن عادتنا ارسال الرسل والكتب إلى العباد لأجل الرحمة عليهم واختيار كون الرحمة مفعولا له ليتطابق البدل والمبدل منه إذ معنى المبدل منه فاعلين الانذار ويطابقه فاعلين الارسال ولم يجوز كونها كذلك على وجه التعليل بل أوجب كونها مفعولا به ليصح إذ لو قيل • فيها تفصيل كل شأن حكيم لأنا فاعلون الارسال لأجل الرحمة لم يفد ان الفصل رحمة ولأنه سبحانه مرسل فلا يستقيم التعليل قيل وينصر نصب رحمة على المفعول قراءة الحسن وزيد بن على برفعها لأن الكلام عليه جملة مستأنفة أى هى (رحمة) تعليلا للارسال فيلائم القول بأنها فى قراءة النصب مفعول له وليطابق قراءتهما فى كون معنى (إنا كنا مرسلين) إنا كنا فاعلين الارسال ، وقال بعض أجلة المحققين: أن القول بأنه تعليل أظهر من القول بأنه بدل ليكون الكلام على نسق فى التعليل غب التعليل ، ولما ذكر فى الحالة المقتضية للابدال ولوقوع الفصل ، وأشار على ماقيل بما ذكر فى الحالة المقتضية للابدال بان المبدل منه غير مقصود وأنه فى حكم السقوط وههنا ليس كذلك ، وتعقب هذا بأنه اغلبى لامطرد ، وقوله: لوقوع الفصل أى بين البدل والمبدل

منه بأن الفاصل غير اجنبي فلا يضر الفصل به فتدبر، وجوز كون رحمة مصدراً لرحمنا مقدر وكونها حالا من ضمير (مرسلين) وكونها بدلا من (امرا) فلا تغفل ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع فيسمع اقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ ٦﴾ لكل معلوم فيعلم احوالهم، وتوسيط الضمير مع تعريف الطرفين لافادة الحصر، والجملة تحقيق لربوبيته عزوجل وانها لا تحق الا لمن هذه نعوته، وفى تخصيص (السميع العليم) على ماقال الطيبي ادماج لوعيد الكفار ووعد المؤمنين الذين تاقوا الرحمة بانواع الشكر ﴿رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من (ربك) أو بيان او نعت *

وقرأ غير واحد من السبعة والاعرج . وابن أبي اسحق . وأبو جعفر . وشيبة بالرفع على أنه خبر آخر لإن اوخبر مبتدا محذوف أى هو رب، والجملة مستانفة لإثبات ماقبلها وتعليله ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٧﴾ أى إن كنتم ممن عنده شيء من الايقان وطرف من العلوم اليقينية على أن الوصف المتعدى منزل منزلة اللازم لعدم القصد إلى مايتعلق به، وجواب الشرط محذوف اى إن كنتم من أهل الايقان علمتم كونه سبحانه رب السموات والارض لأنه من أظهر اليقينيات دليلا وحينئذ يلزمكم القول بما يقتضيه ماذكر أولا، ويجوز أن يكون مفعوله مقدرا أى إن كنتم موقنين فى اقراركم إذا سئلتم عمن خلق السموات والارض فقلتم الله تعالى خلقهن، والجواب أيضا محذوف أى إن كنتم موقنين فى اقراركم بذلك علمتم مايقتضيه مما تقدم لظهور اقتضائه إياه، وجعل غير واحد الجواب على الوجهين تحقق عندكم ماقلناه، ولم يجوزوا جعله مضمون (رب السموات) الخ لأنه سبحانه كذلك أيقنوا أم لم يوقنوا فلا معنى لجعله دالا عليه، وكذا جعله مضمون مابعد بل هذا مما لا يحسن باعتبار العلم أيضا *

وفى هذا الشرط تنزيل ايقانهم منزلة عدمه لظهور خلافه عليهم، وهو مراد من قال: إنه من باب تنزيل العالم منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم، قيل: ولا يصح أن يقال: إنهم نزلوا منزلة الشاكين لمكان قوله سبحانه بعد: (بل هم فى شك) ولا أرى باسا فى أن يقال: إنهم نزلوا أولا كذلك ثم سجل عليهم بالشك لأنهم وأن أقروا بانه عز وجل رب السموات والارض لم ينفكوا عن الشك لإلحادهم فى صفاته سبحانه واشراكهم به تعالى شانه *

وجوز أن يكون (موقنين) مجازا عن مريدين الايقان والجواب محذوف أيضا أى إن كنتم مريدين الايقان فاعلموا ذلك، وفيه بعد، وأما جعل (إن) نافية كما حكاه النيسابورى فليس بشيء كما لا يخفى ﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لما قبلها، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف أى هو سبحانه لا اله الا هو، وجملة المبتدا وخبره مستأنفة مقررة لذلك، وقيل: خبر آخر لإن على قراءة (رب السموات) بالرفع وجعله خبرا، وقيل: خبر له على تلك القراءة وما بينهما اعتراض ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ مستأنفة كما قبلها، وكذا قوله تعالى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾ باضمار مبتدا أو بدل من (رب السموات) على تلك القراءة أو بيان أو نعت له، وقيل: فاعل ليميت، وفى (يحيى) ضمير راجع اليه والكلام من باب التنازع أو إلى (رب السموات)، وقيل: (يحيى ويميت) خبرا آخر لرب السموات وكذا (ربكم) وقيل: هما خبران آخران لإن، وقرأ ابن أبي اسحق . وابن محيصن . وأبو حيوة . والزعفرانى وابن مقسم . والحسن . وأبو موسى . وعيسى بن سليمان . وصالح كلاهما عن الكسائى بالجر بدلا من (رب السموات) على قراءة الجر، وقرأ أحمد بن جبير الانطاكى بالنصب على المدح *

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ اضراب ابطالى أبطل به ايقانهم لعدم جريهم على موجبه، وتنوين (شك) للتعظيم أى

فى شك عظيم ﴿ يَلْعَبُونَ ٩ ﴾ لا يقولون ما يقولون مما هو مطابق لنفى الامر عن جد واذعان بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم ٭

وجوز أن تكون هى الخبر والظرف متعلق بالفعل قدم للفاصلة ، والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ لترتيب الارتقاب أو الامر به على ما قبلها فان كونهم فى شك يلعبون مما يوجب ذلك حتما أى فانتظر لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ١٠ ﴾ أى يوم تأتى بجدب ومجاعة فان الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان وهى ظلمة تعرض للبصر لضعفه فيتوهم ذلك فاطلاق الدخان على ذلك المرئى باعتبار أن الرائى يتوهمه دخانا، ولا يأباه وصفه بمبين وارادة الجدب والمجاعة منه مجاز من باب ذكر المسبب وارادة السبب أو لأن الهواء يتكدر سنة الجدب بكثرة الغبار لقلة الامطار المسكنة له فهو كناية عن الجدب وقد فسر ابو عبيدة الدخان به ، وقال القتبى: يسمى دخانا ليبس الارض حتى يرتفع منها ما هو كالدخان ، وقال بعض العرب: نسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك بان الدخان مما يتأذى به فاطلق على كل مؤذ يشبهه ، وأريد به هنا الجدب ومعناه الحقيقى معروف ، وقياس جمعه فى القلة أدخنة وفى الكثرة دخنان نحو غراب وأغربة وغربان ، وشذوا فى جمعه على فواعل فقالوا: دواخن كأنه جمع داخنة تقديرا، وقرينة التجوز فيه هنا حالية كما ستعلمه إن شاء الله تعالى من الخبر ، والمراد باليوم مطلق الزمان وهو مفعول به لارتقب أو ظرف له والمفعول محذوف أى ارتقب وعد الله تعالى فى ذلك اليوم وبالسماء جهة العلو ، وإسناد الاتيان بذلك اليهما من قبيل الاسناد إلى السبب لأنه يحصل بعدم إمطارها ولم يسند اليه عز وجل مع أنه سبحانه الفاعل حقيقة ليكون الكلام مع سابقه المتضمن إسناد ما هو رحمة اليه تعالى شأنه على وزان قوله تعالى (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) وتفسير الدخان بما فسرناه به مروى عن قتادة . وأبى العالية . والنخعى . والضحاك . ومجاهد . ومقاتل وهو اختيار الفراء . والزجاج ٭

وقد روى بطرق كثيرة عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه، أخرج أحمد . والبخارى . وجماعة عن مسروق قال: جاء رجل إلى عبدالله فقال: إنى تركت رجلا فى المسجد يقول فى هذه الآية (يوم تأتى السماء بدخان) الخ: يغشى الناس قبل يوم القيامة دخان ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام فغضب وكان متكئا فجلس ثم قال: من علم منكم علما فليقل به ، ومن لم يكن يعلم فليقل الله تعالى أعلم . فان من العلم أن يقول لما لا يعلم الله تعالى أعلم ، وسأحدثكم عن الدخان إن قريشا لما استصعبت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبطؤا عن الاسلام قال: اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فاصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينه كهيئة الدخان من الجوع ، فانزل الله تعالى (فارتقب إلى أليم) فاتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل: يارسول الله استسق الله تعالى لمضر فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام ، فسقوا فانزل الله تعالى (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) الخبر . وفى رواية أخرى صحيحة أنه قال: لما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الناس إدبارا قال: اللهم سبعا كسبع يوسف فاخذتهم سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام ، فجاءه أبو سفيان وناس من أهل مكة فقالوا: يامحمد إنك تزعم أنك قد بعثت رحمة وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله تعالى فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

فسقوا الغيث فاطبقت عليهم سبعا فشكا الناس كثرة المطر فقال : اللهم حوالينا ولا علينا فانحدرت السحابة عن رأسه فسقى الناس حولهم قال: فقد مضت آية الدخان وهو الجوع الذى أصابهم الحديث، وظاهره يدل كما فى تاريخ ابن كثير على أن القصة كانت بمكة فالآية مكية *

وفى بعض الروايات أن قصة أبى سفيان كانت بعد الهجرة فلعلها وقعت مرتين ، وقد تقدم ما يتعلق بذلك فى سورة المؤمنين *

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق أبى لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال فى هذا الدخان: كان فى يوم فتح مكة وفى البحر عنه أنه قال (يوم تأتى السماء وهو يوم فتح مكة لما حجبت السماء الغبرة، وفى رواية ابن سعيد أن الأعرج يروى عن أبى هريرة أنه قال: كان يوم فتح مكة دخان ، وهو قول الله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) ويحسن على هذا القول أن يكون كناية عما حل بأهل مكة فى ذلك اليوم من الخوف والذل ونحوهما، وقال على كرم الله تعالى وجهه. وابن عمر . وابن عباس . وأبو سعيد الخدرى . وزيد بن على . والحسن : انه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة يدخل فى أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعترى المؤمن كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص *

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعا أول الآيات الدجال ونزول عيسى ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تقيل معهم إذا قالوا والدخان، قال حذيفة: يارسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) وقال: يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره ، فالدخان على ظاهره والمعنى فارتقب يوم ظهور الدخان *

وحكى السفارينى فى البحور الزاخرة عن ابن مسعود أنه كان يقول: هما دخانان مضى واحد والذى بقى يملأ مابين السماء والأرض ولا يصيب المؤمن إلا بالزكمة وأما الكافر فيشق مسامعه فيبعث الله تعالى عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كل مؤمن ويبقى شرار الناس ، ولا أظن صحة هذه الرواية عنه*

وحمل مافى الآية على مايعم الدخانين لايخفى حاله ، وقيل: المراد بيوم تأتى السماء الخ يوم القيامة فالدخان يحتمل أن يراد به الشدة والشر مجازا وأن يراد به حقيقته *

وقال الخفاجى : الظاهر عليه أن يكون قوله تعالى: (تأتى السماء) إلى آخره استعارة تمثيلية إذ لا سماء لأنه يوم تشقق فيه السماء فمفرداته على حقيقتها ، وأنت تعلم أنه لامانع من القول بأن السماء كما سمعت أولا بمعنى جهة العلو سلمنا أنها بمعنى الجرم المعروف لكن لامانع من كون الدخان قبل تشققها بان يكون حين يخرج الناس من القبور مثلا بل لامانع من القول بأن المراد من اتيان السماء بدخان استحالتها اليه بعد تشققها وعودها إلى ماكانت عليه أولا كما قال سبحانه : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) ويكون فناؤها بعد صيرورتها دخانا *

هذا والأظهر حمل الدخان على ماروى عن ابن مسعود أولا لأنه أنسب بالسياق لما أنه فى كفار قريش وبيان سوء حالهم مع أن فى الآيات بعد ماهو أوفق به ، فوجه الربط أنه سبحانه لما ذكر من حالهم مقابلتهم الرحمة بالكفران وأنهم لم ينتفعوا بالمنزل والمنزل عليه عقب بقوله تعالى شأنه (فارتقب يوم) الخ، للدلالة على أنهم

أهل العذاب والخذلان لا أهل الاكرام والغفران ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي يحيط أنهم والمراد بهم كفار قريش ومن جعل الدخان ماهو من أشراط الساعة حمل الناس على من ادركه ذلك الوقت ، ومن جعل ذلك يوم القيامة حمل الناس على العموم ، والجملة صفة أخرى للدخان *

وقوله تعالى ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢﴾ في موضع نصب بقول مقدر وقع حالا أي قائلين أو يقولون هذا الخ . والاشارة للتفخيم ، وقيل : يجوز أن يكون هذا عذاب أليم إخبارا منه عز وجل تهويلا للامر كما قال سبحانه وتعالى في قصة الذبيح (إن هذا لهو البلاء المبين) فهو استئناف أو اعتراض والاشارة بهذا الدلالة على قرب وقوعه وتحققه ، وما تقدم أولى ، وقوله سبحانه : (ربنا) إلى آخره كما صرح به غير واحد من المفسرين وعد منهم بالايمان إن كشف جل وعلا عنهم العذاب ، فكأنهم قالوا : ربنا إن كشفت عنا العذاب آمنا لكن عدلوا عنه إلى ما في المنزل إظهارا لمزيد الرغبة وحملوه على ذلك لما في بعض الروايات أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وناشده الرحم وواعده أن دعا لهم وزال مابهم آمنوا والمراد بقوله سبحانه وتعالى *

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ نفي صدقهم في الوعد وأن غرضهم انما هو كشف العذاب والخلاص أي كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الايمان عند كشف العذاب عنهم *

﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ١٣﴾ أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ماهو أعظم من ذلك في ايجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ظاهر أمر رسالته بالآيات والمعجزات التي تخر لها صم الجبال أو مظهر لهم مناهج الحق بذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام وهو هو والجملة عطف على قوله تعالى . و(قد جاءهم) الى آخره ، وعطفها على قوله سبحانه . (ربنا) الخ لأنه على معنى قالوا . (ربنا) الخ ليس بذاك ، وثم للاستبعاد والتراخي الرتبي والافهم قد تولوا ريثما جاءهم وشاهدوا منه ماشاهدوا مما يوجب الاقبال اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك في حقه عليه الصلاة والسلام *

﴿مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ١٤﴾ أي قالوا تارة : يعلمه عداس غلام رومي لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا ولم يقل ومجنون بالعطف لأن المقصود تعديد قبائحهم وقرأ زر بن حبيش معلم بكسر اللام فمجنون صفة له وكأنهم أرادوا رسول مجنون وحاشاه ثم حاشاه صلى الله تعالى عليه وسلم *

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ١٥﴾ جواب من جهته تعالى عن قولهم وأخبار بالعود على تقدير الكشف أي ان كشفنا عنكم العذاب كشفا قليلا أو زمانا قليلا عدتم ، والمراد على ما قيل عائدون الى الكفر ، وأنت تعلم أن عودهم اليه يقتضي ايمانهم وقد مر أنهم لم يؤمنوا وانما وعدوا الايمان فاما أن يكون وعدهم منزلا منزلة ايمانهم أو المراد عائدون الى الثبات على الكفر أو على الاقرار والتصريح به وقال قتادة : هذا توعد بمعاد الآخرة وهو خلاف الظاهر جدا ومن قال : إن الدخان يوم القيامة قال إن قوله سبحانه : (انا كاشفوا) الى آخره وعد بالكشف على نحو قوله عز وجل : (ولوردوا) لعادوا لما نهوا عنه ومن قال المراد به ماهو من اشراط الساعة قال بامكان الكشف وعدم انقطاع التكليف عند ظهوره وان كان من الاشراط بل جاء في

بعض الآثار أنه يمكث أربعين يوما وليلة فيكشف عنهم فيعودون الى ما كانوا عليه من الضلال، وحمله على ما روى عن ابن مسعود ظاهر الاستقامة لاقيل فيه ولا قال، وقوله سبحانه: (وقد جاءهم) الخ قوى الملاءمة له وهو بعيد الملاءمة للقول المروى عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه فقد أحتيج فى تحصيلها الى جعل الاسناد من باب اسناد حال البعض الى الكل أو حمل الناس على الكفار الموجودين فى ذلك الوقت والامر على القول بأنه ما كان فى فتح مكة أهون الا أنه مع ذلك ليس كقول ابن مسعود فتأمل ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ هو يوم بدر عند ابن مسعود وأخرجه عبد بن حميد. وابن جرير عن ابى بن كعب. ومجاهد. والحسن. وأبى العالية. وسعيد بن جبير. ومحمد بن سيرين. وقتادة. وعطية، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس *

وأخرج ابن جرير. وعبد بن حميد بسند صحيح عن عكرمة. قال: قال ابن عباس قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة ونقل فى البحر حكاية أنه يوم القيامة عن الحسن. وقتادة أيضا *

والظرف معمول لما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦ ﴾ أى إنا ننتقم يوم اذ انا منتقمون، وقيل لمنتقمون ورده الزجاج وغيره بأن ما بعد ان لا يجوز أن يعمل فيما قبلها، وقيل لعائدون على معنى انكم لعائدون الى العذاب يوم نبطش *

وقيل بكاشفوا العذاب وليس بشىء وقيل لذكرهم أو اذكر مقدرا، وقيل هو بدل من (يوم تأتى) الخ *

وقرىء (نبطش) بضم الطاء وقرأ الحسن. وأبو رجاء. وطلحة بخلاف عنه (نبطش) بضم النون من باب الافعال على معنى نحمل الملائكة عليهم السلام على أن يبطشوا بهم أو نمكنهم من ذلك فالمفعول به محذوف للعلم وزيادة التهويل، وجعل البطشة على هذا مفعولا مطلقا على طريقة أنبتكم نباتا، وقال ابن جنى. وأبو حيان: هى منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الظاهر أى يوم نبطش من نبطشه فيبطش البطشة الكبرى، وقال ابن جنى: ولك أن تنصبها على أنها مفعول كأنه قيل: يوم نقوى البطشة الكبرى عليهم ونمكنها منهم كقولك: يوم نسلط القتل عليهم ونوسع الاخذ منهم، وفى القاموس بطش به يبطش ويبطش أخذه بالعنف والسطوة كابطشه والبطش الاخذ الشديد فى كل شىء والبأس اه فلا تغفل ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى امتحناهم بارسال موسى عليه السلام اليهم على أنه من فتن الفضة عرضها على النار فيكون بمعنى الامتحان وهو استعارة والمراد عاملناهم معاملة الممتحن ليظهر حالهم لغيرهم أو اوقعناهم فى الفتنة على أنه بمعناه المعروف والمراد بالفتنة حينئذ ما يفتتن به الشخص أى يغتر ويغفل عما فيه صلاحه كما فى قوله تعالى: (انما اموالكم وأولادكم فتنة) وفسرت هنا بالامهال وتوسيع الرزق *

وفسر بعضهم الفتنة بالعذاب ثم تجوز به عن المعاصى التى هى سبب وهو تكلف مالا داعى له *

وقرىء (فتنا) بتشديد التاء إما لتأكيد معناه المصدرى أو لتكثير المفعول أو الفعل *

﴿ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧ ﴾ أى مكرم معظم عند الله عز وجل أو عند المؤمنين أو عنده تعالى وعندهم أو كريم فى نفسه متصف بالخصال الحميدة والصفات الجليلة حسبا ونسبا، وقال الراغب: الكرم إذا وصف به الانسان فهو اسم للاخلاق والافعال المحمودة التى تظهر منه ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، ونقل عن بعض العلماء أن الكرم كالحرية إلا أن الحرية قد تقال فى المحاسن الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال إلا فى المحاسن الكبيرة * وقال الخفاجى أصل معنى الكريم جامع المحامد والمنافع، وادعى لذلك أن تفسيره به أحسن من تفسيره بالتفسيرين السابقين

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ اطاقوهم وسلموهم إلى ، والمراد بهم بنو اسرائيل الذين كان فرعون مستعبدهم ، والتعبير عنهم بعباد الله تعالى للاشارة إلى أن استعباده إياهم ظلم منه ، والاداء مجاز عما ذكر ، وهذا كقوله عليه السلام فأرسل معنى بنا اسرائيل ولا تعذبهم وروى ذلك عن ابن زيد ومجاهد . وقتادة او أدوا إلى حق الله تعالى من الايمان وقبول الدعوة ياعباد الله على أن مفعول (أدوا) محذوف وعباد منادى وهو عام لبنى اسرائيل والقبط ، والاداء بمعنى الفعل للطاعة وقبول الدعوة وروى هذا عن ابن عباس ، وأن عليهما قيل مصدرية قبلها حرف جر مقدر متعلق بجاءهم أى بأن أدوا ، وتعقب بأنه لامعنى لقولك: جاءهم بالتأدية إلى ، وحمله على طلب التادية إلى لايخلو عن تعسف ورد بأنه بتقدير القول وهو شائع مطرد فتقديره بأن قال ادوا إلى ولايخلو عن تكلف ما ومع هذا الامر مبنى على جواز وصل المصدرية بالامر والنهى وهو غير متفق عليه ، نعم الاصح الجواز *

وقيل: هى مخففة من الثقيلة ، وتعقب بأنها حينئذ يقدر معها ضمير الشأن ومفسره لايكون الا جملة خبرية وأيضا لابد أن يقع بعدها النفى أوقد أو السين أو سوف أو لو وأن يتقدمها فعل قلبي ونحوه ، وأجيب بان مجىء الرسول يتضمن معنى فعل التحقيق كالاعلام والفصل المذكور غير متفق عليه ، فقد ذهب المبرد تبعا للبغاددة إلى عدم اشتراطه ، والقول بانه شاذ يصان القرآن عن مثله غير مسلم واشتراط كون مفسر ضمير الشأن جملة خبرية فيه خلاف على ما يفهم من كلام بعضهم ، ولم يذكر فى المغنى فى الباب الرابع فى الكلام على ضمير الشأن الا اشتراط كون مفسره جملة ولم يشترط فيها الخبرية ولم يتعرض للخلاف ، نعم قال فى الباب الخامس : النوع الثامن اشتراطهم فى بعض الجملة الخبرية وفى بعضها الانشائية وعد من الأول خبران وضمير الشان لكنه قال بعد: وينبغى أن يستثنى من ذلك فى خبرى أن وضمير الشان خبر أن المفتوحة إذا خففت فانه يجوز أن يكون جملة دعائية كقوله تعالى والخامسة (أن غضب الله عليها) فى قراءة من قرأ أن وغضب بالفعل والاسم الجليل فاعل *

وحقق بعض الاجلة أن الاخبار عن ضمير الشان بجملة انشائية جائز عند الزمخشرى أوهى مفسرة وقد تقدم مايدل على القول دون حروفه لأن مجىء الرسول يكون برسالة ودعوة وكأن التفسير لمتعلقه المقدر أى جاءهم بالدعوة وهى أن ادوا إلى عباد الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولاتستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جل شأنه ورسوله عليه السلام (وأن) كالتى قبلها ، والمعنى على المصدرية بكفكم عن العلو على الله تعالى ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٩﴾ تعليل للنهى أى آتيكم بحجة واضحة لاسبيل الى انكارها أو موضحة صدق دعواى (وآتيكم) على صيغة الفاعل أو المضارع ، ولايخفى حسن ذكر الامين مع الاداء والسلطان مع العلاء ، وذكر أن فى الأول ترشيحا للاستعارة المصرحة أو المكنية بجعلهم كأنهم مال للغير فى يده أمره بدفعه لمن يؤتمن عليه وفى الثانى تورية عن معنى الملك مرشحة بقوله (لاتعلوا) وقرأت فرقة (أنى) بفتح الهمزة فقيل هو أيضا على تعليل النهى بتقدير اللام ، وقيل : هو متعلق بما دخله النهى نظير قولك لمن غضب من قول الحق له لاتغضب لأن قيل لك الحق ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أى التجأت اليه تعالى وتوكلت عليه جل شأنه ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ ٢٠﴾ من ان ترجمونى أى تؤذونى ضربا أوشتما أو أن تقتلونى ، وروى هذا عن قتادة وجماعة قيل لما قال: أن لاتعلوا على الله توعدوه بالقتل فقال ذلك ، وفى البحر ان هذا كان قبل أن يخبره عز وجل بعجزهم عن رجمه بقوله

سبحانه: فلا يصلون اليكما والجملة عطف على الجملة المستأنفة ، وقرأ أبو عمرو. والاخوان عت بادغام الذال فى التاء
﴿ وَانْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ (٢١) ﴾ فكونوا بمعزل منى لا على ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء فليس ذلك جزاء
من يدعو كم الى مافيه فلاحكم ، وقيل : المعنى وإن لم تؤمنوا لى فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن فتنحوا واقطعوا
أسباب الوصلة عنى ، فنى الكلام حذف الجواب واقامة المسبب عنه مقامه والأول أوفق بالمقام، والاعتزال عليه
عبارة عن الترك وان لم تكن مفارقة بالابدان ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ بعد أن اصروا على تكذيبه عليه السلام
﴿ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ٢٢ ﴾ أى بان هؤلاء الخ فهو بتقدير الباء صلة الدعاء كما يقال دعا بهذا الدعاء، وفيه
اختصار كأنه قيل. أن هؤلاء قوم مجرمون تناهى أمرهم فى الكفر وأنت اعلم بهم فافعل بهم ما يستحقونه قيل
كان دعاؤه عليه السلام اللهم عجل لهم ما يستحقون باجرامهم ، وقيل : قوله (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين)
الى قوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم) وانما ذكر الله سبحانه السبب الذى استوجبوا به الهلاك ليعلم منه
دعاؤه والاجابة معا وان دعاءه كان على يأس من ايمانهم وهذا من بليغ اختصارات الكتاب المعجز *

وقرأ ابن أبى اسحق . وعيسى . والحسن فى رواية . وزيد بن على بكسر همزة أن وخرج على اضمار القول أى
قائلا أن هؤلاء الخ ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ وهم بنو اسرائيل ومن آمن به من القبط ﴿ لَيْلًا ﴾ بقطع من الليل، والكلام
باضمار القول أما بعد الفاء أى فقال اسر الخ فالفاء للتعقيب والترتيب والقول معطوف على ماقبله أو قبلها كأنه
قيل قال. أو فقال أن كان الامر كما تقول: فاسر الخ، فالفاء واقعة فى جواب شرط مقدر وهو وجوابه مقول القول
المقدر مع الفاء أو بدونها على أنه استئناف والاضمار الأول أولى لقلة التقدير مع أن تقدير ان لا يناسب إذ
لا شك فيه تحقيقا ولا تنزيلا وجعلها بمعنى إذا تكلف على تكلف وأبو حيان لا يجيز حذف الشرط وإبقاء جوابه
فى مثل هذا الموضع وقد شنع على الزمخشرى فى تجويزه ، وقرأ نافع . وابن كثير (فاسر) بوصل الهمزة من سرى *
﴿ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ٢٣ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم فالجملة مستأنفة لتعليل الامر بالسرى ليلا لئلا يتأخر
العلم به فلا يدركون والتأكيد لتقدم ما يلوح بالخبر ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أى ساكنا كما قال ابن عباس يقال
رها البحر يرهو رهوا سكن ويقال: جاءت الخيل رهوا أى ساكنة ، قال الشاعر :

والخيل تمزع رهوا فى أعنتها كالطير ينجو من الشؤبوب ذى البرد

ويقال افعل ذلك رهوا أى ساكنا على هينة وأنشد غير واحد للقطامى فى نعت الركاب :

يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل

والظاهر أنه مصدر فى الأصل يؤول باسم الفاعل ، وجوز أن يكون بمعنى الساكن حقيقة وعن مجاهد
رهوا أى منفرجا مفتوحا قال أبو عبيدة رها الرجل يرهو رهوا فتح بين رجليه ، وعن بعض العرب أنه رأى
جملا فالجا أى ذا سنامين فقال : سبحان الله تعالى رهو بين سنامين قالوا : أراد فرجة واسعة ، والظاهر
أيضا أنه مصدر مؤول أو فيه مضاف مقدر أى ذا فرجة قال قتادة : أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز
البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يلتئم كما ضربه أولا فانفلق لئلا يتبعه فرعون وجنوده فأمر بأن
يتركه رهوا أى مفتوحا منفرجا أو ساكنا على هيئته قارا على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يبسا ولا

يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله تعالى عليهم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤ ﴾ فهو تعليل للأمر بتركه رهوا ، وقيل : رهوا سهلا ، وقيل : يابسا ، وقيل : جددا ، وقيل : غير ذلك والكل بيان لحاصل المعنى ، وزعم الراغب أن الصحيح أن الرهو السعة من الطريق ثم قال : ومنه الرهاء المفازة المستوية ويقال لكل جوبة مستوية يجتمع فيها الماء رهو ومنه قيل : لاشفعة فى رهو. والحق أن ماذكره من جملة إطلاقاته وأما انه الصحيح فلا وقرىء (أنهم) بالفتح أى لأنهم ﴿ كَمْ تَرَكُوا ﴾ أى كثيرا تركوا بمصر ﴿ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٢٦ ﴾ حسن شريف فى بابه، وأريد بذلك كما روى عن قتادة المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها *

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس . وابن مردويه عن جابر أنه أريد به المنابر ، وروى ذلك عن مجاهد وابن جبير أيضا ، وقيل : السرر فى الحجال والأول أولى ، وقرأ ابن هرمز . وقتادة . وابن السميقع . ونافع فى رواية خارجة (مقام) بضم الميم ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ أى تنعم ، قال الراغب : النعمة بالفتح التنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة والنعمة بالكسر الحالة الحسنة وبناؤها بناء التى يكون عليها الانسان كالجلسة والركبة وتقال للجنس الصادق بالقليل والكثير واختير ههنا تفسير النعمة بالشىء المنعم به لأنه أنسب للترك وهى كثيرا ماتكون بهذا المعنى *

وقرأ أبو رجاء (ونعمة) بالنصب وخرج بالعطف على (كم)، وقيل : هى معطوفة على محل ما قبلها كأنه قيل : كم تركوا جنات وعيونا وزروعا ومقاما كريما ونعمة ﴿ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ٢٧ ﴾ طيبى الأنفس وأصحاب فاكهة ففاكه كلابن وتامر، وقال القشيرى: لاهين ، وقرأ الحسن . وأبو رجاء (فكهين) بغير ألف والفكه يستعمل كثيرا فى المستخف المستهزىء فالمعنى مستخفين بشكر النعمة التى كانوا فيها *

وقال الجوهرى : فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان مزاحا والفكه أيضا الأشر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ قال الزجاج : المعنى الأمر كذلك ، والمراد التأكيد والتقرير فيوقف على ذلك فالكاف فى موضع رفع خبر مبتدا محذوف أو الجار والمجرور كذلك ، وقيل : الكاف فى موضع نصب أى نفعل فعلا كذلك لمن نريد إهلاكه ، وقول الكلبى : أى كذلك أفعل بمن عصانى ظاهر فيما ذكر ، وقال الزمخشرى : الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الاخراج أى المفهوم مما تقدم أخرجناهم منها ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ٢٨ ﴾ عطف على تركوا والجمله معترضة فيما عدا القول الأخير وعلى أخرجناهم فيه ، وقيل : الكاف منصوبة على معنى تركوا تركا مثل ذلك فالعطف على (تركوا) بدون اعتراض وهو كما ترى ، والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل وهم مغايرون للقبط جنسا ودينا. ويفسر ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء : (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وهو ظاهر فى أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها وبه قال الحسن :

وقيل : المراد بهم غير بنى إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط واليه ذهب قتادة قال : لم يرد فى مشهور التواريخ أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ولا أنهم ملكوها قط وأول مافى سورة الشعراء بانه من باب (ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره) وقولك: عندى درهم ونصفه فليس المراد خصوص ما تركوه

بل نزعه ومايشبهه ، والايراث الاعطاء . وقيل : المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرف فيها ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أولا ، وأخذ جمع بقول الحسن وقالوا لا اعتبار بالتواريخ وكذا الكتب التى بيد اليهود اليوم لما أن الكذب فيها كثير وحسبنا كتاب الله تعالى وهو سبحانه أصدق القائلين وكتابه جل وعلا مأمون من تحريف المحرفين ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ مجاز عن عدم الا كتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم، وهو استعارة تمثيلية تخييلية شبه حال موتهم لشدته وعظمته بحال من تبكى عليه السماء والاجرام العظام واثبت له ذلك والنفى تابع للاثبات فى التجوز كما حقق فى موضعه ، وقيل : هى استعارة مكنية تخييلية بان شبه السماء والأرض بالانسان واسند اليهما البكاء أو تمثيلية بان شبه حالهما فى عدم تغير حالهما وبقائهما على ما كانا عليه بحال من لم يبك، وليس بشىء كما لا يخفى على من راجع كلامهم، وقد كثر فى التعظيم لمهلك الشخص بكت عليه السماء والارض وبكته الريح ونحو ذلك، قال يزيد بن مفرغ :

الريح يبكى شجوه   والبرق يلمع فى غمامه

وقال النابغة :

بكى حارث الجولان من فقد ربه   وحوران منه خاشع متضائل

أراد بهما مكانين معروفين، وقال جرير :

لما أتى خبر الزبير تواضعت   سور المدينة والجبال الخشع

وقال الفرزدق يرثى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

الشمس طالعة ليست بكاسفة   تبكى عليك نجوم الليل والقمرا

يتعجب من طلوع الشمس وكان من حقها أن لا تطلع أو تطلع كاسفة، والنجوم تروى منصوبة ومرفوعة فالنصب على المغالبة أى تغلب الشمس النجوم فى البكاء نحو با كيته فبكيته ،قال جار الله: كان رضى الله تعالى عنه يتهجد بالليل فتبكيه النجوم ويعدل بالنهار فتبكيه الشمس والشمس غالبة فى البكاء لأن العدل أفضل من صلاة الليل ، والجوهرى جعلها منصوبة بكاسفة أى لا تكسف ضوء النجوم لكثرة بكائها وكأنه جعل خفاء النجوم تحت ضوء الشمس كسفا لها مجازا، وفيه أن الكسف بالمعنى المذكور غير واضح وتخلل تبكى غير مستفصح وفى حواشى الصحاح الشمس كاسفة ليست بطالعة ، وفيها أن نجوم الليل ظرف أى طول الدهر كأنه من باب آتيك الشمس والقمر أى وقتهما كأنه قيل: تبكى ما يطلع النجوم والقمر، وفيه أن مثل هذا الظرف مسموع لا يثبت الا بثبت فكيف يعدل اليه مع المعنى الواضح، وقيل: التقدير تبكى بكاء النجوم لحذف المضاف، وفيه أنه مما لا يكاد يفهم، والرفع واضح والقمر منصوب على أنه مفعول معه وهذا استطراد دعانا اليه شهرة البيت مع كثرة الخبط فيه ٭

وأخرج الترمذى وجماعة عن أنس قال قال :«رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مامن عبد الا وله فى السماء بابان باب يصعد منه عمله وباب ينزل منه رزقه فالمؤمن اذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية (فما بكت عليهم السماء والأرض)» وذكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملا صالحا فتفقدهم فتبكى عليهم، ولم يصعد لهم الى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم ٭

وأخرج البيهقي في شعب الايمان والحاكم وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: «إن الأرض لتبكي على المؤمن أربعين صباحا ثم قرأ الآية» وأخرج ابن المنذر . وغيره عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا (فما بكت) الخ وجعلوا كل ذلك من باب التمثيل ٭

ومن أثبت كالصوفية للاجرام السماوية والارضية وسائر الجمادات شعورا لائقا بحالها لم يحتج الى اعتبار التمثيل وأثبت بكاء حقيقيا لها حسبما تقتضيه ذاتها ويليق بها أو أوله بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضا ٭

وأخرج ابن جرير . وابن المنذر عن عطاء بكاء السماء حمرة أطرافها. وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه ، وأخرج عن سفيان الثوري قال: كان يقال هذه الحمرة التي تكون في السماء بكاء السماء على المؤمن، ولعمري ينبغي لمن لم يضحك من ذلك أن يبكي على عقله. وأنا لا أعتقد أن من ذكر من الاجلة كانوا يعتقدونه، وقيل: إن الآية على تقدير مضاف أي فما بكت عليهم سكان السماء وهم الملائكة وسكان الارض وهم المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين ٭

وروى هذا عن الحسن والاحسن ما تقدم ﴿ وَمَا كَانُوا ﴾ لما جاء وقت هلاكهم ﴿ مُنْظَرِينَ ٢٩ ﴾ ممهلين الى وقت آخر أو الى يوم القيامة بل عجل لهم في الدنيا ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ٣٠ ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستحيائه نساءهم على الخسف والضيم ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴾ بدل من العذاب على حذف المضاف والتقدير من عذاب فرعون أوجعله عليه اللعنة عين العذاب مبالغة ، وجوز أن يتعلق بمحذوف يقع حالا أي كائنا من جهة فرعون، وقيل: متعلق بمحذوف واقع صفة أي كائنا أو الكائن من فرعون ولا بأس بهذا اذا لم يعد ذلك من حذف الموصول مع بعض صلته ٭

وقرأ عبد الله (من عذاب المهين) على اضافة الموصوف إلى صفته، كبقلة الحمقاء. وقرأ ابن عباس من (فرعون) على الاستفهام لتهويل العذاب أي هل تعرفون من فرعون في عتوه وشيطنته فما ظنكم بعذابه ، وقيل: لتحقير فرعون بجعله غير معلوم يستفهم عنه كالنكرة لما فيه في القبائح التي لم يعهد مثلها وما بعد يناسب ما قبل كما لا يخفى ٭

وأياما كان فالظاهر أن الجملة استئناف، وقيل: إنها مقول قول مقدر هو صفة للعذاب، وقدر المقول عنده إن كان تعريف العذاب للعهد ومقول إن كان للجنس فلا تغفل ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا ﴾ متكبرا ﴿ مِنَ الْمُسْرِفِينَ ٣١ ﴾ في الشر والفساد، والجار والمجرور إما خبر ثان لكان أي كان متكبرا مغرقا في الاسراف، وإما حال من الضمير المستتر في عاليا أي كان متكبرا في حال اغراقه في الاسراف ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ ﴾ أي اصطفينا بني اسرائيل وشرفناهم ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أي عالمين باستحقاقهم ذلك أو مع علم منا بما يفرط منهم في بعض الاحوال ، وقيل : عالمين بما يصدر منهم من العدل والاحسان والعلم والايمان، ويرجع هذا إلى ما قيل أولا فان العدل وما معه من أسباب الاستحقاق ، وقيل : لأجل علم فيهم ، وتعقب بأنه ركيك لأن تنكير العلم لا يصادف محزه ٭

وأجيب بأنه للتعظيم ويحسن اعتباره علة للاختيار ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٢ ﴾ أي عالمي زمانهم كما قال مجاهد . وقتادة فالتعريف للعهد أو الاستغراق العرفي فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ﷺ الذين هم خير أمة أخرجت للناس

على الاطلاق ، وجوز أن يكون للاستغراق الحقيقى والتفضيل باعتبار كثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم لامن كل الوجوه حتى يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية ، وقيل : المراد اخترناهم للايحاء على الوجه الذى وقع وخصصناهم به دون العالمين ، وليس بشىء ، ومما ذكرنا يعلم أنه ليس فى الآية تعلق حرفى جر بمعنى بمتعلق واحد لأن الأول متعلق بمحذوف وقع حالا والثانى متعلق بالفعل كقوله :

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت على وآلت حلفة لم تحلل

وقيل : لأن كل حرف بمعنى ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها فى غيرهم ، وبعضها وأن أوتيها موسى عليه السلام يصدق عليه أنهم أوتوه لأن ما للنبى لأمته ﴿ مَافِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ٣٣ ﴾ أى نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون ، وفى (فيه) إشارة إلى أن هناك أمورا أخرى ككونه معجزة ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ كفار قريش لأن الكلام فيهم ، وذكر قصة فرعون وقومه استطرادى للدلالة على أنهم مثلهم فى الاصرار على الضلالة والانذار عن مثل ما حل بهم ، وفى اسم الاشارة تحقير لهم ﴿ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى ﴾ أى ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ٣٥ ﴾ أى بمبعوثين بعدها ، وتوصيفها بالأولى ليس لقصد مقابلة الثانية كما فى قولك : حج زيد الحجة الأولى ، ومات •

قال الاسنوى فى التمهيد : الأول فى اللغة ابتداء الشىء ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون ، كما تقول : هذا أول ما أكتسبته فقد تكتسب بعده شيئا وقد لا تكتسب كذا ذكره جماعة منهم الواحدى فى تفسيره والزجاج •

ومن فروع المسئلة ما لو قال : إن كان أول ولد تلدينه ذكرا فأنت طالق تطلق إذا ولدته ، وإن لم تلد غيره بالاتفاق ، قال أبو على : اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولا أن يكون بعده آخر ، وإنما الشرط أن لا يتقدم عليه غيره اه ، ومنه يعلم ما فى قول بعضهم : إن الأول يضايف الآخر والثانى ويقتضى وجوده بلا شبهة ، والمثال إن صح فانما هو فيمن نوى تعدد الحج فاخترمته المنية فلحجه ثان باعتبار العزم من قصور الاطلاع وأنه لا حاجة إلى أن يقال : أنها أولى بالنسبة إلى ما بعدها من حياة الآخرة بل هو فى حد ذاته غير مقبول لما قال ابن المنير من أن الأولى إنما يقابلها أخرى تشاركها فى أخص معانيها ، فكما لا يصح أو لا يحسن أن يقال : جاءنى رجل وامرأة أخرى لا يقال الموتة الأولى بالنسبة لحياة الآخرة ، وقيل : انه قيل لهم أنكم تموتون موتة تتعقبها حياة كما تقدمتكم موتة قد تعقبتها حياة ، وذلك قوله عز وجل (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فقالوا (إن هى إلا موتتنا الأولى) يريدون ما الموتة التى من شأنها أن تتعقبها حياة ، إلا الموتة الأولى دون الثانية وما هذه الصفة التى تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، وهذا ما ارتضاه جار الله وأراد أن النفى والاثبات لما كان لرد المنكر المصر إلى الصواب كان منزلا على إنكارهم ، لا سيما والتعريف فى الأولى تعريف عهد ، وقوله تعالى : (الموتة الأولى) تفسير للمبهم وهى على نحو هى العرب تقول كذا فيتطابقان والمعهود الموتة التى تعقبتها الحياة الدنيوية ، ولذلك استشهد بقوله تعالى : (وكنتم أمواتا) الخ فليس اعتبار الوصف عدولا عن الظاهر من غير حاجة كما قال ابن المنير . وقوله فى الاعتراض أيضا : إن الموت السابق على الحياة

الدنيوية لا يعبر عنه بالموتة لأن (فيها) لمكان بناء المرة إشعارا بالتجدد والموت السابق مستصحب لم تتقدمه حياة مدفوع كما قال صاحب الكشف ، ثم أنه لايلزم من تفسير الموتة الأولى بما بعد الحياة فى قوله تعالى : (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) تفسيرها بذلك هنا لأن ايقاع الذوق عليها هناك قرينة أنها التى بعد الحياة الدنيا لأن ماقبل الحياة غير مذوق ، ومع هذا كله الانصاف ان حمل الموتة الاولى هنا أيضا على التى بعد الحياة الدنيا أظهر من حملها على ماقبل الحياة من العدم بل هى المتبادرة إلى الفهم عند الاطلاق المعروفة بينهم ، وأمر الوصف بالاولى على ماسمعت أولا ٭

وقيل : إنهم وعدوا بعد هذه الموتة موتة القبر وحياة البعث فقوله تعالى عنهم (إن هى الا موتتنا الأولى) رد للموتة الثانية وفى قوله سبحانه (ومانحن بمنشرين) نفى لحياة القبر ضمنا إذ لو كانت بدون الموتة الثانية لثبت النشر ضرورة ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا ﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول ﷺ والمؤمنين أى فأتوا لنا بمن مات من آبائنا ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٣٦ ﴾ فى وعدكم ليدل ذلك على صدقكم ودلالة الايقان اما لمجرد الاحياء بعد الموت وإما بأن يسألوا عنه ، قيل : طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله تعالى فيحيي لهم قصى بن كلاب ليشاوروه فى صحة النبوة والبعث إذ كان كبيرهم ومستشارهم فى النوازل ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ ﴾ فى القوة والمنعة ﴿ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو تبع الاكبر الحميرى واسمه أسعد بهمزة ، وفى بعض الكتب سعد بدونها وكنيته أبو كرب وكان رجلا صالحا . أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت : كان تبع رجلا صالحا الاترى أن الله تعالى ذم قومه ولم يذمه ، وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس لايشتبهن عليكم أمر تبع فانه كان مسلما . وأخرج أحمد . والطبرانى . وابن أبى حاتم . وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال : «قال رسول الله ﷺ لاتسبوا تبعا فانه كان قد أسلم» وأخرج ابن عساكر . وابن المنذر . عن ابن عباس قال : سألت كعبا عن تبع فانى أسمع الله تعالى يذكر فى القرآن قوم تبع ولايذكر تبعا فقال : إن تبعا كان رجلا من أهل اليمن ملكا منصورا فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند فرجع فأخذ طريق الشام فأسر بها أحبارا فانطلق بهم نحو اليمن حتى إذا دنا من ملكه طار فى الناس أنه هادم الكعبة فقال له الاحبار : ماهذا الذى تحدث به نفسك فان هذا البيت لله تعالى وإنك لن تسلط عليه فقال : إن هذا لله تعالى وأنا أحق من حرمه فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرما فقضى نسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعا حتى قدم على قومه فدخل عليه أشرافهم فقالوا : ياتبع أنت سيدنا وابن سيدنا خرجت من عندنا على دين وجئت على غيره فاختر منا أحد أمرين اما أن تخلينا وملكنا وتعبد ماشئت وإما أن تذر دينك الذى أحدثت وبينهم يومئذ نار تنزل من السماء فقال الاحبار عند ذلك : اجعل بينك وبينهم النار فتواعد القوم جميعا على أن يجعلوها بينهم فجىء بالاحبار وكتبهم وجىء بالاصنام وعمارها وقدموا جميعا إلى النار وقامت الرجال خلفهم بالسيوف فهدرت النار هدير الرعد ورمت شعاعا لها فنكص أصحاب الاصنام وأقبلت النار وأحرقت الاصنام وعمارها وسلم الآخرون فأسلم قوم واستسلم قوم فلبثوا بعد ذلك عمر تبع حتى إذا نزل بتبع الموت استخلف أخاه وهلك فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة ، وفى رواية عن ابن عباس أن تبعا لما أقبل من الشرق بعد أن حير الحيرة أى بناها ونظم أمرها ـ وهى بكسر الحاء المهملة وياء ساكنة مدينة بقرب الكوفة ـ

وبنى سمرقند وهى مدينة بالعجم معروفة ، وقيل : إنه هدمها وقصد المدينة وكان قد خلف بها حين سافر ابناله فقتل غيلة فأجمع على خرابها واستئصال أهلها فجمع له الانصار وخرجوا لقتاله وكانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك وقال : إن هؤلاء لكرام فبينما هو على ذلك اذ جاءه كعب . وأسد ابناعم من قريظة حبران وأخبراه أنه يحال بينك وبين ماتريد فانها مهاجر نبي من قريش اسمه محمد ﷺ ومولده بمكة فثناه قولهما عما يريد ثم دعواه إلى دينهما فاتبعهما وأكرمهما فانصرفوا عن المدينة ومعهم نفر من اليهود فقال له فى الطريق نفر من هذيل : ندلك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضة بمكة وأرادت هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحد بسوء الاهلك فذكر ذلك للحبرين فقالا : مانعلم لله عز وجل بيتا فى الارض اتخذه لنفسه غير هذا فاتخذه مسجدا وانسك عنده واحلق رأسك وما أراد القوم الاهلاكك فاكرمه وكساه وهو أول من كسى البيت وقطع أيدى أولئك النفر من هذيل وأرجلهم وسمل أعينهم وصلبهم . وفى رواية أنه قال للحبرين حين قالا له ما قالا : واتنما مايمنعكما من ذلك ؟ فقالا : أما والله إنه لبيت أبينا ابراهيم عليه السلام وإنه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالاوثان التى نصبوها حوله وبالدماء التى يريقونها عنده وهم نجس أهل شرك فعرف صدقهما ونصحهما فطاف بالبيت ونحر وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل ، وقيل : إنه أراد تخريب البيت فرمى بداء عظيم فكف عنه وكساه *

وأخرج ابن عساكر عن ابن اسحق أن تبعا أرى فى منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف ثم أرى أن يكسوه احسن من ذلك فكساه المعافر ثم ارى ان يكسوه احسن من ذلك فكساه الوصائل وصائل اليمن فكان فيما ذكر لى اول من كساه واوصى بها ولاته من جرهم وامر بتطهيره وجعل له بابا ومفتاحا . وفى رواية أنه قال أيضا : ولا تقربوه دما ولا ميتا ولا تقربه حائض ، وفى نهاية ابن الاثير فى الحديث أن تبعا كسى البيت المسوح فانتفض البيت منه ومزقه عن نفسه ثم كساه الخصف فلم يقبله ثم كساه الانطاع ، وفى موضع آخر منها إن أول من كسى الكعبة كسوة كاملة تبع كساها الانطاع ثم كساها الوصائل والخصف فعل بمعنى مفعول من الخصف وهو ضم الشئ إلى الشيء والمراد شىء منسوج من الخوص على ماهو الظاهر ، وقيل : أريد به ههنا الثياب الغلاظ جدا تشبيها بالخصف المذكور ، والمعافر برود من اليمن منسوبة إلى معافر قبيلة بها ، والميم زائدة ، والوصائل ثياب حمر مخططة يمانية ، والمسوح جمع مسح بكسر الميم وسكون المهملة أثواب من شعر غليظة ، والانطاع جمع نطع بالكسر وبالفتح وبالتحريك بسط من أديم . وأخرج ابن سعد . وابن عساكر عن ابى بن كعب قال : لما قدم تبع المدينة ونزل بفنائها بعث إلى احبار يهود فقال : إنى مخرب هذا البلد حتى لاتقوم به يهودية ويرجع الامر إلى دين العرب فقال له : شامول اليهودى وهو يومئذ اعلمهم : ايها الملك إن هذا بلد يكون اليه مهاجر نبى من بنى اسمعيل مولده بمكة اسمه احمد وهذه دار هجرته إلى أن قال : قال وماصفته ؟ قال : رجل ليس بالقصير ولا بالطويل فى عينيه حمرة يركب البعير ويلبس الشملة سيفه على عاتقه لايبالى من لاقى حتى يظهر أمره فقال تبع : ما إلى هذا البلد من سبيل وما كان ليكون خرابها على يدى . وذكر أبو حاتم الرياشى أنه آمن بالنبى ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقيل : بينه وبين مولده عليه الصلاة والسلام ألف سنة ، والقولان يدلان على أنه قبل مبعث عيسى عليه السلام . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لاتقولوا فى تبع الاخيرا فانه قد حج البيت وآمن بما جاء به عيسى بن مريم ، وهو يدل على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام ، والاول أشهر *

ومن حديث عباد بن زياد المرى أنه لما أخبره اليهود أنه سيخرج نبي بمكة يكون قراره بهذا البلد - يعنى المدينة - اسمه أحمد وأخبروه أنه لا يدركه قال الاوس والخزرج : أقيموا بهذا البلد فان خرج فيكم فوازروه وإن لم يخرج فأوصوا بذلك أولادكم ، وقال فى شعره :

حدثت أن رسول المليـــك يخرج حقا بأرض الحرم
ولو مد دهرى إلى دهره لكنت وزيرا له وابن عم

وفى البحر بدل البيت الأول :

شهدت على احمد أنه رسول من الله بارى النسم

وفيه أيضا رواية عن ابن اسحق . وغيره أنه كتب أيضا كتابا وكان فيه أما بعد فانى آمنت بك وبكتابك الذى أنزل عليك وأنا على دينك وسنتك وآمنت بربك ورب كل شيء وآمنت بكل ما جاء من ربك من شرائع الاسلام فان ادركتك فبها ونعمت وإن لم أدركك فاشفع لى ولا تنسنى يوم القيامة فانى من أمتك الأولين وتابعيك قبل مجيئك وأنا على ملتك وملة أبيك ابراهيم عليه السلام ، ثم ختم الكتاب ونقش عليه لله الأمر من قبل ومن بعد ، وكتب عنوانه إلى محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله خاتم النبيين ورسول رب العالمين ﷺ من تبع الأول ودفعه إلى عظيم من الأوس والخزرج وأمره أن يدفعه للنبي عليه الصلاة والسلام إن ادركه *

ويقال : إنه بنى له دارا فى المدينة يسكنها إذا أدركه صلى الله تعالى عليه وسلم وقدم اليها وأن تلك الدار دار أبى أيوب خالد بن زيد وأن الشعر والكتاب وصلا اليه وأنه من ولد ذلك الرجل الذى دفعا اليه أولا ، ولما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام دفعوا الكتاب اليه فلما قرئ عليه قال : مرحبا بتبع الاخ الصالح ثلاث مرات *

وجاء أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلى عليه صلاة الجنازة وكذا على البراء بن معرور بعد وفاته بشهر يوم قدومه عليه الصلاة والسلام المدينة كما قال النجم الغيطى وكانت صلاة الجنازة قد فرضت تلك السنة ، وكون هذا هو تبع الأول ويقال له الاكبر هو المذكور فى غير ما كتاب ، وذكر عبد الملك بن عبد الله بن بدرون فى شرحه لقصيدة ابن عبدون أن أسعد هذا هو تبع الاوسط وذكر أيضا أن ملكه ثلثمائة وعشرين سنة وملك بعده عمرو أربعا وستين سنة ، وقال ابن قتيبة : حسان وهو الذى قتل زرقاء اليمامة وأباد جديسا وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ، والتواريخ ناطقة بتقدم تبابعة عليه فان تبعا يقال لمن ملك اليمن مطلقا كما يقال لملك الترك خاقان ، والروم قيصر ، والفرس كسرى أولا يسمى به الا اذا كانت له حمير وحضرموت كما فى القاموس أوالا اذا كانت له حمير وسبأ وحضرموت كما ذكره الطيبي ، والمتصف بذلك غير واحد كما لا يخفى على من أحاط خبرا بالتواريخ . وما تقدم من حكاية أنه هدم سمرقند ذكر عبد الملك خلافه ونسب هدمها الى شمر بن افريقيس ابن ابرهة أحد التبابعة أيضا كان قبل تبع المذكور بكثير قال : إن شمر خرج نحو العراق ثم توجه يريد الصين ودخل مدينة الصغد فهدمها وسميت شمر كند أى شمر خربها وعربت بعد فقيل سمرقند اه *

وحكاية البناء يمكن نسبتها الى شمر هذا فان كند فى لغة أهل أذربيجان ونواحيها على ما قيل بمعنى القرية فسمرقند بمعنى قرية شمر وهو أوفق بالبناء ، وذكر علامة عصره الملا أمين افندى العمرى الموصلي تغمده الله تعالى برحمته فى كتابه شرح ذات الشفاء أن تبعا الذى ذكر سابقا هو ابن حسان وأنه ملك الدنيا كلها وأنه يقال له الرائش لأنه راش الناس بالعطاء ، ولعل ما قاله قول لبعضهم والا فقد قال ابن قتيبة : إنه ابن كليكرب *

وفى شرح قصيدة ابن عبدون أن الرائش لقب الحرث بن بدر أحد التبابعة ، وهو قبل أسعد المتقدم ذكره بزمان طويل جدا ، وهو أيضا ممن ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم فى شعره فقال :

ويملك بعدهم رجل عظيم نبى لايرخص فى الحرام
يسمى أحمدا ياليت أنى أعمر بعد مخرجه بعام

ثم ان ملكه الدنيا كلها غير مسلم ، وبالجملة الاخبار مضطربة فى أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم بل قال صاحب تواريخ الامم : ليس فى التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير لمايذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلة عدد ملوكهم فان ملوكهم ستة وعشرون ومدتهم ألفان وعشرون سنة *

وقال بعض : إن مدتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة ثم ملك من بعدهم اليمن الحبشة والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، والقدر المعول عليه ههنا أن تبعا المذكور هو أسعد أبو كرب وأنه كان مؤمنا بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم وكان على دين ابراهيم عليه السلام ولم يكن نبيا ، وحكاية نبوته عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا تصح ، واخباره ببعثه صلى الله تعالى عليه وسلم لا يقتضيها لأنه علم ذلك من أحبار اليهود وهم عرفوه من الكتب السماوية *

وما روى من أنه عليه الصلاة والسلام قال : ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى لم يثبت ، نعم روى أبو داود . والحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال : «ما أدرى أذو القرنين هو أم لا » وليس فيه مايدل على التردد فى نبوته وعدمها فان ذا القرنين ليس بنبى على الصحيح ، ثم ان الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام درى بعد أنه ليس ذا القرنين *

وقال قوم : ليس المراد بتبع ههنا رجلا واحدا آنما المراد ملوك اليمن ، وهو خلاف الظاهر والاخبار تكذبه ، ومعنى تبع متبوع فهو فعل بمعنى مفعول وقد يجئ هذا اللفظ بمعنى فاعل كما قيل للظل تبع لأنه يتبع الشمس ، ويقال لملوك اليمن اقيال من يقيل فلان أباه إذا اقتدى به لأنهم يقتدى بهم ، وقيل : سمى ملكهم قيلا لنفوذ أقواله وهو مخفف قيل كميت *

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى قبل قوم تبع كعاد . وثمود وقبل قريش فهو تعميم بعد تخصيص ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم هدد به كفار قريش أو حال باضمار قد أو بدونه من الضمير المستتر فى الصلة أو خبر عن الموصول إن جعل مبتدأ ولم يعطف على ماقبله ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ٣٧ ﴾ تعليل لاهلاكهم أى أهلكناهم بسبب كونهم مجرمين فليحذر كفار قريش الاهلاك لاجرامهم *

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى مابين الجنسين وهو شامل لما بين الطبقات *

. وقرأ عبيد بن عمير (ومابينهن) فالضمير لمجموع السموات والأرض ﴿ لَاعِبِينَ ٣٨ ﴾ أى عابثين وهو دليل على وقوع الحشر كما مر فى الأنبياء وغيرها ﴿ مَاخَلَقْنَاهُمَا ﴾ أى ومابينهما ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى ماخلقناهما ملتبسين بشىء من الأشياء إلا ملتبسين بالحق فالجار والمجرور فى موضع الحال من الفاعل ، وجوز أن يكون فى موضع الحال من المفعول ، والباء للملابسة فيهما ، وجوز أن

تكون للسببية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أى ماخلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق الذى هو الايمان والطاعة والبعث والجزاء والملابسة أظهر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩ ﴾ تذييل وتجهيل فخيم لمنكرى الحشر وتوكيد لأن إنكارهم يؤدى إلى ابطال الكائنات بأسرها (ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) ولهذا قال المؤمنون : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ أى فصل الحق عن الباطل والمحق عن المبطل بالجزاء أو فصل الشخص عن أحبابه وذوى قرابته ﴿ مِيقَاتُهُمْ ﴾ وقت وعدهم ﴿ أَجْمَعِينَ ٤٠ ﴾ وقرىء (ميقاتهم) بالنصب على أنه اسم إن والخبر (يوم الفصل) أى إن ميعاد حسابهم وجزائهم فى يوم الفصل وليس مثل إن حراسنا أسدا ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴾ (بدل من يوم الفصل) أو عطف بيان عند من لايشترط المطابقة تعريفا وتنكيرا ، وجوز نصبه بأعنى مقدرا وأن يكون ظرفا مادل عليه الفصل لاله للفصل بينه وبينه بأجنبى ، وهو مصدر لايعمل إذا فصل لضعفه أوله على قول من اغتفر الفصل إذا كان المعمول ظرفا كابن الحاجب . والرضى ، وجوز أبو البقاء كونه صفة لميقاتهم . وتعقب بأنه جامد نكرة لاضافته للجملة فكيف يكون صفة للمعرفة مع أنه لا يصح بناؤه عند البصريين إذا أضيف إلى جملة صدرها معرب وهو المضارع أى يوم لايجزى ﴿ مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا ﴾ من الاغناء أى الاجزاء ، فشيئا منصوب على المصدرية ويجوز كونه مفعولا به ، ويغنى بمعنى يدفع وينفع . وتنكير «شيئا» للتقليل ، والمولى الصاحب الذى من شأنه أن يتولى معونة صاحبه على أموره فيدخل فى ذلك ابن العم والحليف والعتيق والمعتق وغيرهم ، وذكر الخفاجى أنه من الولاية وهى التصرف فيشمل كل من يتصرف فى آخر لأمر ما كقرابة وصداقة وهو قريب مما ذكرنا . وأياما كان فليس ذلك من استعمال المشترك فى أكثر من معنى واحد ، ولو سلم أن هناك مشتركا استعمل فى أكثر من معنى كانت الآية دليلا لابن الهمام عليه الرحمة فى جواز ذلك فى النفى فيقال عنده : ما رأيت عينا ويراد العين الباصرة وعين الذهب وغيرها ويعلم من نفى اغناء المولى نفى إغناء غيره من باب أولى *

﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ٤١ ﴾ الضمير عند جمع للمولى الأول ، والجمع باعتبار المعنى لأنه نكرة فى سياق النفى وهى تعم دون الثانى لأنه أفيد وأبلغ لأن حال المولى الثانى نصرته معلوم من نفى الاغناء السابق ، ولأنه إذا لم ينصر من استند اليه فكيف هو ، وأيضا وجه جمع الضمير فيه أظهر ، وجوز عوده على الثانى للدلالة على أنه لا ينصره غير مولاه وهو فى سياق النفى أيضا وإن لم يكن فى ذلك بمرتبة الاول . نعم قيل فى وجه الجمع : عليهما : إن النكرة فى سياق النفى تدل على كل فرد فرد فلا يرجع الضمير لها جمعا *

وأجيب بأنه لا يطرد لأنها قد تحمل على المجموع بقرينة عود ضمير الجمع عليها ، ولعل الأولى عود الضمير على المولى المفهوم من النكرة المنفية ، وقال بعض : لو جعل الضمير للكفار كضمير (ميقاتهم) كثرت الفائدة وقلت المؤنة فتأمل ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ فى محل رفع على أنه بدل من ضمير (ينصرون) أو فى محل نصب على الاستثناء منه أى لا يمنع من العذاب الا من رحمه الله تعالى وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه *

وجوز كونه بدلا أو استثناء من (مولى) وفيه كما فى الأول دليل على ثبوت الشفاعة لكن الرجحان للاول لفظا ومعنى ، والاستثناء من أى كان متصل ، وقال الكسائى : إنه منقطع أى لكن من رحمه الله تعالى

فانه لايحتاج الى قريب ينفعه ولا الى ناصر ينصره ، ولا وجه له مع ظهور الاتصال ، نعم إنه لا يتأتى على كون الاستثناء من الضمير وكونه راجعا للكفار فلا تغفل *

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذى لا ينصر من أراد سبحانه تعذيبه ﴿الرَّحِيمُ ٤٢﴾ لمن أراد أن يرحمه عز وجل *

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ٤٣﴾ مر معنى الزقوم فى الصافات وقرىء (شجرة) بكسر الشين ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤﴾ أى الكثير الآثام والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه دون ما يعمه والعاصى المكثر من المعاصى ثم ان المراد به جنس الكافر لا واحد بعينه ، وقال ابن زيد . وسعيد بن جبير : إنه هنا أبو جهل ، وليس بشيء ولا دليل على ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور عن أبى مالك من أن أبا جهل كان يأتى بالتمر والزبد فيقول : تزقموا فهذا الزقوم الذى يعدكم به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت (إن شجرة الزقوم طعام الاثيم) لما لا يخفى ، ومثله ما قيل : إنه الوليد . وأخرج أبو عبيد فى فضائله وابن الانبارى . وابن المنذر عن عوف بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلا (إن شجرة الزقوم طعام الاثيم) فقال الرجل طعام اليثيم (١) فردها عليه فلم يستقم بها لسانه فقال أتستطيع أن تقول طعام الفاجر؟ قال : نعم قال : فافعل ، وأخرج الحاكم وصححه وجماعة عن أبى الدرداء أنه وقع له مثل ذلك فلما رأى الرجل أنه لا يفهم قال : إن شجرة الزقوم طعام الفاجر *

واستدل بذلك على أن ابدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها . وتعقبه القاضى أبو بكر فى الانتصار بأنه أراد أن ينبهه على أنه لا يريد اليتيم (٢) بل الفاجر فينبغى أن يقرأ (الاثيم) وأنت تعلم أن هذا التأويل لا يكاد يتأتى فيما روى عن ابن مسعود فانه كالنص فى تجويز الابدال لذلك الرجل وابعد منه عن التأويل ما أخرج ابن مردويه عن أبى انه كان يقرىء رجلا فارسيا فكان اذا قرا عليه (إن شجرة الزقوم طعام الاثيم) قال : طعام اليتيم فمر به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : (قل له طعام الظلام) فقالها ففصح بها لسانه ، وفى الباب اخبار كثيرة جياد الاسانيد كخبر احمد من حديث أبى هريرة «انزل القرآن على سبعة احرف عليما حكيما غفورا رحيما» *

وكخبره من حديث ابى بكرة لله اى القرآن شاف كاف مالم تختم آية عذاب برحمة اورحمة بعذاب نحو قولك تعال وأقبل وأسرع وعجل الى غير ذلك ، لكن قال الطحاوى : انما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط واتقان الحفظ ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ ، وكذا قال ابن عبد البر . والباقلانى . وآخرون ، ولعله ان تحقق إبدال من أحد من الصحابة رضى الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام يقال : إنه كان منه قبل الاطلاع على النسخ ومتى لم يجز ابدال كلمة مكان كلمة مؤدية معناها مع الاتحاد عربية فعدم جواز ذلك مع الاختلاف عربية وفارسية مثلا أظهر ، وماروى عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه من أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية بشرط اداء المعانى على كمالها فقد صح عنه خلافه ، وقد حقق الشرنبلالى عليه الرحمة هذه المسئلة فى رسالة مفردة بما لا مزيد عليه ، وقد تقدم فى هذا الكتاب شيء من ذلك فتذكر ، والطعام ما يتناول منه من الغذاء وأصله مصدر فلذا وقع خبرا عن المؤنث ولم يطابق ، وجوز أن يكون ذلك من باب قوله :

انارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا

(١) بخط المؤلف بالثاء المثلثة (٢) بالتاء المثناة اه منه

فكأنه قيل: إن الزقوم طعام الاثيم ﴿ كَالْمُهْلِ ﴾ عكر الزيت كما روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما وجاء فى حديث رواه الحاكم وغيره عن أبى سعيد مرفوعا وفيه «فاذا قرب إلى وجهه -يعنى الجهنمى- سقطت فروة وجهه وربما يؤيد بقوله تعالى: (يوم تكون السماء كالمهل) مع قوله سبحانه: (فكانت وردة كالدهان) وقال بعض: عكر القطران، وفى رواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الصديد، ومنه ما فى حديث أبى بكر رضى الله تعالى عنه ادفنونى فى ثوبى هذين فانما هما للمهل والتراب. وفى رواية أخرى عنه رضى الله تعالى عنه أنه ما أذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص، وروى ذلك عن ابن مسعود، قيل: وسمى ذلك مهلا لأنه يمهل فى النار حتى يذوب فهو من المهل بمعنى السكون، وادعى بعضهم الاشتراك وقد جاء استعماله فى كل ما سمعت، وقرأ الحسن (كالمهل) بفتح الميم وهو لغة فيه، والجار والمجرور أو الكاف فى محل رفع خبر مبتدأ محذوف والجملة استئناف لبيان حال الطعام أى هو كالمهل أو مثل المهل، وقوله عز وجل: ﴿ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ ٤٥ ﴾ خبر ثان لذلك المبتدأ، وقيل. حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فيكون وصفا للطعام أيضا؛ وقال أبو عبيد: هو حال من المهل، وقيل. صفة له لأن أل فيه للجنس نحو أمر على اللئيم يسبنى ويعتبر داخلا فى التشبيه وأنت تعلم أن غليان الطعام فى البطن فيه مبالغة أما التشبيه بمهل يغلى فى البطن فلا، وقيل كالمهل أو الكاف خبر ثان لإن وجملة (يغلى فى البطون) حال من الزقوم أو الطعام. وتعقب بانه منع مجىء الحال من المضاف اليه فى غير صور مخصوصة ليس هذا منها ومنع مجيئه من الخبر ومن المبتداء وأجيب بأن هذا بناء على جواز مجىء الحال من الخبر ومن المبتدا والمضاف اليه المبتدأ فى حكمه وأن ماذكر من الصور التى يجىء الحال فيها من المضاف اليه لأن المضاف كالجزء فى جواز إسقاطه، ولا يخفى أنه بناء على ضعيف، وقيل: كالمهل خبر ثان والجملة حال من ضمير الشجرة المستتر فيه، والتذكير باعتبار كونها طعام الاثيم أو لاكتسابها إياه مما أضيفت اليه نظير ما سمعت فى البيت آنفا وهو تكلف مستغنى عنه، وقيل: الجملة على ذلك خبر مبتدا محذوف هو ضمير الطعام أو الزقوم فان كانت الجملة حينئذ مستأنفة فالبحث هين وإن كانت حالية عاد ما مر آنفا ولا أراك تظنه هينا، وقيل: كالمهل حال من طعام وحاله معلوم، وبالجملة الوجوه فى اعراب الآية كثيرة وأنا أختار منها ما ذكرته أولا *

وقرأ عمرو بن ميمون. وأبو رزين. والأعرج. وأبو جعفر. وشيبة. وابن محيصن. وطلحة. والحسن فى رواية. وأكثر السبعة (تغلى) بالتاء الفوقية فكالمهل خبر ثان لأن وجملة (تغلى) خبر ثالث واتحاد المبتدا والخبر متكفل باتحاد القراءتين معنى فافهم ولا تغفل *

﴿ كَغَلْىِ الْحَمِيمِ ٤٦ ﴾ صفة مصدر محذوف أى غليا كغلى الحميم، وجوز أن يكون حالا، والحميم ما هو فى غاية الحرارة ﴿ خُذُوهُ ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية أى ويقال لهم خذوه ﴿ فَاعْتِلُوهُ ﴾ فجروه بقهر *

قال الراغب: العتل الأخذ بمجامع الشىء وجره بقهر، وبعضهم يعبر بالثوب بدل الشىء وليس ذاك بلازم والمدار على الجر مع الامساك بعنف *

وقال الأعمش. ومجاهد: معنى (اعتلوه) اقصفوه كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلق الجار بخذوه، والمعنى الأول هو المشهور. وقرأ زيد بن على. والحجازيان. وابن عامر. ويعقوب (فاعتلوه)

بضم التاء وروى ذلك عن الحسن. وقتادة. والأعرج. على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر وهما لغتان ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧﴾ أي وسطه، وسمي سواء لاستواء بعد جميع أطرافه بالنسبة اليه *

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨﴾ كأن أصله صبوا فوق رأسه الحميم، ثم قيل: صبوا فوق رأسه عذابا هو الحميم للمبالغة بجعل العذاب عين الحميم، وهو مترتب عليه ولجعله مصبوبا كالمحسوس ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيد (من) للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع فهناك إما تمثيل أو استعارة تصريحية أو مكنية أو تخييلية ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩﴾ أي ويقال: أو قولوا له ذلك استهزاء وتقريعا على ما كان يزعمه *

أخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة قال: لما نزلت (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم) قال أبو جهل: ما بين جبليها رجل أعز ولا أكرم مني، فقال الله تعالى: (ذق) الخ *

وأخرج الأموي في مغازيه عن عكرمة أن أبا جهل قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء لقد علمت أني أمنع أهل بطحاء، وأنا العزيز الكريم فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وروى أن اللعين قال يوما: يا معشر قريش أخبروني ما اسمي فذكرت له ثلاثة أسماء عمرو. والجلاس. وأبو الحكم فقال: ما أصبتم اسمي ألا أخبركم به؟ قالوا: بلى قال: اسمي العزيز الكريم فنزلت (إن شجرة الزقوم) الآيات، وهذا ونحوه لا يدل أيضا على تخصيص حكم الآية به فكل أثيم يدعى دعواه كذلك يوم القيامة، وقيل: المعنى ذق إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم فما أغنى ذلك عنك ولم يفدك شيئا، والذوق مستعار للادراك *

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما على المنبر. والكسائي (أنك) بفتح الهمزة على معنى لأنك *

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي العذاب أو الأمر الذي أنتم فيه ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٥٠﴾ تشكون وتمارون فيه، وهذا ابتداء كلام منه عز وجل أو من مقول القول والجمع باعتبار المعنى لما سمعت أن المراد جنس الأثيم *

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضع قيام، والمراد بالقيام الثبات والملازمة كما في قوله تعالى: (ما دمت عليه قائما) ويكنى به عن الاقامة لأن المقيم ملازم لمكانه، وهو مراد من قال: في مقام أي موضع إقامة *

وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما. وزيد بن علي. وأبو جعفر. وشيبة. والأعرج. والحسن. وقتادة. ونافع. وابن عامر (مقام) بضم الميم ومعناه موضع إقامة، وعلى ما قررنا ترجع القراءتان إلى معنى واحد *

﴿أَمِينٍ ٥١﴾ يأمن صاحبه مما يكره فهو صفة من الأمن وهو عدم الخوف عما هو من شأنه، ووصف المقام به باعتبار أمن من آمن به فهو إسناد مجازي كما في نهر جار، وظاهر كلام الزمخشري أن ذلك استعارة من الأمانة كأن المكان مؤتمن وضع عنده ما يحفظه من المكاره ففيه استعارة مكنية وتخييلية، وقال ابن عطية: فعيل بمعنى مفعول أي مأمون فيه وليس بذاك، وجوز أن يكون للنسبة أي ذي أمن ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢﴾ بدل من (مقام) باعادة الجار أو الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور، وظرفية العيون للمجاورة، والظاهر

أنه بدل اشتمال لا كل وبعض ، وفى ذلك دلالة على نزاهة مكانهم واشتماله على مايستلذ من المآكل والمشارب ◊
﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير فى الجار والمجرور أو استئناف، والسندس قال ثعلب : الرقيق من الديباج والواحدة سندسة ، والاستبرق غليظه ، وقال الليث : هو ضرب من البزيون يتخذ من المرعز ، ولم يختلف أهل اللغة فى أنهما معربان كذا ذكره بعضهم ◊
وفى الكشاف الاستبرق ماغلظ من الديباج وهو تعريب استبر ، قال الخفاجى : ومعنى استبر فى لغة الفرس الغليظ مطلقا ثم خص بغليظ الديباج وعرب ، وقيل: إنه عربى من البراقة، وأيد بقراءته بوصل الهمزة وهو كما ترى ◊
وذكر بعضهم أن السندس أصله سندى ومعناه منسوب إلى السند المكان المعروف لأن السندس كان يجلب منه فأبدلت ياء النسبة سينا ، وقد مر الكلام فى ذلك فتذكر ، ثم ان وقوع المعرب فى القرآن العظيم لا ينافى كونه عربيا مبينا . ونقل صاحب الكشف عن جار الله أنه قال : الكلام المنظوم مركب من الحروف المبسوطة فى أى لسان كان تركى أو فارسى أو عربى ثم لا يدل على أن العربى أعجمى فكذا ههنا، ثم قال صاحب الكشف : يريد أن كون استبر أعجميا لا يلزمه أن يكون استبرق كذلك . وقرأ ابن محيصن (واستبرق) فعلا ماضيا كما فى البحر ، والجملة حينئذ قيل معترضة ، وقيل : حال من (سندس) والمعنى يلبسون من سندس وقد برق لصقالته ومزيد حسنه ﴿ مُتَقَابِلِينَ ٥٣ ﴾ فى مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أى الامر كذلك فالكاف فى محل رفع على الخبرية لمبتدإ محذوف ، والمراد تقرير مامر وتحقيقه . ونقل عن جار الله أنه قال : والمعنى فيه أنه لم يستوف الوصف وأنه بمثابة مالا يحيط به الوصف فكأنه قيل : الامر نحو ذلك وما أشبهه ◊
وأراد على ماقال المدقق أن الكاف مقحم للمبالغة وذلك مطرد فى عرف العرب والعجم ، وجوز أن يكون فى محل نصب على معنى أثبناهم مثل ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ ﴾ على هذا عطف على الفعل المقدر وعلى ما قبل على (يلبسون) والمراد على ما قال غير واحد وقرناهم ﴿ بِحُورٍ عِينٍ ٥٤ ﴾ وفسر بذلك قيل لأن الجنة ليس فيها تكليف فلا عقد ولا تزويج بالمعنى المشهور ، وقيل : لمكان الباء ، وزوجه المرأة بمعنى أنكحه اياها متعد بنفسه ، وفيه بحث فان الاخفش جوز الباء فيه فيقال : زوجته بامرأة فتزوج بها ، وأزد شنوءة يعدونه بالباء أيضا ، وفى القاموس زوجته امرأة وتزوجت امرأة وبها أوهى قليلة ، ويعلم مما ذكر أن قول بعض الفقهاء زوجته بها خطأ لا وجه له ، ويجوز أن يقال : إن ذلك التفسير لأن الحور العين فى الجنة ملك يمين كالسرارى فى الدنيا فلا يحتاج الامر إلى العقد عليهن ، على أنه يمكن أن يكون فى الجنة عقد وإن لم يكن فيها تكليف ◊
وقد أخرج ابن جرير . وغيره عن مجاهد أنه قال : زوجناهم انكحناهم . ومن الناس من قال بالتكليف فيها بمعنى الامر والنهى لكن لا يجدون فى الفعل والترك كلفة ، نعم المشهور أن لا تكليف فيها ، وبعض ماحرم فى الدنيا كنكاح امرأة الغير ونكاح المحارم لا يفعلونه لعدم خطوره لهم ببال أصلا ، والحور جمع حوراء وهى البيضاء كما روى عن ابن عباس . والضحاك . وغيرهما ، وقيل : الشديدة سواد العين وبياضها ، وقيل : الحوراء ذات الحور وهو سواد المقلة كلها كما فى الظباء فلا يكون فى الانسان الا مجازا . وأخرج ابن المنذر . وغيره عن مجاهد أن الحوراء التى يحار فيها الطرف . والعين جمع عيناء وهى عظيمة العينين وأكثر الاخبار تدل على أنهن

لسن نساء الدنيا ، أخرج ابن أبى حاتم . والطبرانى عن أبى أمامة قال : « قال رسول الله ﷺ خلق الحور العين من زعفران » وأخرج ابن مردويه . والخطيب عن أنس بن مالك مرفوعا نحوه ، وأخرج ابن المبارك عن زيد ابن أسلم قال : إن الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب إنما خلقهن من مسك وكافور وزعفران *

وأخرج ابن مردويه . والديلمى عن عائشة قالت : « قال رسول الله ﷺ حور العين خلقهن من تسبيح الملائكة عليهم السلام » وهذا إن صح لا يعارض ماقبله اذ لابد عليه من أن يقال بتجسد المعانى فيجوز تجسد التسبيح وجعله جزأ مما خلقن منه ، وقيل : المراد بهن هنا نساء الدنيا وهن فى الجنة حور عين بالمعنى الذى سمعت بل هن أجمل من الحور العين أعنى النساء المخلوقات فى الجنة من زعفران أو غيره ويعطى الرجل هناك ما كان له فى الدنيا من الزوجات ، وقد يضم إلى ذلك ماشاء الله تعالى من نساء متن ولم يتزوجن ، ومن تزوجت بأكثر من واحد فهى لآخر أزواجها أو لأولهم إن لم يكن طلقها فى الدنيا أو تخير فتختار من كان أحسنهم خلقا معها أقوال أصحها الأول ، وتعطى زوجة كافر دخلت الجنة لمن شاء الله تعالى . وقد ورد أن آسية امرأة فرعون تكون زوجة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم *

وقرأ عكرمة (بحور عين) بالاضافة وهى على معنى من أى بالحور من العين ، وفى قراءة عبدالله (بعيس عين) والعيساء البيضاء تعلوها حمرة ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ﴾ يطلبون ويأمرون باحضار مايشتهون من الفواكه ولا يتخصص شىء منها بمكان ولازمان ﴿ آمِنِينَ ٥٥ ﴾ من الضرر أى ضرر كان ، وهو حال من ضمير (يدعون) وكونه حالا من الضمير فى قوله سبحانه : (فى جنات) بعيد ، وأبعد منه جعل (يدعون) حينئذ صفة الحور والنون فيه ضمير النسوة وزنه يفعلن لمافيه من ارتكاب خلاف الظاهر مع عدم المناسبة للسياق ه وقوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ جملة مستأنفة أو حالية وكأنه أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع الموتة الأولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل : ان كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها ، ونظيره قول القائل لمن يستسقيه : لا أسقيك الا الجمر وقد علم أن الجمر لا يسقى ، ومثله قوله عز وجل : (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الا ماقد سلف) فالاستثناء متصل والدخول فرضى للمبالغة ، وضمير (فيها) للجنات ، وقيل : هو متصل والمؤمن عند موته لمعاينة مايعطاه فى الجنة كأنه فيها فكأنه ذاق الموتة الأولى فى الجنة ، وقيل : متصل وضمير (فيها) للآخرة والموت أول أحوالها ، ولا يخفى مافيه من التفكيك مع ارتكاب التجوز ، وقيل : الاستثناء منقطع والضمير للجنات أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا ، والاصل اتصال الاستثناء ، وقال الطبرى : الا بمعنى بعد ، والجمهور لم يثبتوا هذا المعنى لها ، وقال ابن عطية : ذهب قوم إلى أن الا بمعنى سوى وضعفه الطبرى * وقال أبو حيان : ليس تضعيفه بصحيح بل يصح المعنى بسوى ويتسق . وفائدة الوصف تذكير حال الدنيا ه والداعى لما سمعت من الاوجه دفع سؤال يورد ههنا من أن الموتة الأولى مما مضى لهم فى الدنيا وما هو كذلك لا يمكن أن يذوقوه فى الجنة فكيف استثنيت ؟ وقيل : إن السؤال مبنى على أن الاستثناء من النفى اثبات فيثبت للمستثنى الحكم المنفى عن المستثنى منه ومحال أن يثبت للموتة الأولى الماضية الذوق فى الجنة ، وأما على قول من

جعله تكلما بالباقى بعد الثنيا ، والمعنى لايذوقون سوى الموتة الأولى من الموت فلا اشكال فتأمل . وقرأ عبيد ابن عمير (لايذاقون) مبنيا للمفعول، وقرأ عبدالله (لايذوقون فيها طعم الموت) وجاء فى الحديث النوم لأنه أخو الموت ، أخرج البزار . والطبرانى فى الاوسط . وابن مردويه . والبيهقى فى البعث بسند صحيح عن جابر ابن عبد الله قال : « قيل يارسول الله أينام أهل الجنة ؟ قال : لا النوم أخو الموت وأهل الجنة لايموتون ولا ينامون » *

﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ٥٦ ﴾ وقرأ أبوحيوة (ووقاهم) مشدد القاف على المبالغة فى التكثير فى الوقاية لأن التفعيل لزيادة المعنى لا للتعدية لأن الفعل متعد قبله ﴿ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلا منه تعالى فهو نصب على المصدرية ، وجوز فيه أن يكون حالا ومفعولا له ، وأياما كان ففيه اشارة إلى نفى إيجاب أعمالهم الاثابة عليه سبحانه وتعالى . وقرئ (فضل) بالرفع أى ذلك فضل ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥٧ ﴾ لأنه فوز بالمطالب وخلاص من المكاره ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ أى فانما سهلنا القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ أى بلغتك ، وقيل : المعنى أنزلناه على لسانك بلا كتابة لكونك أميا ، وهذا فذلكة واجمال لما فى السورة بعد تفصيل تذكيراً لما سلف مشروحا فيها ، فالمعنى ذكرهم بالكتاب المبين فانما يسرناه بلسانك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ ﴾ أى كى يفهموه ويتذكروا به ويعملوا بموجبه ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أى وأن لم يتذكروا فانتظر مايحل بهم وهو تعميم بعد تخصيص بقوله تعالى : (فارتقب يوم تأتى السماء) الخ ﴿ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ٥٩ ﴾ منتظرون مايحل بك كما قالوا : « نتربص به ريب المنون » وقيل: معناه مرتقبون مايحل بهم تهكما ، وقيل . هو مشاكلة ، والمعنى انهم صائرون للعذاب ، وفى الآية من الوعد له صلى الله تعالى عليه وسلم مالا يخفى ، وقيل : فيها الامر بالمتاركة وهو منسوخ بآية السيف فلا تغفل *

﴿ ومن باب الاشارة فى الآيات ﴾ ماذكروه فى قوله تعالى . « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون » إلى آخر القصة من تطبيق ذلك على مافى الانفس، وهو يعلم مما ذكرناه فى باب الاشارة من هذا الكتاب غير مرة فلا نطيل به ، وقالوا فى قوله تعالى (وماخلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما الا بالحق) إنه اشارة إلى الوحدة كقوله عز وجل : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وأفصح بعضهم فقال : الحق هو عز وجل والباء للسببية أى ماخلقناهما الا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحق جل وعلا ، ومن جعل منهم الباء للملابسة أنشد .

رق الزجاج وراقت الخمر　　فتشاكلا وتشابه الأمر
فكأنما خمر ولا قدح　　وكأنما قدح ولا خمر

والعبارة ضيقة والأمر طور ماوراء العقل والسكوت أسلم ، وقالوا فى شجرة الزقوم : هى شجرة الحرص وحب الدنيا تظهر يوم القيامة على أسوأ حال وأخبث طعم ، وقالوا (الموتة الأولى) ماكان فى الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق فى الجهاد الأكبر وهو المشار اليه بموتوا قبل أن تموتوا فمن مات ذلك الموت حي أبدا الحياة الطيبة التى لايمازجها شيء من ماء الآلام الجسمانى والروحانى وذلك هو الفوز العظيم ، والله تعالى يقول الحق وهو سبحانه يهدى السبيل *

﴿ سورة الجاثية ٤٥ ﴾

وتسمى سورة الشريعة. وسورة الدهر كما حكاه الكرمانى فى العجائب لذكرهما فيها ، وهى مكية قال ابن عطية: بلا خلاف ، وذكر الماوردى الا (قل للذين آمنوا يغفروا) الآية فمدنية ، وحكى هذا الاستثناء فى جمال القراء عن قتادة ، وسيأتى الكلام فى ذلك إن شاء الله تعالى . وهى سبع وثلاثون آية فى الكوفى وست وثلاثون فى الباقية لاختلافهم فى (حم) هل هى آية مستقلة أولا ، ومناسبة أولها لآخر ما قبلها فى غاية الوضوح *

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * حم ١ ﴾ ان جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى هذا مسمى بحم ، وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ ﴾ صلته أو خبر ثالث أو حال من (تنزيل) عاملها معنى الاشارة أو من (الكتاب) الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف ، وقيل : (حم) مبتدأ وهذا خبره والكلام على المبالغة أيضا أو تأويل (تنزيل) بمنزل ، والإضافة من اضافة الصفة لموصوفها ، واعتبار المبالغة أولى أى المسمى به تنزيل الخ . وتعقب بأن الذى يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها ، وجوز جار الله جعل « حم » مبتدأ بتقدير مضاف أى تنزيل حم و(تنزيل) المذكور خبره و(من الله) صلته ، وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر ايذانا بأنه الكتاب الكامل إن أريد بالكتاب السورة ، وفيه تفخيم ليس فى تنزيل حم تنزيل من الله ، ولهذا لما لم يراع فى حم السجدة هذه النكتة عقب بقوله تعالى : (كتاب فصلت) ليفيد هذه الفائدة مع التفنن فى العبارة ، وان اريد الكتاب كله فللاشعار بأن تنزيله كانزال الكل فى حصول الغرض من التحدى والتهدى ، فدعوى عراء هذا الوجه عن فائدة يعتد بها عراء عن انصاف يعتد به . وإن جعل تعديدا للحروف فلا حظ له من الاعراب وكان « تنزيل » خبر مبتدأ مضمر يلوح به ما قبله أى المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب أو مبتدأ خبره الظرف بعده على ما قاله جار الله ، وقيل : « حم » مقسم به ففيه حرف جر مقدر وهو فى محل جر أو نصب على الخلاف المعروف فيه و« تنزيل » نعت مقطوع فهو خبر مبتدأ مقدر والجملة مستأنفة وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ٣ ﴾ وهو على ما تقدم استئناف للتنبيه على الآيات التكوينية ، وجوز أن يكون « تنزيل الكتاب من الله » مبتدأ وخبرا والجملة جواب القسم ، وهو خلاف الظاهر ، وقيل : يقدر « حم » على كونه مقسما به مبتدأ محذوف الخبر أى حم قسمى ويكون « تنزيل » نعتا له غير مقطوع ، وعلى سائر الاوجه قوله سبحانه : (العزيز الحكيم) نعت للاسم الجليل *

وجوز الامام كونه صفة للكتاب الا أنه رجح الاول بعد احتياجه الى ارتكاب المجاز مع زيادة قرب الصفة من الموصوف فيه ، وأوجبه أبو حيان لما فى الثانى من الفصل بين الصفة والموصوف الغير الجائز *

وقوله عز وجل : « إن فى السموات » الخ يجوز أن يكون بتقدير مضاف أى إن فى خلق السموات كما رواه الواحدى عن الزجاج لما أنه قد صرح به فى آية أخرى والقرآن يفسر بعضه بعضا ، ويناسبه قوله عز وجل :

﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ ﴾ الى آخره ، ويجوز أن يكون على ظاهره وحينئذ يكون على أحد وجهين . أحدهما إن فيهما لآيات أى ما فيهما من المخلوقات كالجبال والمعادن والكواكب والنيرين وعلى هذا يكون قوله سبحانه (وفى خلقكم) من عطف الخاص على العام . والثانى أن أنفسهما لآيات لما فيها من فنون الدلاله على القادر الحكيم جل شأنه، وهذا أظهر وهو أبلغ من أن يقال : إن فى خلقهما لآيات وإن كان المعنى آيلا اليه، و «فى خلقكم» خبر مقدم وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ عطف على خلق ، وجوز فى (ما) كونها مصدرية وكونها موصولة إما بتقدير مضاف أى وفى خلق ما ينشره ويفرقه من دابة أو بدونه *

وجوز عطفه على الضمير المتصل المجرور بالاضافة وما موصولة لا غير على الظاهر ، وهو مبنى على جواز العطف على الضمير المتصل المجرور من غير اعادة الجار وذلك مذهب الكوفيين . ويونس . والاخفش ، قال أبو حيان : وهو الصحيح ، واختاره الاستاذ أبو على الشلوبين ، ومذهب سيبويه . وجمهور البصريين منع العطف المذكور سواء كان الضمير مجرورا بالحرف أو بالاضافة لشدة الاتصال فأشبه العطف على بعض الكلمة*

وذكر ابن الحاجب فى شرح المفصل فى باب الوقف منه أن بعض النحويين يجوزون العطف فى المجرور بالاضافة دون المجرور بالحرف لأن اتصال المجرور بالمضاف ليس كاتصاله بالجار لاستقلال كل واحد منهما بمعناه فلم يشتد اتصاله فيه اشتداده مع الحرف وأجاز الجرمى . والزيادى العطف إذا أكد الضمير المتصل بمنفصل نحو مررت بك أنت وزيد وقوله تعالى ﴿ ءَايَاتٌ ﴾ مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على جملة «ان فى السموات» الخ. وقرأ أبى . وعبد الله « لآيات » باللام كذا فى البحر ولم يبين أن آيات مرفوع أو منصوب ، فان كان منصوبا فاللام زائدة فى اسم إن المتقدم عليه خبرها وهو أحد مواضع زيادته المطردة الكثيرة ، وإن كان مرفوعا فهى زائدة فى المبتدا ويقل زيادتها فيه ، وحسن زيادتها هنا تقدم ان فى الجملة المعطوف عليها فهو كقوله :

إن الخلافة بعدهم لذميمة وخلائف ظرف لما أحقر

وقرأ زيد بن على « آية » بالافراد . وقرأ الأعمش . والجحدرى . وحمزة . والكسائى . ويعقوب « آيات » بالجمع والنصب على أنها عطف على « آيات » السابق الواقع اسما لان و «فى خلقكم » معطوف على « فى السموات » فكأنه قيل : وان فى خلقكم وما يبث من دابة آيات ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤ ﴾ أى من شأنهم أن يوقنوا بالاشياء على ما هى عليه ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ بالجر على اضمار فى ، وقد قرأ عبد الله بذكره. وجاء حذف الجار مع ابقاء عمله كما فى قوله :

إذا قيل أى الناس شر قبيلة أشارت كليب بالاكف الاصابع

وحسن ما هنا ذكر الجار فى الآيتين قبل . وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ خبره (آيات) بعد، والمراد باختلافهما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصرا ، وقيل : اختلافهما فى أن أحدهما نور والآخر ظلمة ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ عطف على (اختلاف) ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ جهة العلو ، وقيل: السحاب ، وقيل : الجرم المعروف بضرب من التأويل *

﴿ مِنْ رِزْقٍ ﴾ من مطر ، وسمى رزقا لأنه سببه فهو مجاز ، ولو لم يؤول صح لأنه فى نفسه رزق أيضا *

﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بأن أخرج منها أصناف الزرع والثمرات والنبات ، والسببية عادية اقتضتها الحكمة

﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال ، وتأخيره عن إنزال المطر مع تقدمه عليه فى الوجود إما للايذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعى الترتيب الوجودى لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس بمجرد كونه مبدأ لانشاء المطر بل له ولسائر المنافع التى من جملتها سوق السفن فى البحار *

وقرأ زيد بن على . وطلحة . وعيسى (وتصريف الريح) بالافراد ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور أعنى (فى اختلاف) على ماسمعت ، والجملة معطوفة على ماقبلها *

وقيل: إن (اختلاف) بالجر عطف على (خلقكم) المجرور بفى قبله و(آيات) عطف على آيات السابق المرفوع بالابتداء ، وفيه العطف على معمولى عاملين مختلفين ، ومن الناس من يمنعه وهم أكثر البصريين ، ومنهم من يجيزه وهم أكثر الكوفيين ، ومنهم من يفصل فيقول : وهو جائز فى نحو قولك : فى الدار زيد والحجرة عمرو وغير جائز فى نحو قولك : زيد فى الدار وعمرو الحجرة لأن الأول يلى المجرور فيه العاطف فقام العاطف مقام الجار ، والثانى لم يل فيه المجرور العاطف فكان فيه إضمار الجار من غير عوض ، وتمام الكلام فى هذه المسألة فى محله ، وقيل : إن (اختلاف) عطف على المجرور قبله و(آيات) خبر مبتدأ محذوف أى هى آيات ، واختاره من لم يجوز العطف على معمولى عاملين ويقول بضعف حذف الجار مع بقاء عمله وإن تقدمه ذكر جار *

وقال أبو البقاء : (آيات) مرفوع على التأكيد لآيات السابق وهم يعيدون الشىء إذا طال الكلام فى الجملة للتأكيد والتذكير . وتعقب بأن ذلك إنما يكون بعين ما تقدم واختلاف الصفات يدل على تغاير الموصوفات فلا وجه للتأكيد ، وأيضا فيه الفصل بين المعطوف المجرور والمعطوف عليه وبين المؤكد والمؤكد وهو إن جاز يورث تعقيدا ينافى فصاحة القرآن العظيم . وقرأ (آيات) هنا بالنصب من قرأها هناك به فهى مفعول لفعل محذوف أى أعنى آيات ، وقيل : العاطف فى قوله تعالى (واختلاف) عطف اختلاف على المجرور بفى قبل وعطفها على اسم إن وهو مبنى على جواز العطف على معمولى عاملين ، وقال أبو البقاء : هى منصوبة على التأكيد والتكرير لاسم إن نحو إن بثوبك دما وبثوب زيد دما ، ومر آنفا مافيه *

وقال بعضهم: إنها اسم إن مضمرة وهى قد تضمر ويبقى عملها ، ذكر أبو حيان فى الارتشاف فى الكلام على إن من خير الناس أو خيرهم زيد أن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدى ذهب إلى نصب خيرهم ورفع زيد فاسم إن محذوف وأو خيرهم منصوب باضمار إن لدلالة إن المذكورة تقديره إن من خير الناس زيدا وإن خيرهم زيد . وقد أقر الشاطبى تخريج النصب فى الآية على ذلك لكن نقله السفاقسى عن أبى البقاء ورده بأن إن لا تضمر *

وقال ابن هشام فى آخر الباب الرابع من المغنى: إنه بعيد ، والظاهر أنه لابد عليه من إضمار الجار فى (اختلاف) وحينئذ لا يخفى حاله ، وسائر القراءات مروية هنا عمن رويت عنه فيما تقدم ، وتنكير «آيات» فى الآيات للتفخيم كما وكيفا ، والمعنى إن المنصفين من العباد إذا نظروا فى السموات والارض النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة وأنها لابد لها من صانع فآمنوا بالله تعالى وأقروا ، وإذا نظروا فى خلق أنفسهم وتنقلها من حال الى حال وهيئة

الى أخرى وفى خلق ما على ظهر الارض من صنوف الحيوان ازدادوا ايمانا وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس فاذا نظروا فى سائر الحوادث التى تتجدد فى كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الامطار وحياة الارض بعد موتها وتصريف الرياح جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا وشدة وضعفا وحرارة وبرودة عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم كذا فى الكشاف ومنه يعلم نكتة اختلاف الفواصل *

وفى الكشف أنه ذكر ما حاصله أنه على سبيل الترقى وهو يوافق ماعليه الصوفية وغيرهم من أن الايقان مرتبة خاصة فى الايمان ، ثم العقل لما كان مدارهما أى الايمان والايقان ونعنى به العقل المؤيد بنور البصيرة جعله لخلوص الايقان من اعتراء الشكوك من كل وجه فنى استحكامه كل خير ، وروعى فى ترتيب الآيات ما روعى فى ترتيب المراتب الثلاث من تقديم ما هو أقدم وجودا ، ولا يلزم أن تكون الآية الثانية أعظم من الاولى ولا الثالثة من الثانية لما ذكره من أن الجامع بين النظرين موقن وبين الثلاثة عاقل على أنها كذلك فى تحصيل هذا الغرض فان كانت أعظم من وجه آخر فلا بأس فان النظر الى حال نفسه وما هو من نوعه ثم جنسه من سائر الاناسى والحيوان للقرب والتكرر وكثرة العدد أدخل فى انتفاء الشك وحصول اليقين وإن كان النظر فى السماء والأرض أتم دلالة على كمال القدرة والعلم فذلك لا يضر ولا هو المطلوب ههنا ثم النظر الى الاختلاف المذكور أدل على استحكام ذلك اليقين من حيث أنه يتجدد حينا فحينا ويبعث على النظر والاعتبار كلما تجدد هذا ، والتحقيق أن تمام النظر فى الثانى يضطر الى النظر فى الأول لأن السموات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه ، وكذلك النظر فى الثالث يضطر الى النظر فى الأولين ، أما على الأول فظاهر وأما على الثانى فلأنه العلة الغائية فلا بد من أن يكون جامعا انتهى ، وهو كلام نفيس جدا *

وقال الامام فى ترتيب هذه الفواصل : أظن أن سببه أنه قيل ان كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين بل كنتم من طلاب الجزم واليقين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل ، ولا يخفى أنه فاته ذلك التحقيق ولم يختر الترقى وهو بالاختيار حقيق ، والمغايرة بين ماهنا وما فى سورة البقرة أعنى (إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الآية للتفنن والكلام المعجز مملوء منه ، وذكر الامام فى ذلك مالا يهش له السامع فتأمل ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقوله تعالى : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ حال عاملها معنى الاشارة نحو (هذا بعلى شيخا) على المشهور ، وقيل : هو الخبر و(آيات الله) بدل أو عطف بيان وقوله سبحانه : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ حال من فاعل (نتلوها) أو من مفعوله أى نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق فالباء للملابسة ويجوز أن تكون للسببية الغائية ، والمراد بالآيات المشار اليها إما آيات القرآن أو السورة أو ماذكر قبل من السموات والأرض وغيرهما فتلاوتها بتلاوة مايدل عليها ، وفسرت بالسرد أى نسردها عليك *

وقال ابن عطية : الكلام بتقدير مضاف أى نتلوا شأنها وشأن العبرة بها . وقرىء (يتلوها) بالياء على أن الفاعل ضميره تعالى والمراد على القراءتين تلاوتها عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بواسطة الملك عليه السلام ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ٦ ﴾ هو من باب قولهم : أعجبنى زيد وكرمه يريدون أعجبنى كرم زيد إلا أنهم عدلوا عنه للمبالغة فى الاعجاب أى فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه

دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ولا آية أدل من هذه الآية، وتفخيم شأن الآيات من اسم الاشارة وإضافتها إلى الله عز وجل، وجعل (تتلوها) حالا مع ضمير التعظيم ثم تكرير الاسم الجليل للنكتة المذكورة وإضافتها اليه بواسطة الضمير مرة أخرى، وقد ذكر ذلك الزمخشري وتعقبه أبو حيان بأنه ليس بشيء لأن فيه من حيث المعنى اقحام الاسماء من غير ضرورة والعطف، والمراد غير العطف من إخراجه إلى باب البدل لأن تقدير كرم زيد انما يكون في أعجبني زيد كرمه بغير واو على البدل وهذا قاب لحقائق النحو، وإنما المعنى في المثال ان ذات زيد أعجبته وأعجبه كرمه فهما إعجابان لا إعجاب واحد وهو مبني على عدم التعمق في فهم كلام جار الله *

ومن تعمق فيه لا يرى أنه قائل بالاقحام وإنما بيان حاصل المعنى يوهمه، وبين هذه الطريقة وطريقة البدل مغايرة تامة، فقد ذكر أن فائدة هذه الطريقة وهي طريقة إسناد الفعل إلى شيء والمقصود إسناده إلى ما عطف عليه قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه من جهة الدلالة على أنه صار من التلابس بحيث يصح أن يسند أوصافه وأفعاله وأحواله إلى الأول قصدا لأنه بمنزلته ولا كذلك البدل لأن المقصود فيه بالنسبة هو الثاني فقط وهنا هما مقصودان، فإن قلت: إذا لم يكن ذلك الوصف منسوبا للمعطوف عليه لزم إقحامه كما قال أبو حيان، وما يذكر من المبالغة لا يدفع المحذور، وعلى فرض تسليمه فدلالته على ماذكر بأي طريق من طرق الدلالة المشهورة *

أجيب بأنه غير منسوب اليه في الواقع لكن لما كان بينهما ملابسة تامة من جهة ما ككون الآيات ههنا بإذنه تعالى أو مرضية له عز وجل جعل كأنه المقصود بالنسبة وكنى بها عن ذلك الاختصاص كناية إيمائية ثم عطف عليه المنسوب اليه وجعل تابعا فيها وبهذا غاير البدل مغايرة تامة غفل عنها المعترض فالنسبة بتمامها مجازية كذا قرره بعض المحققين *

وقال الواحدي: أي فبأي حديث بعد حديث الله أي القرآن وقد جاء إطلاقه عليه في قوله تعالى: (الله نزل أحسن الحديث) وحسن الاضمار لقرينة تقدم الحديث، وقوله سبحانه: (وآياته) عطف عليه لتغايرهما إجمالا وتفصيلا لأن الآيات هي ذلك الحديث ملحوظ الأجزاء، وإن أريد ما بين فيه من الآيات والدلائل فليس من عطف الخاص على العام لأن الآيات ليست من القرآن وإنما وجه دلالتها وإيرادها منه فيكون في هذا الوجه الدلالة أيضا على حال البيان والمبين كما في الوجه الأول، وقال الضحاك: أي فبأي حديث بعد توحيد الله ولا يخفى أنه بظاهره مما لا معنى له فلعله أراد بعد حديث توحيده تعالى أي الحديث المتضمن ذلك أو هو بعد تقدير المضاف من باب أعجبني زيد وكرمه، وأياما كان فالفاء في جواب شرط مقدر والظرف صفة (حديث) وجوز أن يكون متعلقا بيؤمنون قدم للفاصلة *

وقرأ ابن عامر. وأبو بكر. وحمزة. والكسائي (تؤمنون) بالتاء الفوقانية وهو موافق لقوله تعالى: (وفي خلقكم) بحسب الظاهر والصورة وإلا فالمراد هنا الكفار بخلاف ذلك *

وقرأ طلحة (توقنون) بالتاء الفوقانية والقاف من الايقان ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كثير الافك أي الكذب ﴿أَثِيمٍ ٧﴾ كثير الاثم، والآية نزلت في أبي جهل، وقيل: في النضر بن الحرث وكان يشتري حديث الأعاجم ويشغل به الناس عن استماع القرآن لكنها عامة كما هو مقتضى كل ويدخل من نزلت فيه دخولا أوليا، و(أثيم) صفة (أفاك) وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى له، وقيل استئناف، وقيل حال من الضمير في (أثيم)

وقوله سبحانه ﴿ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ حال من (آيات الله) ولم يجوز جعله مفعولا ثانيا ليسمع لأن شرطه أن يكون مابعده مما لا يسمع كسمعت زيدا يقرأ، والظاهر أن المراد بتتلى الاستمرار لأنه المناسب للاستبعاد المدلول عليه بقوله عزوجل ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ فان ثم لاستبعاد الاصرار بعد سماع الآيات وهى للتراخى الرتبى ويمكن إبقاؤه على حقيقته إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام، ونظير ذلك فى الاستبعاد قول جعفر بن علبة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

والاصرار على الشيء ملازمته وعدم الانفكاك عنه من الصر وهو الشد ومنه صرة الدراهم، ويقال: صر الحمار أذنيه ضمهما صرا وأصر الحمار ولا يقال أذنيه على مافى الصحاح وكأن معناه حينئذ صار صارا أذنيه *

والمراد هنا ثم يقيم على كفره وضلاله ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ عن الايمان بالآيات وهو حال من ضمير (يصر) وقوله سبحانه ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ حال بعد حال أو حال من ضمير (مستكبرا) وجوز الاستئناف، و(كأن) مخففة من كأن بحذف إحدى النونين واسمها ضمير الشأن، وقيل: لا حاجة إلى تقديره كما فى أن المفتوحة، والمعنى يصر مستكبرا مثل غير السامع لها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨ ﴾ على إصراره ذلك، والبشارة فى الأصل الخبر المغير للبشرة خيرا كان أو شرا، وخصها العرف بالخبر السار فان أريد المعنى العرفى فهو استعارة تهكمية أو هو من قبيل * تحية بينهم ضرب وجيع * ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا ﴾ وإذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها * ﴿ اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه، وجوز أن يكون المعنى وإذا علم من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا يتسلق به على الطعن والغميزة افترصه واتخذ آيات الله تعالى هزوا وذلك نحو اعتراض ابن الزبعرى فى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ومغالطته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقوله على مافى بعض الروايات: خصمتك فضمير (اتخذها) على الوجهين للآيات، والفرق بينهما أن (شيئا) على الثانى فيه تخصيص لقرينة (اتخذها هزوا) إذ لا يحتمل إلا ما يحسن أن يخيل فيه ذلك ثم يجعله دستورا للباقى فيقول: الكل من هذا القبيل، وفرق بين الوجهين أيضا بأن فى الأول الاتخاذ قبل التأمل وفى الثانى بعده وبعد تمييز آية عن أخرى، وقيل: الاستهزاء بما علمه من الآيات إلا أنه أرجع الضمير إلى الآيات لأن الاستهزاء بواحدة منها استهزاء بكلها لما بينها من التماثل، وجوز أن يرجع الضمير إلى شيء والتأنيث لأنه بمعنى الآية كقول أبى العتاهية:

نفسى بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدى يكفيها

يعنى الشيء وأراد به عتبة جارية للمهدى من حظاياه وكان أبو العتاهية يهواها فقال ماقال. وقرأ قتادة. ومطر الوراق (علم) بضم العين وشد اللام مبنيا للمفعول ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ إشارة إلى كل أفاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح، والجمع باعتبار الشمول للكل كما فى قوله تعالى: «كل حزب بما لديهم فرحون» كما أن الافراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد، وأداة البعد للاشارة إلى بعد منزلتهم فى الشر * ﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب جناياتهم المذكورة ﴿ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩ ﴾ وصف العذاب بالاهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم

بآيات الله عز وجل ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى من قدامهم لأنهم متوجهون اليها أو من خلفهم لأنهم معرضون عن الالتفات اليها والاشتغال عما ينجيهم منها مقبلون على الدنيا والانهماك فى شهواتها ، والوراء تستعمل فى هذين المعنيين لأنها اسم للجهة التى يواريها الشخص فتعم الخلف والقدام ، وقيل فى توجيه الخلفية : إن جهنم لما كانت تتحقق لهم بعد الأجل جعلت كأنها خلفهم ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ولا يدفع ﴿مَا كَسَبُوا﴾ أى الذى كسبوه من الأموال والأولاد ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله تعالى أو شيئا من الاغناء على أن «شيئا» مفعول به أو مفعول مطلق ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ أى الذى اتخذوه ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى الأصنام *

وجوز أن تفسر (١٠) بما تعمها وسائر المعبودات الباطلة ، والأول أظهر ، وجوز فى «ما» فى الموضعين أن تكون مصدرية ، وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم ، وفيه تهكم ﴿وَلَهُمْ﴾ فيما وراءهم من جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ لا يقادر قدره ﴿هَذَا﴾ أى القرآن كما يدل عليه ما بعد وكذا ما قبل « كيسمع آيات الله . وإذا علم من آياتنا . وتلك آيات الله نتلوها» ﴿هُدًى﴾ فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ يعنى القرآن أيضا على أن الاضافة للعهد ، وكان الظاهر الاضمار لكن عدل عنه إلى ما فى النظم الجليل لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم ؛ وجوز أن يراد بالآيات ما يشمله وغيره *

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ﴾ من أشد العذاب ﴿أَلِيمٌ ١١﴾ بالرفع صفة «عذاب» أخر للفاصلة *

وقرأ غير واحد من السبعة «أليم» بالجر على أنه صفة «رجز» ، وجعله صفة «عذاب» أيضا والجر للمجاورة مما لا ينبغى أن يلتفت اليه ، وقيل : على قراءة الرفع إن الرجز بمعنى الرجس الذى هو النجاسة ، والمعنى لهم عذاب أليم من تجرع رجس أو شرب رجس والمراد به الصديد الذى يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه ولا داعى لذلك كما لا يخفى ، وتنوين «عذاب» فى المواقع الثلاثة للتفخيم ، ورفعه إما على الابتداء وإما على الفاعلية للظرف ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره تعالى إياه وتسهيل استعمالها فيما يراد بها ، وقيل : بتكوينه تعالى أو بإذنه عز وجل ، وسياق الامتنان يقتضى أن يكون المعنى لتجرى الفلك فيه وأنتم راكبوها *

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتجارة والغوص والصيد وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢﴾ ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك ، وهذا أعنى « الله الذى سخر» الخ ذكر تتميما للتقريع ولهذا رتب عليه الأغراض العاجلة فانه مما يستوجب الشكر غالبا للكافر أيضا فكأنه قيل : تلك الآيات أولى بالشكر ولهذا عقب بما يعم القسمين أعنى قوله سبحانه : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى من الموجودات بأن جعل فيها منافع لكم منها ظاهرة ومنها خفية ، وعقب بالتفكر لينبه على أن التفكر هو الذى يؤدى إلى ما ذكر من الأولوية ويدل به على أن التفكر ملاك الأمر فى ترتيب الغرض على ما جعل آية من الايمان والايقان والشكر ﴿جَمِيعًا﴾ حال

من (مافى السموات وما فى الأرض) أو توكيد له وقوله تعالى: ﴿ مِنْهُ ﴾ حال من ذلك أيضا، والمعنى سخر هذه الأشياء جميعا كائنة منه وحاصلة من عنده يعنى أنه سبحانه مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه *
وجوز فيه أوجه أخر . الأول أن يكون خبر مبتدا محذوف فقيل «جميعا» حينئذ حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور بناء على جواز تقدم الحال على مثل هذا العامل أو من المبتدأ بناء على تجويز الحال منه أى هى جميعا منه تعالى وقيل: جميعا على ما كان ويلاحظ فى تصوير المعنى فالضمير المبتدأ يقدر بعده ويعتبر رجوعه إلى ما تقدم بقيد جميعا ، والجملة على القولين استئناف جىء به تأكيدا لقوله تعالى: «سخر» أى أنه عز وجل أوجدها ثم سخرها لا أنها حصلت له سبحانه من غيره كالملوك، الثانى أن يجعل «مافى السموات» مبتدأ ويكون هو خبره و(جميعا) حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور الواقع صلة ويكون «وسخر لكم» تأكيدا للاول أى سخر وسخر ، وفى العطف إيماء إلى أن التسخير الثانى كأنه غير الأول دلالة على أن المتفكر كلما فكر يزداد إيمانا بكمال التسخير والمنة عليه، وجملة (مافى السموات) الخ مستأنفة لمزيد بيان القدرة والحكمة *
واعترض بأنه إن أريد التأكيد اللغوى فهو لا يخلو من الضعف لأن عطف مثله فى الجمل غير معهود، وإن أريد التأكيد الاصطلاحى كما قيل به فى قوله تعالى: (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) فهو مخالف لما ذكره ابن مالك فى التسهيل من أن عطف التأكيد يختص بثم، وقال الرضى: يكون بالفاء أيضا وهو ههنا بالواو ولم يجوزه أحد منهم وان لم يذكروا وجه الفرق على أنه قد تقرر فى المعانى أنه لا يجرى فى التأكيد العطف مطلقا لشدة الاتصال ، واعترض أيضا بأن فيه حذف مفعول «سخر» من غير قرينة وهذا كما ترى، الثالث أن يكون «ما فى الأرض» مبتدأ و(منه) خبره ولا يخفى أنه ضعيف بحسب المساق *
وأخرج ابن المنذر من طريق عكرمة أن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يكن يفسر هذه الآية ، ولعله إن صح محمول على أنه لم يبسط الكلام فيها ، فقد أخرج ابن جرير عنه أنه قال فيها كل شىء هو من الله تعالى *
وأخرج عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وابن المنذر. والحاكم وصححه. والبيهقى فى الاسماء والصفات عن طاوس قال: جاء رجل الى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء ؟ قال: لا أدرى ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله فقال مثل قول عبد الله بن عمرو فأتى ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فسأله مم خلق الخلق ؟ قال: من الماء والنور والظلمة والريح والتراب قال: فمم خلق هؤلاء ؟ فقرأ ابن عباس «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه» فقال الرجل: ما كان ليأتى بهذا الا رجل من أهل بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم *
واختلف أهل العلم فيما أراد ابن عباس رضى الله تعالى عنهما بذلك فقال البيهقى: أراد أن مصدر الجميع منه تعالى أى من خلقه وابداعه واختراعه خلق الماء أولا أو الماء وما شاء عز وجل من خلقه لا عن أصل ولا عن مثال سبق ثم جعله تعالى أصلا لما خلق بعده فهو جل شأنه المبدع وهو سبحانه البارىء لا إله غيره ولا خالق سواه اه ، وعليه جميع المحدثين والمفسرين ومن حذا حذوهم ، وقال الشيخ ابراهيم الكورانى من الصوفية: إن المخلوقات تعينات الوجود المفاض الذى هو صورة النفس الرحمانى المسمى بالعماء وذلك أن

العماء قد انبسط على الحقائق التي هي أمور عدمية متميزة فى نفس الأمر والانبساط حادث والعماء من حيث اقترانه بالماهيات غير ذات الحق تعالى فانه سبحانه الوجود المحض الغير المقترن بها فالموجودات صور حادثة فى العماء قائمة به والله تعالى قيومها لأنه جل وعلا الأول الباطن الممد لتلك الصور بالبقاء ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الحق تعالى ولا كونه سبحانه مادة لها لأن وجوده تعالى مجرد عن الماهيات غير مقترن بها والمتعين بحسبها هو العماء الذى هو الوجود المفاض فأراد ابن عباس ان الاشياء جميعا منه تعالى أى من نوره سبحانه المضاف الذى هو العماء والوجود المفاض منه تعالى بايجاده جل شأنه، وبهذا ينطبق الجواب على السؤال من غير تكلف ولا محذور، ولو كان مراد ابن عباس مجرد ما ذكره البيهقى من أن مصدر الجميع من خلقه تعالى كان يكفى فى ذلك قوله تعالى: «الله خالق كل شىء» لكن السؤال انما وقع بمم ووقع الجواب بمنه فى تلاوته الآية فالظاهر أن ما فهمه السائل من تلاوته رضى الله تعالى عنه ليس مجرد ما ذكره بقرينة مدحه بقوله: ما كان ليأتى بهذا الخ فان ما ذكره البيهقى يعرفه كل من آمن بقوله تعالى: « الله خالق كل شىء » فلا يظهر حينئذ وجه لقول كل من ابن عمرو. وابن الزبير لا أدرى فانهما من أفضل المؤمنين بأن الله تعالى خالق كل شىء بل ما فهمه هو ما أشرنا اليه اه، وعليه عامة أهل الوحدة (وأجاب الاولون) بأن مراد ابن عباس قطع التسلسل فى السؤال بعد ذكر مادة لبعضها بأن مرجع الامر أن الاشياء كلها خلقت بقدرته تعالى لا من شىء وهو كلام حكيم يمدح قائله لم يهتد اليه ابن الزبير. وابن عمرو، ولا يعكر على هذا قوله تعالى: «أم خلقوا من غير شىء» لما قاله المفسرون فيه وسيأتى ان شاء الله تعالى فى محله فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هداك، وقد أورد الحسين بن على ابن واقد فى مجلس الرشيد هذه الآية ردا على بعض النصارى فى زعمه ان قوله تعالى فى عيسى عليه السلام: «وروحا منه» يدل على ما يزعمه فيه عليه السلام من أنه ابن الله سبحانه وتعالى عما يصفون *

وحكى أبو الفتح. وصاحب اللوامح عن ابن عباس. وعبد الله بن عمرو. والجحدرى. وعبد الله بن عبيد بن عمير أنهم قرؤا «منة» بكسر الميم وشد النون ونصب التاء على أنه مفعول له أى سخر لكم ذلك نعمة عليكم، وحكاها عن ابن عباس أيضا ابن خالويه. لكن قال أبو حاتم: إن سند هذه القراءة اليه مظلم فاذا صح السند يمكن أن يقال فيما تقدم من حديث طاوس: إنه ذكر الآية على قراءة الجمهور ويحتمل أن له قراءتين فيها *

وقرأ مسلمة بن محارب كذلك الا أنه ضم التاء على تقدير هو أو هى منة، وعنه أيضا فتح الميم وشد النون وهاء الكتابة عائدة على الله تعالى أى انعامه وهو فاعل «سخر» على الاسناد المجازى كما تقول: كرم الملك أنعشنى أو هو خبر مبتدأ محذوف أى هذا أو هو منه تعالى، وجوزت الفاعلية فى قراءته الأولى، وتذكير الفعل لأن الفاعل ليس مؤنثا حقيقيا مع وجود الفاصل، والوجه الأول أولى وإن كان فيه تقدير ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أى فيما ذكر ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة الشأن كثيرة العدد ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾ فى بدائع صنعه تعالى وعظائم شأنه جل شأنه فان ذلك يجرهم الى الايمان والايقان والشكر *

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ حذف المقول لدلالة «يغفروا» عليه فانه جواب للامر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أى قل لهم اغفروا يغفروا ﴿ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أى يعفوا ويصفحوا عن

الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى باعدائه ونقمته فيهم فالرجاء مجاز عن التوقع وكذا الأيام مجاز عن الوقائع من قولهم: أيام العرب لوقائعها وهو مجاز مشهور وروى ذلك عن مجاهد أولا يأملون الاوقات التى وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها، والآية قيل: نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها *

وقال بعضهم: لانسخ لأن المراد هنا ترك النزاع فى المحقرات والتجاوز عن بعض ما يؤذى ويوحش، وحكى النحاس. والمهدوى عن ابن عباس أنها نزلت فى عمر رضى الله تعالى عنه شتمه مشرك (١) بمكة قبل الهجرة فهم ان يبطش به فنزلت وروى ذلك عن مقاتل وهذا ظاهر فى كونها مكية كاخواتها، وارادة فهم أن يبطش به بعد الهجرة لأن المسلمين بمكة قبلها عاجزون مقهورون لايمكنهم الانتصار من المشركين والعاجز لايؤمر بالعفو والصفح غير ظاهر محتاج الى نقل، ودوام عجز كل من المسلمين غير معلوم بل من وقف على أحوال أبى حفص رضى الله تعالى عنه لايتوقف فى أنه قادر على ماهم به لايبالى بما يترتب عليه *

وهذا أولى فى الجواب من أن يقال: إن الامر بفعل ذلك بينه وبين الله تعالى بقلبه ليثاب عليه، نعم قيل: إن النبى ﷺ وأصحابه نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال له المريسيع فأرسل ابن أبى غلامه ليستقى فأبطأ عليه فلما أتاه قال له: ماحبسك؟ قال: غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى ﷺ وقرب أبى بكر رضى الله تعالى عنه فقال ابن أبى: مامثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضى الله تعالى عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله تعالى الآية؛ وحكاه الامام عن ابن عباس وهو يدل على أنها مدنية، وكذا ماروى عن ميمون بن مهران قال: إن فنحاصا اليهودى قال: لما أنزل الله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر رضى الله تعالى عنه فاشتمل سيفه وخرج فبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى طلبه حتى رده ونزلت الآية ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤﴾ تعليل للامر بالمغفرة، وجوز أن يكون تعليلا للامر بالقول لأنه سبب لامتثالهم المجازى عليه، والمراد بالقوم المؤمنون الغافرون والتنكير للتعظيم، ولفظ القوم فى نفسه اسم مدح على ماارشد اليه الاشتقاق والاستعمال فى نحو ياابن القوم *

وفى هذا التنكير كمال التعريف والتنبيه على أنهم لايخفون نكروا أوعرفوا مع العلم بأن المجزى لايكون الا العامل وهو الغافر ههنا أى أمروا بذلك ليجزى الله تعالى يوم القيامة قوما أيما قوم وقوما مخصوصين بما كسبوا فى الدنيا من الاعمال الحسنة التى من جملتها الصبر على أذية الكفار والاغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه مالايحيط به نطاق البيان من الثواب العظيم، ومنهم من خص ما كسبوه بالمغفرة والصبر على الاذية، و (ما) فى الوجهين موصولة وجوز أن تكون مصدرية، والباء للسببية أو للمقابلة أوصلة يجزى، وجوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كسبوا سيآتهم التى من جملتها ايذاؤهم المؤمنين والتنكير للتحقير: وتعقب بأن مطلق الجزاء لايصلح تعليلا للامر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بأن لايتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات، وفى ذلك من التكلف ما لايخفى، وأن يراد كلا الفريقين والتنكير للشيوع، وتعقب بأنه أكثر تكلفا وأشد تمحلا، والذى يشهد للوجه السابق ماروى عن سعيد بن المسيب قال: كنا بين يدى عمر رضى الله تعالى عنه فقرأ قارئ هذه الآية فقال: ليجزى عمر بما صنع، وقرأ زيد بن على. وأبو عبد الرحمن. والاعمش.

(١) قيل هو من غفار اه منه

وأبو خليد. وابن عامر. وحمزة. والكسائي (لنجزي) بنون العظمة، وقرئ (ليجزى) بالياء والبناء للمفعول (قوم) بالرفع على أنه نائب الفاعل، وقرأ شيبة . وأبو جعفر بخلاف عنه كذلك الا إنهما نصبا (قوما) وروى ذلك عن عاصم، واحتج به من يجوز نيابة الجار والمجرور عن الفاعل مع وجود المفعول الصريح فيقول: ضرب بسوط زيدا فبما كسبوا نائب الفاعل ههنا ولا يجيز ذلك الجمهور، وخرجت هذه القراءة على أن القائم مقام الفاعل ضمير المصدر أي ليجزى هو أي الجزاء . ورد بأنه لا يقام مقامه عند وجود المفعول به أيضا على الصحيح، وأجازه الكوفيون على خلاف في الاطلاق والاستحسان أو على أنه ضمير المفعول الثاني وهو الجزاء بمعنى المجزى به كما في قوله تعالى: (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) وأضمر لدلالة السياق كما في قوله سبحانه . (ولأبويه) والمفعول الثاني في باب أعطى يقوم مقام الفاعل بلا خلاف وهذا من ذاك، وأبو البقاء اعتبر الخير بدل الجزاء المذكور أو على أن (قوما) منصوب بأعني أو جزى مضمراً لدلالة المجهول على أن ثم جازيا واختاره أبو حيان. و(ليجزى) حينئذ من باب يعطى ويمنع وحيل بين العير والنزوان فمعناه ليفعل الجزاء ويكون هناك جملتان *

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ مالك أموركم ﴿ تُرْجَعُونَ ١٥ ﴾ فيجازيكم على أعمالكم حسبما تقتضيه الحكمة خيرا على الخير وشرا على الشر، والجملة مستأنفة لبيان كيفية الجزاء ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ وهو التوراة على أن التعريف للعهد، وجوز جعله للجنس ليشمل الزبور والانجيل ولا يضر في ذلك كون الزبور أدعية ومناجاة والانجيل أحكامه قليلة جدا ومعظم أحكام عيسى عليه السلام من التوراة لأن إيتاء الكتاب مطلقا منة ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ القضاء وفصل الامور بين الناس لأن الملك كان فيهم واختاره أبو حيان، أو الفقه في الدين ويقال: لم يتسع فقه الاحكام على نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام، أو الحكم النظرية الاصلية والعملية الفرعية ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ حيث كثر فيهم الانبياء عليهم السلام مالم يكثر في غيرهم ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ المستلذات الحلال وبذلك تتم النعمة وذلك كالمن والسلوى ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ١٦ ﴾ حيث آتيناهم مالم نؤت غيرهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا من بعض الوجوه لا من كلها ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد ﷺ عليهم من وجه آخر ومن جهة المرتبة والثواب، وقيل: المراد بالعالمين عالمو زمانهم *

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ دلائل ظاهرة في أمر الدين فمن بمعنى في والبينات الدلائل ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام وبعضهم فسرها بها، وعن ابن عباس آيات من أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعلامات مبينة لصدقه عليه الصلاة والسلام ككونه يهاجر من مكة إلى يثرب ويكون أنصاره أهلها إلى غير ذلك مما ذكر في كتبهم ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ في ذلك الامر ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ بحقيقة الحال فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ عداوة وحسداً لاشكا فيه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ بالمؤاخذة والجزاء ﴿ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٧ ﴾ من أمر الدين ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ ﴾ أي سنة وطريقة من شرعه إذا سنه ليسلك، وفي البحر الشريعة في كلام العرب الموضع الذي يرد منه الناس في الانهار ونحوها

فشريعة الدين من ذلك من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل ، وقال الراغب: الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له شرع وشرعة وشريعة واستعير ذلك للطريقة الالهية من الدين ثم قال :قال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة والصدق روى وتطهر، وأعنى بالرى ماقال بعض الحكماء: كنت أشرب فلا أروى فلما عرفت الله تعالى رويت بلا شرب ، وبالتطهر ماقال عز وجل: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) والظاهر هنا المعنى اللغوى، والتنوين للتعظيم أى شريعة عظيمة الشأن ﴿ مِنَ الْأَمْرِ ﴾ أى أمر الدين ، وجوز أبو حيان كونه مصدر أمر، والمراد من الامر والنهى وهو كما ترى ﴿ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ١٨ ﴾ أى آراء الجهال التابعة للشهوات، والمراد بهم مايعم كل ضال ، وقيل : هم جهال قريظة والنضير ، وقيل : رؤساء قريش كانوا يقولون له ﷺ : ارجع إلى دين آبائك .

﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ من الأشياء أو شيئا من الاغناء ان اتبعتهم والجملة مستأنفة مبينة لعلة النهى ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ لا يواليهم ولايتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم .

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ١٩ ﴾ الذين أنت قدوتهم فدم على ماأنت عليه من توليه سبحانه خاصة والاعراض عما سواه عز وجل بالكلية ﴿ هَٰذَا ﴾ أى القرآن ﴿ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ فان مافيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب ، وقيل : الاشارة إلى اتباع الشريعة والكلام من باب التشبيه البليغ، وجمع الخبر على الوجهين باعتبار تعدد ما تضمنه المبتدأ واتباع مصدر مضاف فيعم ويخبر عنه بمتعدد أيضا ،وقرىء (هذه) أى الآيات ﴿ وَهُدًى ﴾ جليل من ورطة الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٢٠ ﴾ من شأنهم الإيقان بالأمور ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ إلى آخره استئناف مسوق لبيان حال المسيئين والمحسنين إثر بيان حال الظالمين والمتقين، و(أم) منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى، والهمزة لإنكار الحسبان على معنى أنه لا يليق ولا ينبغى لظهور خلافه، والاجتراح الاكتساب ومنه الجارحة للاعضاء التى يكتسب بها كالأيدى ، وجاء هو جارحة أهله أى كاسبهم ، وقال الراغب : الاجتراح اكتساب الاثم وأصله من الجراحة كما أن الاقتراف من قرف القرحة، والظاهر تفسيره ههنا بالاكتساب لمكان (السيئات) والمراد بها على ما فى البحر سيئات الكفر ، وقوله تعالى : ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ﴾ سادمسد مفعولى الحسبان، والجعل بمعنى التصيير وهم مفعوله الأول، وقوله سبحانه : ﴿ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ مفعوله الثانى ، وقوله عز وجل : ﴿ سَوَاءً ﴾ بدل من الكاف بناء على أنها اسم بمعنى مثل ، وقوله تعالى : ﴿ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ فاعل سواء أجرى مجرى مستو كما قالوا : مررت برجل سواء هو والعدم، وضمير الجمع للمجترحين، والمعنى على إنكار حسبان جعل محيا المجترحين ومماتهم مستويين مثلهما للمؤمنين،ومصب الانكار استواء ذلك فان المؤمنين تتوافق حالاهم لأنهم مرحومون فى المحيا والممات وأولئك تتضاد حالاهم فانهم مرحومون حياة لاموتا ، وجوز أن يكون (سواء) حالا من الضمير فى الكاف بناء على ما سمعت من معناها .

وتعقب بأنها اسم جامد على صورة الحرف فلا يصح استتار الضمير فيها وقد صرح الفارسى بمنع ذلك، نعم يجوز أن يكون (كالذين) جارا ومجرورا فى موضع المفعول الثانى و(سواء) حالا من الضمير المستتر فيه ، وقيل: يجوز أيضا كونه حالا من ضمير نجعلهم وكذا يجوز كونه المفعول الثانى، وكون الكاف أو الجار والمجرور حالا من هذا الضمير، وماذكر أولا أظهر وأولى ، وجوز كون ضمير الجمع فى (محياهم ومماتهم) للمؤمنين فسواء حال من الموصول الثانى ولا يجوز أن يكون حالا من الضمير فى (كالذين) لفساد المعنى وكون الضمير للفريقين فسواء حال من مجموع الموصول الثانى وضمير الأول، والمعنى على إنكار حسبان أن يستوى الفريقان بعد الممات فى الكرامة أو ترك المؤاخذه كما استويا ظاهرا فى الرزق والصحة فى الحياة ، وجوز أن يكون المعنى على إنكار حسبان جعل الحياتين مستويتين لأن المؤمنين على الطاعة وأولئك على المعاصى وكذلك الموتان لأنهم ملقون بالبشرى والرضوان وأولئك بالسوء والخذلان ، وقيل : به على تقدير كون الضمير المجترحين أيضا ،

ولم يجوز المدقق الابدال من الكاف على تقدير اشتراك الضمير إذ المثل هو المشبه و(سواء) جار على المشبه والمشبه به،

وقرأ جمهور القراء (سواء محياهم ومماتهم) برفع سواء ومابعده على أن سواء خبر مقدم وما بعده مبتدأ لا العكس لأن سواء نكرة ولا مسوغ للابتداء بها والضمير للمجترحين ، والجملة قيل : بدل من المفعول الثانى لنجعل بدل كل من كل أو بدل اشتمال أو بدل بعض، وأيا ما كان ففيه إبدال الجملة من المفرد وقد أجازه أبو الفتح واختاره ابن مالك ، وأورد عليه شواهد ، قال أبو حيان : لا يتعين فيها البدل ، وقال محمد بن عبدالله الاشبيلى المعروف بابن العلج فى كتابه البسيط فى النحو: لا يصح أن تكون جملة معمولة للأول فى موضع البدل فان كانت غير معمولة فهل تكون جملة بدلا من جملة لا يبعد عندى جواز ذلك كالعطف والتأكيد اللفظى ،

وظاهره أنه لا يجوز الإبدال ههنا ، وفى البحر يظهر لى أنه لا يجوز إبدال هذه الجملة من ذلك المفعول لأن الجعل بمعنى التصيير ولا يجوز صيرت زيدا أبوه قائم ولا صيرت زيدا غلامه منطلق لأن فى ذلك انتقالا من ذات إلى ذات أو من وصف فى الذات إلى وصف آخر فيها وليس فى تلك الجملة المقدرة مفعولا ثانيا انتقال مما ذكرنا وفيه بحث لا يخفى ، والزمخشرى قد نص على جعل الجملة بدلا من الكاف وهو إمام فى العربية ، لكن أفاد صاحب الكشف أنه أراد أنه بدل من حيث المعنى لا أنه بدل من ذلك لفظا قال : لأنه مفرد دال على الذات باعتبار المعنى وهذا دال على المعنى وإن كان الذات يلزم من طريق الضرورة إلا أن يقدر له موصوف محذوف بأن يقدر رجالا سواء محياهم ومماتهم مثلا ، والمعنى على البدلية كما سمعت فى قراءة النصب ، وجوز كون الجملة مفعولا ثانيا و(كالذين) حال من ضمير (نجعلهم) ولا يخفى عليك ما عليه وما له، وإذا كان الضمير للمؤمنين فالجملة قيل : حال من الموصول الثانى لا من الضمير فى المفعول الثانى للفساد ، وتعقب بأن فيه اكتفاء الاسمية الحالية بالضمير وهو غير فصيح على ما قيل : وقيل : استئناف يبين المقتضى للانكار على حسبان التماثل وهو ان المؤمنين سواء حالهم عندالله تعالى فى الدارين بهجة وكرامة فكيف يماثلهم المجترحون ، وجوز أن تكون بيانا لوجه الشبه المجمل، واذا كان الضمير للفريقين فالظاهر ان الجملة كلام مستأنف غير داخل فى حكم الانكار والتساوى حينئذ بين حال المؤمنين بالنسبة اليهم خاصة وحال المجترحين كذلك وتكون الجملة تعليلا للانكار فى المعنى دالا على عدم المماثلة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة لأن المؤمنين متساوو المحيا والممات فى الرحمة وأولئك متساوو المحيا والممات فى النقمة إذ المعنى كما يعيشون يموتون فلما افترق حال هؤلاء وحال هؤلاء حياة فكذلك

موتا ، وأما الابدال فقد علم حاله فتأمل *

وقرأ الأعمش (سواء) بالنصب (محياهم) ومماتهم بهأيضا،وخرج الأول على ما سمعت ونصب محياهم ومماتهم على الظرفية لأنهما اسما زمان أومصدران أقيما مقام الزمان والعامل إما (سواء) أو (نجعلهم)،هذا والآية وإن كانت في الكفار على ما نقل عن البحر وهو ظاهر ما روى عن الكلبي من أن عتبة . وشيبة. والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه . وحمزة رضي الله تعالى عنه . والمؤمنين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقا لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا فنزلت الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) الخ *

وهي متضمنة للرد عليهم على جميع أوجهها كما يعرف بأدنى تدبر يستنبط منها تباين حالي المؤمن العاصي والمؤمن الطائع ، ولهذا كان كثير من العباد يبكون عند تلاوتها حتى أنها تسمى مبكاة العابدين لذلك،فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد . والطبراني. وجماعة عن أبي الضحى قال: قرأ تميم الداري سورة الجاثية فلما أتى على قوله تعالى (أم حسب الذين) الآية لم يزل يكررها ويبكي حتى أصبح وهو عند المقام*

وأخرج ابن أبي شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلي فمر بهذه الآية (أم حسب الذين) الخ فلم يزل يرددها حتى اصبح ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه اذا قرأها: ليت شعري من أي الفريقين أنت *

وقال ابن عطية: إن لفظها يعطي أن اجتراح السيئات هو اجتراح الكفر لمعادلته بالايمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بالاجتراح وعمل الصالحات ويكون الايمان في الفريقين ولهذا بكى الخائفون عند تلاوتها *

ورأيت كثيرا من المغرورين المستغرقين ليلهم ونهارهم بالفسق والفجور يقولون بلسان القال والحال: نحن يوم القيامة أفضل حالا من كثير من العابدين وهذا منهم والعياذ بالله تعالى ضلال بعيد وغرور ماعليه مزيد

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١ ﴾ أي ساء حكمهم هذا وهو الحكم بالتساوي فما مصدرية والكلام اخبار عن قبح حكمهم المعهود *

ويجوز أن يكون لانشاء ذمهم على أن (ساء) بمعنى بئس فما فيه نكرة موصوفة وقعت تمييزا مفسراً لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أي بئس شيئا حكموا به ذلك ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ كأنه دليل على إنكار حسبانهم السابق أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: (سواء محياهم ومماتهم) استئنافا وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم والتفاوت بين المسيء والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتما ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ عطف على (بالحق) لأنه في معنى العلة سواء كانت الباء للسببية الغائية أو الملابسة ، أما على الأول فظاهر، وأما على الثاني فلأن المعنى خلقها ملتبسة ومقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل وحاصله خلقها لأجل ذلك أو عطف على علة محذوفة مثل ليدل سبحانه بها على قدرته أو ليعدل،وما موصولة أو مصدرية أي ليجزى كل نفس بالذي كسبته أو بكسبها ﴿ وَهُمْ ﴾ أي النفوس المدلول عليها بكل نفس ﴿ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢ ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عذاب، والجملة في موضع الحال، وتسمية ذلك ظلما مع أنه ليس كذلك لأنه منه سبحانه تصرف في ملكه والظلم صرف في ملك الغير بغير إذنه لأنه لو فعله غيره عز وجل كان ظلما

فالكلام على الاستعارة التمثيلية أو أنه لما كان مخالفا لوعده سبحانه الحق سماه تعالى ظلما *

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه يعبده فالكلام على التشبيه البليغ أو الاستعارة، والفاء للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة أى أنظرت من هذه حاله فرأيته فان ذلك مما يقضى منه العجب، وأبو حيان جعل أرأيت بمعنى أخبرنى وقال: المفعول الأول من (اتخذ) والثانى محذوف يقدر بعد الصلات أى أيهتدى بدليل «فمن يهديه» والآية نزلت على ما روى عن مقاتل فى الحرث بن قيس السهمى كان لايهوى شيئا إلا ركبه، وحكمها عام وفيها من ذم اتباع هوى النفس ما فيها، وعن ابن عباس «ما ذكر الله تعالى هوى إلا ذمه».

وقال وهب: إذا شككت فى خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته، وقال سهل التسترى: هواك داؤك فان خالفته فدواؤك، وفى الحديث «العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى».

وقال أبو عمران موسى بن عمران الأشبيلى الزاهد:

فخالف هواها واعصها إن من يطع ... هوى نفسه ينزع به شر منزع

ومن يطع النفس اللجوجة ترده ... وترم به فى مصرع أى مصرع

وقد ذم ذلك جاهلية أيضا، ومنه قول عنترة:

أنى امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها

ولعل الأمر غنى عن تكثير النقل *

وقرأ الأعرج. وأبو جعفر (إلهة) بتاء التأنيث بدل هاء الضمير. وعن الأعرج أنه قرأ «آلهة» بصيغة الجمع *

قال ابن خالويه: كان أحدهم يستحسن حجرا فيعبده فاذا رأى أحسن منه رفضه مائلا اليه، فالظاهر أن آلهة بمعناها من غير تجوز أو تشبيه والهوى بمعنى المهوى مثله فى قوله: * هواى مع الركب اليمانين مصعد *

﴿وَأَضَلَّهُ اللهُ﴾ أى خلقه ضالا أو خلق فيه الضلال أو خذله وصرفه عن اللطف على ما قيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حال من الفاعل أى أضله الله تعالى عالما سبحانه بأنه أهل لذلك لفساد جوهر روحه *

ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى اضله عالما بطريق الهدى فهو كقوله تعالى: (فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم) ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات *

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ مانعة عن الاستبصار والاعتبار والكلام على التمثيل، وقرأ عبد الله. والاعمش (غشاوة) بفتح الغين وهى لغة ربيعة، والحسن. وعكرمة. وعبد الله أيضا بضمها وهى لغة عكلية، وأبو حنيفة. وحمزة. والكسائى. وطلحة. ومسعود بن صالح. والاعمش أيضا (غشوة) بفتح الغين وسكون الشين، وابن مصرف. والاعمش أيضا كذلك الا أنهما كسرا الغين ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ﴾ أى من بعد اضلاله تعالى اياه، وقيل: المعنى فمن يهديه غير الله سبحانه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ أى ألا تلاحظون فلا تذكرون، وقرأ الجحدرى (تذكرون) بالتخفيف، والاعمش «تتذكرون» بتاءين على الاصل ﴿وَقَالُوا﴾ بيان لاحكام اضلالهم والختم على سمعهم وقلوبهم وجعل

غشاوة على أبصارهم فالضمير لمن باعتبار معناه أو للكفرة ﴿ مَاهِيَ ﴾ أي ما الحياة ﴿ الاَّحَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ التي نحن فيها، ويجوز أن يكون الضمير للحال والحياة الدنيا من جملة الاحوال فيكون المستثنى من جنس المستثنى منه أيضا لا استثناء حال الحياة الدنيا من أعم الاحوال ولا حاجة إلى تقدير حال مضافا بعد اداة الاستثناء أي ما الحال الاحال الحياة الدنيا ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحي في النظم الجليل للفاصلة أي تموت طائفة وتحيا طائفة ولا حشر أصلا ، وقيل : في الكلام تقديم وتأخير أي نحيا ونموت وليس بذاك ، وقيل : أرادوا بالموت عدم الحياة السابق على نفخ الروح فيهم أي نكون نطفا وماقبلها ومابعدها ونحيا بعد ذلك ، وقيل : أرادوا بالحياة بقاء النسل والذرية مجازا كأنهم قالوا: نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء اولادنا وذرارينا ، وقيل . أرادوا يموت بعضنا ويحيا بعض على أن التجوز في الاسناد ، وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز اعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الاصنام ولا يخفى بعد ذلك ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما (ونحيا) بضم النون ﴿ وَمَايُهْلِكُنَا الاَّ الدَّهْرُ ﴾ أي طول الزمان فالدهر أخص من الزمان وهو الذي ارتضاه السعد ، ولهم في ذلك كلام طويل، وقال الراغب : الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، وهو خلاف الزمان فانه يقع على المدة القليلة والكثيرة ، ودهر فلان مدة حياته ، ويقال: دهر فلانا نائبة دهرا أي نزلت به حكاه الخليل فالدهر ههنا مصدر *

وذكر بعض الأجلة أن الدهر بالمعنى السابق منقول من المصدر وانه يقال: دهره دهرا أي غلبه وإسنادهم الاهلاك إلى الدهر إنكار منهم لملك الموت وقبضه الأرواح بأمر الله عز وجل وكانوا يسندون الحوادث مطلقا اليه لجهلهم انها مقدرة من عند الله تعالى ، واشعارهم لذلك مملوءة من شكوى الدهر وهؤلاء معترفون بوجود الله تعالى فهم غير الدهرية فانهم مع إسنادهم الحوادث إلى الدهر لا يقولون بوجوده سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، والكل يقول باستقلال الدهر بالتأثير ، ولا يبعد أن يكون الزمان عندهم مقدار حركة الفلك كما ذهب اليه معظم الفلاسفة . وقد جاء النهي عن سب الدهر . أخرج مسلم «لا يسب أحدكم الدهر فان الله هو الدهر» وأبو داود . والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم قال الله عز وجل : «يؤذيني ابن آدم يقول ياخيبة الدهر فلا يقل أحدكم ياخيبة الدهر فاني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره» والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم أيضا يقول الله عز وجل : «استقرضت عبدي فلم يقرضني وشتمني عبدي وهو لا يدري يقول وادهراه وأنا الدهر» والبيهقي «لا تسبوا الدهر قال الله عز وجل : أنا الأيام والليالي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك» ومعنى ذلك أن الله تعالى هو الآتي بالحوادث فاذا سببتم الدهر على أنه فاعل وقع السب على الله عز وجل *

وعد بعضهم سبه كبيرة لأنه يؤدي إلى سبه تعالى وهو كفر ، وما أدى اليه فأدنى مراتبه أن يكون كفرا (١) *

(١) قوله فأدنى مراتبه أن يكون كفرا كذا بالأصل ولعل الأولى أن يكون كبيرة

وكلام الشافعية صريح بأن ذلك مكروه لا حرام فضلا عن كونه كبيرة، والذي يتجه في ذلك تفصيل وهو أن من سبه فان أراد به الزمن فلا كلام في الكراهة ، أو الله عز وجل فلا كلام في الكفر، ومثله إذا أراد المؤثر الحقيقي فانه ليس إلا الله سبحانه ؛ وإن أطلق فهذا محل التردد لاحتمال الكفر وغيره وظاهر كلامهم هنا أيضا الكراهة لأن المتبادر منه الزمن وإطلاقه على الله تعالى كما قال بعض الأجلة إنما هو بطريق التجوز *

ومن الناس من قال: إن سبه كبيرة ان اعتقد أن له تأثيرا فيما نزل به كما كان يعتقد جهلة العرب، وفيه نظر لأن اعتقاد ذلك كفر وليس الكلام فيه، وأنكر بعضهم كون ما في حديث أبي داود . والحاكم «فاني أنا الدهر» بضم الراء وقال : لو كان كذلك كان الدهر من أسمائه تعالى وكان يرويه «فاني أنا الدهر» بفتح الراء ظرفا لأقلب أي فاني أنا أقلب الليل والنهار الدهر أي على طول الزمان وممره، وفيه أن رواية مسلم فان الله هو الدهر تبطل مازعمه ، ومن ثم كان الجمهور على ضم الراء . ولا يلزم عليه أن يكون من أسمائه تعالى لما سبق أن ذلك على التجوز، وحكى الراغب عن بعضهم أن الدهر الثاني في حديث مسلم غير الأول وأنه مصدر بمعنى الفاعل، والمعنى أن الله تعالى هو الدهر أي المصرف المدبر المفيض لما يحدث ، وفيه بعد *

وقرأ عبد الله (الا دهر) وتأويله الادهر يمر ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ ﴾ أي بما ذكر من قصر الحياة على ما في الدنيا ونسبة الاهلاك إلى الدهر ﴿ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مستند إلى عقل أو نقل ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ ﴾ ماهم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم ما يصح أن يتمسك به في الجملة ، هذا معتقدهم الفاسد في أنفسهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الناطقة بالحق الذي من جملته البعث ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على ما نطقت به مما يخالف معتقدهم أو مبينات له ﴿ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ ﴾ بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى :

﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ ﴾ أي في أنا نبعث بعد الموت أي ما كان متمسكا لهم شيء من الأشياء إلا هذا القول الباطل الذي يستحيل أن يكون حجة ، وتسميته حجة لسوقهم إياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو أنه من قبيل * تحية بينهم ضرب وجيع * أي ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة، والمراد نفي أن يكون لهم حجة فانه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالا كاعادة آبائهم التي طلبوها في الدنيا امتناعه بعد لتمتنع الاعادة إذا قامت القيامة، والخطاب في (ائتوا. وكنتم) للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين إذ هم قائلون بمقالته صلى الله تعالى عليه وسلم من البعث طالبون من الكفرة الاقرار به ، وجوز أن يكون له عليه الصلاة والسلام وللانبياء عليهم السلام الجائين بالبعث وغلب الخطاب على الغيبة *

وقال ابن عطية : (ائتوا. وكنتم) من حيث المخاطبة له صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد هو وإلهه والملك الذي يذكر عليه الصلاة والسلام نزوله عليه بذلك وهو جبريل عليه السلام ، وهو كما ترى *

وقرأ الحسن . وعمرو بن عبيد . وابن عامر فيما روى عنه عبد الحميد . وعاصم فيما روى هرون . وحسين عن أبي بكر عنه (حجتهم) بالرفع على أنه اسم كان وما بعد خبر أي ما كان حجتهم شيئا من الأشياء إلا هذا القول الباطل، وجواب (إذا) ماكان الخ ، ولم تقترن بالفاء وإن كانت لازمة في المنفي بما إذا وقعت جواب الشرط لأنها غير جازمة ولا أصلية في الشرطية، وهو سر قول أبي حيان : إن إذا خالفت أدوات الشرط بأن جوابها إذا كان

منفيا بما لم تدخل الفاء بخلاف أدوات الشرط فلا بد معها من الفاء نحو إن تزرنا فما جفوتنا فلا حاجة إلى تقدير جواب لها كعمدوا إلى الحجج الباطلة خلافا لابن هشام. واستدل بوقوع ما ذكر جوابا على أن العمل فى إذا ليس للجواب لصدارة ما المانعة منه ولا قائل بالفرق، ولعل من قال بالعمل يقول يتوسع فى الظرف مالم يتوسع فى غيره، ثم ان المعنى على الاستقبال لمكان (إذا) أى ما تكون حجتهم إلا أن يقولوا ذلك *

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ ابتداء ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم على ما دل عليه الحجج لا الدهر كما تزعمون ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى فيه وجوز كون الفعل مضمنا معنى مبعوثين أو منتهين ونحوه ومعنى فى أظهر أى يجمعكم فى يوم القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى فى جمعكم فان من قدر على البدء قدر على الاعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لامحالة فى ذلك اليوم والوعد الصدق بالآيات دل على قرعها، وحاصله أن البعث أمر ممكن أخبر به الصادق وتقتضيه الحكمة وكل ما هو كذلك لامحالة واقع والاتيان بالآباء حيث كان منافيا للحكمة التشريعية امتنع إيقاعه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٦﴾ استدراك من قوله تعالى: «لا ريب فيه» وهو من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصورهم فى النظر والتفكر لا لأن فيه شائبة ريب ما ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيان للاختصاص المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل اثر بيان تصرفه تعالى بالإحياء والإماتة والبعث والجمع للمجازاة فهو تعميم للقدرة بعد تخصيص *

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ٢٧﴾ قال الزمخشرى: العامل فى (يوم تقوم) يخسر ويومئذ بدل من يوم تقوم وحكاه ابن عطية عن جماعة، وتقديم الظرف على الفعل للحصر لأن كل خسران عند الخسران فى ذلك اليوم كلا خسران، وفيه أيضا رعاية الفواصل على ماقيل، وتعقب حديث الابدال بأن التنوين فى (يومئذ) عوض عن الجملة المضاف اليها، والظاهر أنها تقدر بقرينة ما قبل (تقوم الساعة) فيقال ويوم تقوم الساعة يوم إذ تقوم الساعة يخسر المبطلون فيكون تأكيدا لا بدلا إذلا وجه له، ولذا قيل: إنه بالتأكيد اشبه، وقول أبى حيان: إن كان بدلا توكيديا وهو قليل جاز والافلا لايسمن ولايغنى، وتكلف بعضهم فزعم أن اليوم الثانى بمعنى الوقت الذى هو جزء من يوم قيام الساعة فهو بدل بعض معه عائد مقدر ولما كان فيه ظهور خسرانهم كان هو المقصود بالنسبة، وقالت فرقة: العامل فى (يوم تقوم) مايدل عليه الملك قالوا: وذلك أن يوم القيامة أمر ثالث ليس بالسماء ولا بالارض لتبدلهما فكأنه قيل ولله ملك السموات والارض والملك يوم تقوم الساعة، و(يومئذ) منصوب بيخسر والجملة استئناف وإن كان لها تعلق بما قبلها من جهة تنوين العوض، وقيل: يجوز أن يكون عطفا على ظرف معمول للملك المذكور كأنه قيل: لله ملك السموات والارض اليوم ويوم تقوم الساعة وهو كما ترى، و(المبطلون) الداخلون فى الباطل، ولعل المراد به اعظم انواعه وهو الكفر ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ﴾ من الامم المجموعة ﴿جَاثِيَةً﴾ باركة على الركب مستوفزة وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر لما يكره، وعن ابن عباس جاثية مجتمعة، وعن قتادة جماعات من الجثوة مثلثة الجيم وهى الجماعة تجتمع على جثى أى تراب مجتمع، وعن مؤرج السدوسى جاثية خاضعة بلغة قريش، والخطاب فى (ترى) لمن يصح منه الرؤية اولسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام وهى

بصرية، و (جاثية) حال وجوز أن تكون صفة ولو كانت علمية كانت مفعولا ثانيا، وقرىء (جاذية) بالذال والجذو اشد استيفازا من الجثو لأن الجاذى هو الذى يجلس على اطراف اصابعه، وجوز أن يكون الجاذى بمعنى الجاثى أبدلت ثاؤه ذالا فان الثاء والذال متقارضان كما قيل شحاث وشحاذ ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ إلى صحيفة أعمالها التى كتبتها الحفظة لتحاسب، وأفرد على ارادة الجنس والا فلكل واحد من كل أمة صحيفة فيها أعماله، وقيل: المراد كتاب نبيها تدعى اليه لينظر هل عملت به أولا وحكى ذلك عن يحيى بن سلام الا أنه حمل كل أمة على كل أمة كافرة والظاهر العموم، وقيل: المراد بذلك اللوح المحفوظ أى تدعى إلى ماسبق لها فيه، وقرأ يعقوب (كل) بالنصب وخرج على أنه بدل من كل الاول، وجملة (تدعى) صفة، وابدال الامة المدعوة إلى كتابها من الامة الجاثية حسن وجاء ذلك من الوصف، ويقال مثل ذلك فيما إذا كان الجملة حالا، وإذا كانت الرؤية علمية وجملة (تدعى) مفعولا ثانيا فالظاهر أنه تأكيد، وجعله تأكيدا مع كون الجملة صفة فيه تخلل التأكيد بين الوصفين وهو كما فى الكشف غير مستحسن ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ ﴾ مقول قول مقدر هو حال أو خبر بعد خبر *

وفى الكلام مضاف مقدر أى جزاء ما كنتم الخ أوهو من المجاز، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا ﴾ إلى آخره من تمام مايقال حينئذ، والاشارة إلى الكتاب التى تدعى اليه الامة المقول لها ذلك، وهو إذا كان صحيفة الاعمال فاضافته إلى ضميره جل شانه لأدنى ملابسة على التجوز فى النسبة الاضافية فانه تعالى الذى أمر الكتبة أن يكتبوا فيه أعمالهم، وإن كان الكتاب المنزل على نبى تلك الامة أو اللوح المحفوظ فامر الاضافة ظاهر، وضمير العظمة على سائر الاوجه لتفخيم شأن الكتاب، وجوز أن يكون الضمير للكتبة والاضافة فيه حقيقية قيل: ويأباه (نستنسخ) إلا أن يجعل بمعنى ننسخ ونكتب وستعلم إن شاء الله تعالى مافيه، والاظهر عندى حمل الكتاب فى الموضعين على صحيفة الاعمال واسم الاشارة مبتدأ وما بعده خبر، وقوله سبحانه ﴿ يَنطِقُ عَلَيْكُم ﴾ أى يشهد عليكم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أو حال أو مستأنف، و (بالحق) حال من فاعل (ينطق) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ ﴾ إلى آخره تعليل لنطقه عليهم باعمالهم من غير اخلال بشىء منها أى إنا كنا فيما قبل نستنسخ الملائكة أى نجعلها تنسخ وتكتب ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩ ﴾ فى الدنيا من الأعمال حسنة كانت أو سيئة، وحقيقة النسخ كتابة من أصل ينظر فيه فكان أفعال العباد هى الاصل على مافى البحر، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن الله تعالى خلق النون وهى الدواة وخلق القلم فقال: اكتب قال: ماأكتب؟ قال: اكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول بر أو فاجر ورزق مقسوم حلال أو حرام ثم الزم كل شىء من ذلك بيانه دخوله فى الدنيا متى ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزانا فالحفظة يستنسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فاذا فنى الرزق وانقطع الامر وانقضى الاجل أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فتقول الخزنة مانجد لصاحبكم عندنا شيئا فترجع فيجدونه قدمات ثم قال ابن عباس ألستم قوما عربا تسمعون الحفظة يقولون انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وهل يكون الاستنساخ الامن أصل؟ وفى رواية ابن المنذر. وابن أبى حاتم عنه رضى الله تعالى عنه أنه سئل عن الآية فذكر نحو ماسمعت ثم قال: هل يستنسخ الشىء الامن كتاب، وكون الاستنساخ من اللوح قد رواه جماعة عنه، وماذكرناه يصحح أن يكون هذا القول من الملائكة بدون تأويل «نستنسخ» بننسخ

كما لا يخفى، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ إلى آخره تفصيل للمجمل المفهوم من قوله تعالى: «ينطق عليكم بالحق» أو يجزون من الوعد والوعيد، والمراد بالرحمة الجنة مجازا والظرفية على ظاهرها، وقيل: المراد بالرحمة ما يشمل الجنة وغيرها والأول أظهر ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذى ذكر من الادخال فى رحمته تعالى: ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ٣٠ ﴾ الظاهر كونه فوزاً لافوز وراءه *

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أى فيقال لهم بطريق التقريع والتوبيخ: ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتى تتلى عليكم فجواب أما القول المقدر، وحذف اكتفاء بالمقصود وهو المقول وحذفه كثير مقيس حتى قيل هو البحر حدث عنه، وحذف المعطوف عليه لقرينة الفاء العاطفة وأن تلاوة الآيات تستلزم اتيان الرسل معنى. وهذا على ماذهب اليه الزمخشرى والجمهور على أن الهمزة مقدمة من تأخير لصدارتها والفاء على نية التقديم، والتقدير فيقال لهم: ألم تكن الخ فليس هناك سوى حذف القول، وفى الكشف لو حمل على أن المحذوف فيوبخون لدلالة مابعده عليه، وفائدة هذا الاسلوب مع أن الاصل فيدخلهم فى عذابه الدلالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة والكافرون بعد فى الموقف معذبون بالتوبيخ لكان وجها ﴿ فَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الايمان بها ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ ٣١ ﴾ قوما عادتهم الاجرام ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أى وماوعده سبحانه من الامور الآتية أو وعده تعالى بذلك ﴿ حَقٌّ ﴾ أى كائن هو أو متعلقه لامحالة ففى الكلام تجوز اما فى الطرف أو فى النسبة *

وقرأ الاعرج. وعمرو بن فائد «وإذا قيل أن» بفتح الهمزة على لغة سليم ﴿ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ برفع «الساعة» فى قراءة الجمهور على العطف على محل إن واسمها على ماذهب اليه أبو على وتبعه الزمخشرى، ومن زعم أن لاسم إن موضعا جوز العطف عليه هنا، وزعم أبو حيان أن الصحيح أنه لايجوز كلا الوجهين وعليه فجملة «الساعة لاريب فيها» عطف على الجملة السابقة، وقرأ حمزة (والساعة) بالنصب عطفا على اسم أن وروى ذلك عن الاعمش. وأبى عمرو. وأبى حيوة. وعيسى. والعبسى. والمفضل، وذكر أمر الساعة وانها لاريب فى وقوعها مع أنها من جملة ما وعد الله تعالى اعتناء بامر البعث المقصود بالمقام ﴿ قُلْتُمْ ﴾ لغاية عتوكم: ﴿ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ﴾ أى أى شىء هى استغرابا لها جدا كما يؤذن به جمع (ماندرى) مع الاستفهام *

﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ استشكل ذلك لما أنه استثناء مفرغ وقد قالوا: لايجوز تفريغ العامل إلى المفعول المطلق المؤكد فلا يقال: ماضربت الاضربا لأنه بمنزلة ماضربت الاضربت، وقال الرضى: إن الاستثناء المفرغ يجب أن يستثنى من متعدد مقدر معرب باعراب المستثنى مستغرق لذلك الجنس حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء وليس مصدر نظن محتملا مع الظن غيره حتى يخرج الظن منه، وكذا يقال فى ماضربت الاضربا ونحوه وهذا مراد من قال: إنه من قبيل استثناء الشىء من نفسه. واختلفوا فى حله فقيل: إن معنى مانظن مانفعل الظن كما فى نحو قيم وقعد وحينئذ يصح الاستثناء ويتغاير مورد النفى والايجاب من حيث التقدير والتجوز فى الاستثناء من العام المقدر وجعل «نظن» فى معنى نفعل الفعل لانفعل الظن كأنه قيل: مانفعل فعلا الاالظن، وكذا يقال فى أمثاله ومنها قوله الاعشى:

وحل به الشيب اثقاله   وما اغتره الشيب الا اغترارا

وارتضاه صاحب الكشف، وقيل: مانظن بتاويل مانعتقد ويكون (ظنا) مفعولا به أى ما نعتقد شيئا الاظناء وارتضاه أبو حيان. وتعقب بان ظاهر حالهم أنهم مترددون لامعتقدون . وأجيب بان الاعتقاد المنفى لا ينافى ظاهر حالهم بل يقررها على أتم وجه، وقيل المستثنى ظن أمر الساعة والمستثنى منه مطلق الظن كأنه قيل لاظن ولا تردد لنا الا ظن أمر الساعة والتردد فيه فالكلام لنفى ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة، وقال الرضى: إن ما ضربت الا ضربا يحتمل التعدد من حيث توهم المخاطب اذ ربما تقول ضربت وقد فعلت غير الضرب مما يجرى مجراه من مقدماته كالتهديد فتدفع ذلك وتقول ضربت ضربا فهو نظير جاء زيد زيد فلما كان ضربت محتملا للضرب وغيره من حيث التوهم صار كالمتعدد الشامل للضرب وغيره، وحاصله أن الضرب لما أحتمل قبل التأكيد والاستثناء فعلا آخر حمل على العموم بقرينة الاستثناء فيكون المعنى مافعلت شيئا الا ضربا، وهكذا (ما نظن الا ظنا) وهذا كالمتحد مع ماذكرناه أولا. ورد بان الاستثناء يقتضى الشمول المحقق ولا يكفى فيه الاحتمال المحقق فضلا عن المتوهم *

وتعقب بانه ليس بشىء لأنه إذا تجرد الفعل لمعنى عام صار الشمول محققا على أن عدم كفاية الشمول الفرضى غير مسلم كما يعرفه من يتتبع موارده، وذهب ابن يعيش. وأبو البقاء الى أنه على القلب والتقديم والتأخير والاصل إن نحن الا نظن ظنا وحكى ذلك عن المبرد، وقد حمل عليه ما حكاه أبو عمرو بن العلاء . وسيبويه من قول العرب: ليس الطيب الا المسك بالرفع فقال: الاصل ليس الا الطيب المسك ليكون اسم ليس ضمير الشان وما بعد الا مبتدأ وخبرا فى موضع الخبر لها، ورده الرضى وقال: إنه تكلف لما فيه من التعقيد المخل بالفصاحة *

والمثال المحكى وارد على لغة بنى تميم فانهم عاملوا ليس معاملة ما فاهملوها لانتقاض النفى بالا، وقيل (ظنا) مفعول مطلق لفعل محذوف والمستثنى محذوف والتقدير إن نظن الا أنكم تظنون ظنا *

وحكى عن المبرد أيضا وفيه حذف إن واسمها وخبرها وابقاء المصدر وذلك لا يجوز، وفيه أيضا من التعقيد المخل بالفصاحة ما فيه، ولا أظن صحة حكايته عن المبرد لغاية برودته، وجوز صاحب التقريب أن يكون المراد إن نظن الا ظنا ضعيفا فهو مصدر مبين للنوع حذفت صفته كما صرح به فى البحر لامؤكد، وهذا يوافق ماذكره الامام السكاكى فى بحث أن التنكير قد يكون للتحقير. وتعقب بان قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ يأباه فان مقابل الاستيقان مطلق الظن لا الضعيف منه، وقد صرح غير واحد بان هذه الجملة كالتأكيد لما قبلها والمراد بها استمرار النفى وتأكيده، قيل: والمعنى وما نحن بمستيقنين امكان الساعة أى لا نتيقن امكانها أصلا فضلا عن تحقق وقوعها المدلول عليه بقوله تعالى: (ان وعد الله حق والساعة لاريب فيها) فقولهم ذلك رد لهذا، ولعل المثبتين لأنفسهم الظن من غير ايقان بامر الساعة غير القائلين ان هى الا حياتنا الدنيا فان ذلك ظاهر فى أنهم منكرون للبعث جازمون بنفى الساعة فيكون الكفرة صنفين صنف جازمون بنفيها كائمتهم وصنف مترددون متحيرون فيها فاذا سمعوا ما يؤثر عن آبائهم أنكروها وإذا سمعوا الآيات المتلوة تقهقر انكارهم فترددوا *

ويحتمل اتحاد قائل ذاك وقائل هذا إلا أن كل قول فى وقت وحال فهو مضطرب مختلف الحالات تارة يجزم بالنفى فيقول: إن هى الا حياتنا الدنيا وأخرى يظن فيقول ان نظن الا ظنا، وقيل: الجزم هناك بنفى وقوعها والظن من غير ايقان هنا بمجرد امكانها فهم مترددون بامكانها الذاتى جازمون بعدم وقوعها بالفعل فتأمل *

﴿ تم الجزء الخامس والعشرون ويليه ان شاء الله تعالى الجزء السادس والعشرون وأوله (وبدالهم) ﴾

فهرست

الجزء الخامس والعشرين من تفسير روح المعانى